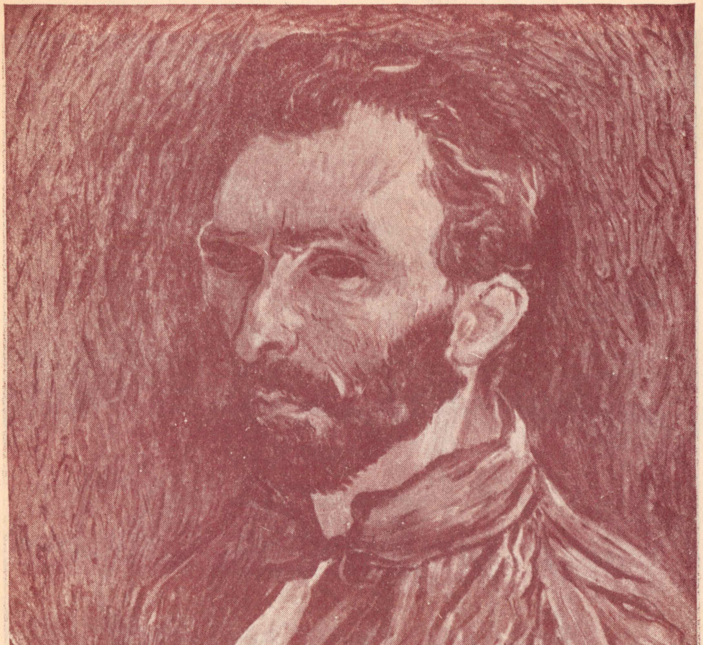

كتابي
حلمي مراد
١٠ قروش
شعارنا: السلام .. لا الاستسلام!
السيف .. وغصن الزيتون!



الرسام يرسم نفسه ! لوحة رائعة تمثل الفنان « فانسانت فان جوخ » ، وقد رسمها بريشته (اقرأ سيرة حياة الفنان فى هذا العدد)



الصبر .. والايمان ! لوحة تمثل فلاحا طاعنا فى السن ،
وقد رسمها « فان جوخ » فى سنة ١٨٨٨ ببلدة (آرل)

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السابع والخمسون (السنة الخامسة) : ديسمبر ١٩٥٦
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الثـــأر للوطن !

عزيزى القارىء :

• كانت الأيام العشرة الخالدة التى مرت ببلادنا بين ٢٩ اكتوبر و ٧ نوفمبر المنصرمين ، أعظم امتحان امتحنت به عزيمة مصر ـ حكومة وشعبا وجيشـا ـ فى تاريخها الحديث على الاطلاق ! .. فقد كانت كل ساعة بل كل دقيقة من تلك الفترة الحرجة تقرر مصير مصر ـ بل والشرق العربى بأسره ـ لقرن كامل من الزمان على الاقل ، اذ لو وهنت فى أية لحظة منهـا أعصاب حكام مصر الابطال ، أو تراخت مقاومة الشعب المصرى النفسية ، أو فتر كفاح بور سعيد الباسلة فى صد العـدوان الثلاثى الآثم ، بكل سلاح .. لو انهارت ـ لا قدر الله ـ احدى هذه الدعائم الثلاث للنصر ، لحاقت بمصر الكارثة التى أرادها لها الاستعمار الغادر ، ولعادت بها عقارب الساعة الى الوراء سبعين عاما أو يزيد !

ورغم ما توحى به الانباء والدلائل ـ حتى ساعة كتابة هذه السطور ـ من اقتراب يوم جلاء القوات المعتدية عن بورسعيد ، بعد أن فشلت فى تحقيق أهدافها الباغية ، بفضل المقـاومة الباسلة من جانب القوات المسلحة ، وجيش التحرير ، وأفراد الشعب جميعا على وجه العموم .. رغم ذلك كله فان واجب الحيطة يقتضينا ان نكون علي حذر ، فلا نأمن جانب الغادرين

حتى يحمل آخر جندى منهم عصاه ويرحل ، غير مأسوف عليه ، الى غير رجعة !

ولمناسبة الدرس القاسى الذى ألقته بور سعيد على المعتدين، يسر (كتابى) و (مطبوعات كتابى) ان يعيدا الى الاذهان فى هذه الايام صورا من كفاح الشعوب الاخرى الصغيرة التى امتحنت خلال الحرب العالمية الماضية بمثل التجربة التى تعرضت لها مصر أخيرا .. وما العهد بعيد بمحنة كل من : بولندا، والنرويج، وهولندا، ويوغوسلافيا ، واليونان ، وغيرها من البلاد الصغيرة التى داستها أقدام جحافل الجنود الالمان ذوى الخوذات الفولاذية والصليب المعقوف ، وهم يذرعون شوارع (وارسو) ، و (أوسلو) ، و (امستردام) ، و (بلغراد) ، و (أثينا) ، وغيرها من العواصم المقهورة !

وقد اخترت لك من بين عشرات القصص الطويلة التى كتبت لتصوير بطولة تلك الشعوب فى مقاومة قوات الاعداء الرابضة فوق أراضيها .. اخترت لك قصة من أروع ما كتب الروائى المتحرر المعاصر ((جون شتاينبيك)) ، هى قصة ((الثأر للوطن)) ، التى اعتزم أن أقدمها لك حوالى منتصف ديسمبر الحالى باذن الله ، وهى تصور بأجمل أسلوب كيف يستطيع الشعب المغلوب على أمره أن يهزم معنوية جنود الاعداء ، ويجعل اقامتهم على أراضيه جحيما لا يطاق ، بحيث لا تجد قيادتهم بدا آخر الامر من ان تخضع للامر الواقع فتجلو عن البلاد التى غزتها ، وتتركها لاصحابها !

وأرجو أن يكون تقديم هذه القصة الرائعة اليك بعد نحو أسبوعين ، فألا وبشيرا بانسحاب آخر فلول القوات الثلاثية المعتدية من أرض مصر الطاهرة ، قبل نهاية الشهر الحالى باذن الله

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

أعداد نفدت

الكتب السنة الأولى ، والادارة مستعدة لشرائها .

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** »، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر ، « **عندما تحقد المرأة** » والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيها الربيع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشيطان على الارض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الارملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بيتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » ، والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون « **ترويض النمرة** » والثامن والعشرون « **فن الحب** » ، والتاسع والعشرون « **الجريمة والعقاب** » ، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الامطار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، والاعداد من ٣٦ الى ٥٦

• **وتطلب** من ادارة « **كتابى** » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول) وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد (المسجل) ماعدا العددين ١٣ ، ١٦ وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر وثمنه عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

• ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو بالطريقة المبينة فى ظهر هذه الصفحة. وتحرر الاذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا

مطبوعات « كتابى »

صدر منها حتى الآن :

قصة مدينتين ـ ذات الثوب الابيض ـ الخالدون ـ الخاطئة ـ حياة امرأة (جزءان) ـ الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم ـ أوديب ـ مدام بوفارى (جزءان) ـ عاشقات فى الخريف ـ قلوب ضالة ـ ديكاميرون (ألف ليلة وليلة الايطالية) ـ الظمأ للحب ـ جين اير (ثلاثة أجزاء) ـ فاتنات الرجال ـ رجال ونساء

وثمن كل من الاول والرابع والسابع ، عشرون قرشا (نظرا لوشك نفادها) والثانى والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، خالصة أجر البريد المسجل .

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الستة الاولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لايبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الاعداد المذكورة .. **فقد رأت ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الاولى تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة . فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على ان يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل .**

الاشتراك فى « كتابى »

• ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل ، وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) : ٦٥ قرشا — فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز الخ .) ترسل القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بتحويلات عليه ، واذا تعذر ذلك ، ترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما فى مصر . وتحتسب القيمة بما يوازى ١٤٠ قرشا (عن سنة) و ٧٥ قرشا (عن نصف سنة) . وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا والمانيا واستراليا الخ . قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) و٨٥ قرشا (عن نصف سنة) خالصة أجر البريد المسجل بخلاف اجر البريد الجوى

دار الهنا للطباعة والنشر — تليفون ٤١٧٠٥



"كا - مو - سى"

البطل الذى قاد معركة تحرير مصر من الهكسوس

تلخيص : فرج جبران

أول درس للجهاد .. فى تاريخ البشرية !

• ان مصر التى رفعت أول مشعل للحضارة فى تاريخ البشر ، هى هى مصر التى رفعت أول علم للجهاد فى حياة الشعوب .. فقد كانت مصر منذ فجر التاريخ قبلة أطماع الشعوب الجشعة ، لما آثرتها بها الاقدار من خيرات وموارد .. ولكنها كانت مقبرة الغزاة والطامعين ! فقد فطرت الروح المصرية على اباء الضيم وعدم الاستكانة لذل الاستعمار ، وحب الجهاد فى سبيل الحرية وفى سبيل محو عار الحكم الاجنبى .. وكم شهد التاريخ من دروس فى الكفاح على أيدى المصريين ، ولكن أروعها على الاطلاق ، هما الدرسان الاول والاخير ! .. أما الأخير ، فاننا نعيش اليوم فيه ، ونذيب أرواحنا فى أتونه لنصبها حمما نحرق بها اعداءنا .. وأما الاول ، فهو الذى يقدمه لك « كتابى » فيما يلى.. ولن تتمالك أن تذهل لما هناك من تشابه بارز ، فان شعب مصر كله يخوض اليوم المعركة مع زعيمه وقائده ، كما خاضها منذ آلاف السنين مع « كا ـ مو ـ سى » !

(١)

• **كان** عهد الاسرة الثانية عشرة من أزهى عصور الدولة الوسطى فى تاريخ مصر القديم . ولكن مصر نكبت بعد تلك الاسرة بعهد مظلم امتد الى اوائل قيام الدولة الحديثة .. اذ لم يكد أول ملوك الاسرة الثالثة عشرة يقضى فى الملك خمس سنوات ، حتى خلع عن العرش . وتلت ذلك فترة سادت فيها الاضطرابات والفتن ، ودب النزاع الداخلى بين أمراء الاقاليم ، فنشبت بينهم الحرب ، وأخذ كل منهم يحاول أن ينتزع العرش لنفسه ! **وهكذا تقلب على الحكم كثيرون ، اذ كان القوى ينتزع السلطان من الضعيف ، حتى ان الواحد منهم لم يكن يقضى فى الحكم اكثر من عام أو عامين . بل ان منهم من لم تزد**

مدة حكمه على ثلاثة أيام فقط !

ولهذا كان من الطبيعى أن لايترك ملوك هذا العهد كثيرا من الآثار التى يمكن أن تتحدث عن تاريخهم ، اذ أن الحروب والمنازعات الداخلية شغلتهم عن اقامة الصروح ، أو تسجيل الحقائق والاحداث . وعلى هذا فقد ظل تاريخ هذه الحقبة فى مصر مظلما ، مجهولا ! وقام معظم ماعرف عنه ، على مااستمد من الاقاصيص الدينية ومن الاستنتاجات .

وكان من السهل - والبلاد على هذه الحالة من الفوضى والاضطراب - أن يطمع الاجانب فيها ، فيعتدوا على استقلالها .. كما كان من السهل أيضا ان لاتقوى على صدهم ، فتقع فريسة سهلة فى أيديهم . وقد حدث فى أواخر عهد الاسرة الثالثة عشرة - حوالى سنة ١٦٨٥ قبل الميلاد - أن أغار على مصر قوم من آسيا عرفوا فى التاريخ باسم « الهكسوس » . وقد اختلف المؤرخون فى أصل هؤلاء القوم ، ورجح البعض أنهم نشأوا نتيجة اختلاط العرب بالفينيقيين .

على ان الشىء الذى أجمع المؤرخون عليه - بشأن هؤلاء الغزاة - هو انهم كانوا من الرعاة ، وانهم انحدروا الى الشرق الاوسط سعيا وراء المراعى ، ثم اجتذبتهم خيرات مصر ، وما كانت عليه حكوماتها من ضعف ، وماكان يسود البلاد من قلاقل واضطرابات ، فأغاروا عليها ، وقد اعدوا أنفسهم لحياة مستقرة . **ومع أن المصريين نظروا اليهم فى احتقار واستصغار شأن المتحضرين اذ ينظرون الى قوم لاوطن لهم ولا استقرار ولا حضارة ولا ثقافة ، الا ان هؤلاء الغزاة وجدوا بين ملوك الاسرة الرابعة عشرة من قبلوا ان يستمروا فى الحكم تحت سيطرة المستعمر الغاصب !** .. ومن ثم انشأ الهكسوس فى الوجه البحرى مدينة أطلقوا عليها اسم (أواريس) - وهى المعروفة فى أيامنا باسم (هوارة) - واتخذوها عاصمة لهم ،

وجعلوا من ملوك الاسرة الرابعة عشرة ولاة يحكمون باسمهم !
واستطاعوا عن طريق هؤلاء الملوك ان يوطدوا سلطانهم ، فما ان انقضى عهد الاسرة الرابعة عشرة حتى قبضوا بأنفسهم على أزمة الحكم ، وأسسوا الاسرة الخامسة عشرة ، ثم أخذ نفوذهم يزداد . وظل حكمهم جاثما على صدور المصريين أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان . وتدل الظواهر كلها على ان ملكهم امتد من صحراء العرب الى الشرق الادنى ، وهذا ماجعلهم يتخذون قاعدة حكمهم فى شرق الدلتا
ولم تكن للهكسوس من مفخرة سوى انهم امتازوا بالتفوق فى الفنون العسكرية ، وقد أخذ المصريون عنهم طريقة تقسيم الجيوش الى فرق ووحدات . **وقد أدى افتقار هؤلاء الغزاة للحضارة ، الى تأثرهم بمدنية عريقة أصيلة كالمدنية المصرية ، فى حين ان المصريين لم يتأثروا بوجودهم فى مصر ، رغم انه امتد زهاء ١٥٠ عاما**
وهكذا المدنية المصرية دائما .. تنتصر حتى على الغزاة الفاتحين ، فتصبغهم بصبغتها ، وتصهرهم فى بوتقتها ، دون أن تتأثر هى بالغزو أو بالفتح !

(٢)

• **ولكن** مصر لم تكن ـ فى أية فترة من تاريخها ـ بالدولة التى تسكت على الضيم ، أو تسلس قيادها لمستعمر أجنبى .. وكان طمع الهكسوس فى عرش الفراعنة بمثابة دقات الناقوس انذارا بالجهاد .. ولا بد ان هذه الدقات سرت الى آذان الهكسوس ، فخشوا غضبة المصريين ، وارتضوا أن يقوم فى (طيبة) ملك مصرى ، بينما يقوم فى (أوا ريس) ملك هكسوسى!
وشهد التاريخ نظاما عجيبا للحكم يتولاه ملك أجنبى فى عاصمة جديدة ، وملك مصرى صميم فى العاصمة المصرية العريقة .. عاصمة الفراعنة !

وقدر لعرش (طيبة) أن يتولاه ملك يدعى «سكنن ــ رع»، حظى بمحبة الشعب والكهنة ، وبعث وجوده فى القلوب آمال التحرر والخلاص ، فبدأت العناصر الوطنية تبث بذور حركة التحرير وتتعهدها بالرى والعناية . وفى تلك الاثناء ، تولى عرش (اواريس) ملك هكسوسى يدعى « أبو فيس » أوغرت صدره محبة الشعب للملك المصرى والتفافه حوله ، كما ملأت نفسه السخيمة والحسـد ، لازدياد نفوذ « سكنن ــ رع » والتفاف الامراء المصريين حوله ، وولاء أقاليم مصر الوسطى كلها له ، حتى أنها أخذت تدفع له الضرائب متجاهلة حكومة الهكسوس .

وبدأ النزاع بين الملك المصرى والملك الهكسوسى ــ فى بداية الامر ــ كما لو كان خلافا من أجل السلطة والمال . ولكنه لم يلبث ان اتخذ مظهرا آخر ، اذ دخله عنصر جديد .. عنصر الدين . فقد كان معبود (طيبة) هو الاله « آمون » ، مما زاد من مكانة صاحب عرش تلك العاصمة الدينية . وقد ظن « أبو فيس » أن بوسعه ان يقضى على نفوذ (طيبة) ــ وعلى نفوذ « سكنن ــ رع » فى الوقت ذاته ــ اذا هو صرف المصريين عن عبادة « آمون » ، ومن ثم أصدر أوامره الى الشعب بأن يقصر عبادته وقرابينه على معبود الهكسوس « ست بعل » ، بوصفه رب الارباب !

وكان من الطبيعى أن يرفض « سكنن ــ رع » التحول عن اله وطنه واجداده وأهله ، لمجرد الاستجابة لامر «أبوفيس» .. وعلى هذا ، أخذ النزاع بين الملكين يشتد ويستفحل ..

وكانت محاولة الهكسوس القضاء على « آمون » ، بمثابة اللهب الذى أشعل البارود ، اذ تجمع المصريون حول « سكنن ــ رع » ، وهم يرون أن الوقت قد حان لتخليص البلاد من ربقـة الرعاة ، ولتحريرها من ذلة الخضوع للمسـتعمرين الاجانب !

وقامت الحرب بين الهكسوس والمصريين .. وتولى « سكنن ـ رع » بنفسه قيادة المجاهدين المصريين ، فما لبث ان استشهد فى ساحة الشرف . وعرف بعد ذلك من فحص مومياءه انه أصيب فى ميدان القتال بثلاث طعنات من حراب الاعداء .. وقد تجلت خسة الهكسوس واضحة من أثر جرح دل على انهم طعنوه بالخناجر فى رأسه عند سقوطه !

ومات « سكنن ـ رع » وهو لم يبلغ الاربعين من عمره .. ولكن الحركة لم تمت بموته ، بل انه كان قد فتح طريق الجهاد لقومه ، فمضوا فى تلك الطريق متدافعين نحو الغاية السامية : طرد العدو من أراضيهم !

ولعل « سكنن ـ رع » كان أول بطل من أبطال الجهاد فى العالم ، أو بالاحرى أول شهيد من شهداء الحرية الحمراء !

(٣)

• **ولقد** قامت المرأة المصرية هى الاخرى بدور نبيل فى الجهاد لانقاذ الوطن من براثن الاحتلال . وقد سجل التاريخ بوجه خاص اسم الملكة « اياح حتب » ، التى يشك البعض فى أنها كانت زوجة الملك الشهيد « سكنن ـ رع » ، وأنها تلقت علم الجهاد منه ، ورفعته من بعده ، فأذكت روح الوطنية بين المصريين ، حتى تأججت نيرانها فى عهد الملك « كا ـ مو ـ سى » ، بطل التحرير !



فعندما تولى « كا ـ مو ـ سى » الحكم ، وجد أن وادى النيل ينقسم الى ثلاثة أقسام : أقاليم الشمال والوسط التى

كانت تخضع لحكم الهكسوس . وصعيد مصر الذى كان يخضع لحكم امراء (طيبة) ـ أى لحكمه هو ـ وبلاد النوبة التى أصبحت فى ذلك العهد فى أيدى أمراء (كوش) و (نوبيا)، بعد ان كانت خاضعة لحكم مصر من قبل .. بل ان أقليم « كا ـ مو ـ سى » نفسه كان مهددا من الجنوب بمطامع أمراء النوبة !

وبدأ « كا ـ مو ـ سى » يضيق ذرعا بتلك الاوضاع ، ويرى أن فى بقائها هوانا مزريا لمصر وتاجها وامرائها . وأيقن أن لاخلاص لمصر الا بطرد الهكسوس ، وبتأديب الجنوبيين .. وراح يوازن بين المهمتين ، حتى انتهى الى أن حرب التحرير هى الاجدر بالاولوية ، فان الانتصار فيها خليق بأن ينقذ مصر من الهكسوس ـ وهم مصدر الخطر الاكبر ـ وان يرفع الروح المعنوية فى البلاد ، ويرد لارض الفراعنة عزتها . أما امراء كوش و نوبيا ، ففى الوسع تسوية الحساب معهم بعد ذلك

وقرر « كا ـ مو ـ سى » ان يتم رسالة « سكنن ـ رع » فى التحرير . فدعا ذات يوم مجلس بلاطه الى الاجتماع ، ليشترك اعضاؤه فى الرأى ويدرسون معه الموقف . حتى اذا رأى من المجلس تجاوبا ، قرر ان يوسع نطاق الدعوة ، فعقد اجتماعا حضره الامراء والحكام والاعيان ، فما ان عرفوا حقيقة أهدافه وما يرمى اليه من وراء دعوتهم ، حتى تباروا فى تأييده والاشادة بشجاعته وقوة شكيمته ومقدرته على هزيمة الاعداء ، و دعوا له بالتوفيق والنصر والمجد !

ولكن « كا ـ مو ـ سى » لم يكن فى حاجة الى المديح والاطراء ولا لمجرد الدعوات ، ومن ثم فقد وجه الحديث الي الامراء

قائلا : « وماذا أفادت شجاعتى التى تغنيتم بها ؟.. ان هناك أميرا أجنبيا يحكم فى (اواريس) ، وأميرا أجنبيا آخر يحكم فى (نوبيا) .. وأنا محاصر بين الاسـيوى والنوبى ، فهما يقتسمان معى أرض مصر .. بل لقد أخذ الهكسوس يتوغلون فى البـلاد ، وما كنت أظن أنهم سيتمكنـون من الاقتراب من (منف) ، ولكنهم وصلوا الى (الاشمونين) ! »

وانتظر « كاــ مو ــ سى » حتى يرى أثر كلماته هــذه فى الامراء والاعيان ، ولكنهم تبادلوا نظرات خانعة ذليلة . وما لبث أن استجمع أحدهم أطراف شجاعته وقال موجها الحديث الى الملك : « ان البلاد مازالت بخير أيها الملك ، ورغد العيش مازال يغمرنا ، وماشيتنا مازالت ترعى حرة طليقة ، من الجنوب حتى حدود الدلتا .. ثم ان الغلال وفيرة ، من محاصيل الشمال .. فليس هناك ــ والحال هذه ــ مايضيرنا من بقاء العدو فى مكانه بشمال الدلتا ، طالمـا كان المصريون يحتفظون بملك مصر »

وهــكذا خـذل الامراء والاعيان مليكهم ، وأبدوا له انهم يفضلون حياة الذلة والاستكانة على الجهاد فى سبيل الحرية . ولكن « كاــ مو ــ سى » لم يشأ أن ييأس ، بل انه عنفهم على موقفهم ، وأعلن سخطه وغضبه على المتخاذلين ، وأقسم بآمون ــ الاله العظيم ــ ان لايعرف للراحــة معنى ، حتى يهزم الهكسوس ويحرر مصر من حكمهم . ثم صاح فى المجتمعين انه سيخرج وحده الى العدو ليبقر بطنه ! .. **وبدلا من ان يعتمد على الامراء والاعيان ، اتجه الى الشعب .. ونادى فى الناس : « ألا فليعلم أهل طيبة جميعا أن الملك كا ــ مو ــ سى**

سوف يخرج الى العدو بأمر آمون ! »

وأثارت هـذه الروح السامية ـ روح الوطنية والعظمة القومية ـ حماس المصريين المجاهدين ، فالتفوا حول « كا ـ مو ـ سى » ، وساروا من خلفه ، فاتجه بهم شمالا ليحرر البلاد من حكم الهكسوس . وكانت أولى البلاد التى حررها هى بلدة (نفروسى) ، التى كانت تقع فى شمال أسيوط . وكان لهـذا الفوز أثره فى اذكاء حمية المجاهدين ، فواصلت قواتهم زحفها نحو الشمال

وكان لشجاعة « كا ـ مو ـ سى » وروحه الوثابة أكبر الاثر فى تحرير الاقاليم الوسطى وانقاذها من الهكسوس ، وبذلك رد هؤلاء الرعاة الى معاقلهم الاولى فى شمال وادى النيل ، بعد ان كانوا يوشكون على الاستيلاء على مصر كلها ، بما فيها (طيبة) .. عاصمة الفراعنة ، ومقر (آمون) !

ويبدو ان « كا ـ مو ـ سى » اكتفى بتطهير الاقاليم الوسطى من الهكسوس ، حتى اذا اطمأن الى انهم قد اعتصموا بعاصمتهم (اواريس) ، رأى ان يتركهم هناك مؤقتا ليتفرغ لتحرير جنوب الوادى من امراء كوش ونوبيا

***

• **وعاد** « كا ـ مو ـ سى » الى (طيبة) ليروى قصة انتصاره ، ويسجلها على أثر من آثاره ، فى ملحمة شعرية :

« لقد أمرنى الهى آمون أن أتجه شمالا
« لارد الرعاة الاسيويين ،
« فاندفع جيشى الشجاع أمامى ،
« اندفاع اللهب من النار !
« وفى (نفروسى) بمصر الوسطى
« دارت الحرب ضد الحاكم الموالى للهكسوس
« فلم أترك له فرصة الهرب
« وفى اليوم التالى للمعركة
« انقضضت على أعدائى كالصقر
« فلم يكد النهار يبلغ نهايته ،
« حتى كنت هدمت أسوار العدو وحصونه ،
« وقتلت جنوده ، وأسرت زوجته
« فعدت بها أسيرة الى الشاطىء ! »

ولم يغفل الملك المجاهد النبيل حق جنوده فى الخلود ، فسجل فى قصيدته دورهم :

« أما جنودى ، فقد كانوا كالاسود !
« وقد عادوا من الحرب ليقتسموا غنائمهم ،
« من العبيد والحيوانات والدهن والعسل ! »

ومن (طيبة) ، اتجه « كا ـ مو ـ سى » جنوبا ليقضى على خطر الكوشيين والنوبيين ، فنجح فى مهمته واخضع الخارجين على مصر من أهل تلك الجهات ، وسجل انتصاره على بعض الصخور ، ثم عاد ثانية الى (طيبة) ليستعد من جديد للقضاء على الهكسوس قضاء مبرما ، ويطهر أرض مصر



منهم تماما .. بيد أنه مات قبل أن يتم رسالته ، تاركا ذلك الواجب الاخير لاخيه الصغير « احمو - سى » ، الذى تولى الحكم من بعده ، واشتهرباسم « أحمس »

(٤)

• والى الملك « أحمس » ينسب فضل القضاء على الهكسوس وانزال الهزيمة النهائية بهم . فما كاد يتولى الحكم بعد وفاة « كا - مو - سى » ، حتى اندفع نحو الشمال ليتم العمل الذى بدأه أخوه ، والذى اشعل شرارته الاولى « سكنن - رع »

ويبدو من دراسة الآثار والبرديات ان الحرب بين « أحمس » وبين الهكسوس - فى شمال الدلتا - اتخذت شكل حصار طويل قام به المصريون ، دون ان تحدث معارك حاسمة بين الفريقين . الا أن (اواريس) - عاصمة الهكسوس - مالبثت ان سقطت فى النهاية ، واضطر المعتدون الى الجلاء ، فغادروا مصر عن طريق الصحراء الشرقية

ولكن « أحمس » لم يقنع بطردهم من مصر ، بل تبعهم الى فلسطين - حيث لاذوا ببلد اسمه (شاروهين) - وهناك أنزل بهم أحمس هزيمة منكرة بعد ان حاصرهم ثلاث سنوات !

وكان هذا آخر العهد بالهكسوس ، اذ لم تقم لهم قائمة بعد ذلك !

وكان جلاء الهكسوس عن مصر بداية عهد جديد فى التاريخ المصرى القديم . واعتبر بطل الجلاء والتحرير ، مؤسسا لاسرة

جديدة هى الاسرة الثامنة عشرة ، التى كانت فاتحة عهد الامبراطورية المصرية . اذ ان « أحمس » لم يخلد الى الراحة بعد أن طرد الهكسوس ، بل صمم على استعادة بلاد النوبة وضمها الى مصر كما كانت فى الماضى ، اذ كان حكامها من امراء كوش ونوبيا قد انتهزوا فرصة انشغاله بحرب التحرير ، ومطاردته للهكسوس فى آسيا ، فشقوا عصا الطاعة على مصر ، واعتدوا على المصريين الذين كانوا يقيمون على مقربة من حدود بلادهم !

ومرة أخرى ، قدر لاحمس ان ينتزع النصر لمصر ، اذ نجح فى حملته على بلاد النوبة ، وأعاد لمصر مكانتها الاولى وعظمتها فى تلك الجهات .. وكان له بذلك فضل تحرير الوادى من الغزاة تحريرا نهائيا وتوطيد النظام فى ربوعه

ولما عاد الى (طيبة) ، استقبله أهلها استقبالا حافلا ، فكان أول مافعله ان قدم قرابين الشكر لآمون فى معبده ..

وهكذا خلد « أحمس » اسمه فى التاريخ الى جانب اسمى « كا ـ مو ـ سى » و « سكنن ـ رع » .. بوصفهم الابطال الثلاثة الذين حرروا مصر .. فى العصر القديم !

نساء القاهرة!

قصة مصرية . بقلم : حبيب جاماتي



المرأة المصرية .. فى المعركة !

• .. وهذا درس آخر تقدمه مصر من تاريخها الطويل ، العريق ، الحافل بأروع صور الجهاد ، فى سبيل الحرية والكرامة والعزة القومية .. درس لم يأخذه التاريخ عن رجال مصر ، وانما أخذه عن نسائنا ، فان شرف الجهاد - فى بلادنا - لم يكن دائما وقفا على الرجال ، فقد كانت لنسائنا صفحات فخار مجيدة فى كثير من المعارك التى خاضها شعبنا وجيشنا الباسلان .. ومن أروع أمثلة ذلك القتال النسوى الخالد هذه الصفحة المشرفة التى كتبتها نساء القاهرة بدمائهن الزكية ، فى معركة الفتح العثمانى لمصر - عام ١٥٧٦ - رغم أنها كانت معركة ميئوسا منها ، من فرط ماحشـــد لها السلطان العثمانى الباغى « سليم الاول » من جيوش جرارة وعتاد حربى متفوق وحديث ، لم يكن للمصريين يومئذ عهد به من قبل ! .. فضـــلا عما اقترنت به تلك المعركة من عناصر الخيانة الوضيعة من جانب بعض الدخلاء المندسين على مصر ، والذين خانوا أفضالها عليهم .. كما سترى فى هذه القصة المستمدة من واقع التاريخ .

التقى الجيش العثمانى الزاحف من الشـــمال ، والجيش المصرى القادم من الجنوب ، بالقرب من مدينة حلب ، فى السهل المعروف بمرج دابق . وقاتل المـــاليك بقيادة ســلطان مصر الشيخ الصنديد « قانصوه الغورى » قتال النمور الضـــارية والاسود الهائجة . وارتجت الارض من ضرب حوافر الخيل ضرب المطارق على السندان . وتسابق الابطال للقاء المنية فى حومة الوغى ، تجنبا لعار الهزيمة أمام الجحـــافل العثمانيـــة المتدفقة على السهل كالسيل الجارف . وتكدست اشـــلاء

القتلى والجرحى فى فيض من الدماء . وقذفت مدافع السلطان « سليم خان » الاول الحمم من فوهاتها ، **وكان ذلك أول عهد المماليك بهذا السلاح الفتاك ، فقد كانوا يستخفون به ويأنفون من استخدامه ، لانه يتنافى مع الفروسية الحقة ، ويحول دون لقاء الفرسان وجها لوجه وصدرا لصدر فى غمرة الميدان !**

ودارت الدائرة فى النهاية على جيش المماليك ، فتراجع الاحياء منهم عازمين على جمع شملهم من جديد عند حدود مصر . وقتل الملك الاشرف قانصوه الغورى فى المعركة . وكان ذلك فى سنة ١٥١٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٢١ للهجرة

ودخلت سوريا فى حوزة السلطان العثمانى .. وواصل الفاتح المحظوظ زحفه جنوبا ، ووجهته سيناء وأرض وادى النيـــل .

***

وصلت أنباء الكارثة التى حلت بالجيش فى « مرج دابق » الى القاهرة ، فعم الحزن ولكنه لم يبلغ مبلغ اليأس . وجالد أمراء المماليك أنفسهم ، والتفوا حول « طومان باى » ، ابن أخى السلطان الغورى ، الذى كان قد استخلفه قبل رحيله وعينه نائبا على المملكة ، فبايعوه باسم « الملك الاشرف » أيضا وألقوا اليه مقاليد الامور ، وأقسموا له يمين الطاعة ، وألحوا عليه بأن يقودهم الى قتال الغزاة

وتريث « طومان باى » فى بادىء الامر ، وجعل يستطلع أخبار عدوه ويرقب حركاته وسكناته . ولم يطل انتظاره ،

فقد وفد على القاهرة ذات يوم رسل السلطان يعرضون على الملك الاشرف معاهدة صلح ، يعترف فيها بسيادة سليم الاول، والدعوة له على المنابر ، وبضرب عملة باسمه **فكان رد طومان باى « قولوا لمولاكم ان السيف خير حكم بينى وبينه ! »**

وقرر فى الحال ان يزحف لملاقاة الجيش العثمانى ، بدل ان ينتظر قدومه فى عاصمة ملكه .

وكانت جلسة مشهودة تلك التى دعا اليها « طومان باى » قواد جيشه ، والامراء والفرسان ، وأعيان البلاد وحكام الاقاليم ، ليأخذ موافقتهم على ما قدم عليه من رفض شروط الصلح المعيب .. فقد لبى الجميع الدعوة . وأوفدت المدن المصرية وأحياء العاصمة ، وطوائف الشعب المختلفة ، مندوبين عنها لاعلان تأييدها للملك الاشرف ، واستعدادها للبذل والتضحية فى سبيل حرية البلاد وصيانة كيانها . فقد كان المماليك طغاة فى حكمهم ، وكثيرا ما كان الشعب يئن من ظلمهم، ولكنهم كانوا يذودون عن استقلال مصر ، ويتحلون بالشجاعة والبطولة ، ويعنون بأعمال التعمير والانشاء ، ويشيدون المساجد والمعاهد ، فكان الشعب يكرههم ويحبهم فى آن معا . لهذا مشى معهم لصد الغزاة العثمانيين فى عهد الغورى وطومان باى ، كما مشى معهم من قبل لصد الغزاة الصليبيين والمغول والتتر ...

طاف المنادون فى كل مكان يدعون الناس الى حمل السلاح، لافرق بين سيد وخادم ، وبين حر ورقيق . فان طومان باى أصدر قرارا بأن يعتق العبيد جميعا ليصبحوا أحرارا فى بلدهم على شرط ان يقاتلوا فى سبيل حريته . وفتحت مستودعات

الاسلحة فوزعت على الناس جميع الادوات الصالحة للضرب والقتل ...

وتمت للملك الاشرف تعبئة الجيش والشعب معا . وعزم على مغادرة القاهرة مع قوة من أربعين ألف مقاتل ، على أن تلحق به النجدات فيما بعد ، وان يتولى الفتيان أبناء المماليك تحصين القاهرة وتموينها ، استعدادا لايام سود ، اذا قدر الله ان يفلت النصر من اليد ، وتواجه المدينة هجوما أو حصارا ..

* * *

وفى فجر اليوم المحدد للزحف ، صحا « طومان باى » على اصوات جلبة وضوضاء فى القصر : انها اصوات نساء ، وجلبة وضوضاء تتخللهما الاهازيج والزغاريد !

انه رهط ، بل فوج ، بل جيش من النساء ، يقتحمن القصر صارخات هاتفات ، تتقدمهن امرأة فارعة القامة مفتولة العضلات جهورية الصوت ، تتأبط ذراع فتاة شديدة الشبه بها ، تشهر بيمينها سيفا مسلولا ، وتحمل بيدها جرابا من الجلد الاحمر المموه بالرسوم ..



وكان حراس القصر يسيرون مع النساء مختلطين بهن ،

وقد علا وجوههم البشر ، وراحوا مثلهن يهتفون ويهزجون

وما وقع نظر طومان باى على ذلك المشهد ، حتى انطلق من بين شفتيه اسم ، تلاه اسم آخر : « شريفة ؟ .. سليمة ؟ »

***

من هى « شريفة » ومن هى « سليمة » ؟

الاولى هى المرأة الفارعة القامة ، المفتولة العضلات ، الجهورية الصوت .. والثانية هى الفتاة شاهرة السيف وحاملة الجراب ...

كانت « شريفة » تعيش مع زوجها « الشيخ حسن الصافى » من عربان البحيرة ، ومن تجار الاغنام ومروضى الخيول . ولم يكن للزوجين غير ابنة وحيدة ، أوشك مجيئها الى العالم أن يودى بحياة أمها فسميت « سليمة » . وكان الشيخ البدوى يملك ثروة طائلة ، فغرر به واحد من امراء المماليك يدعى « خير بك » وشاركه فى صفقة تجارية سرق فيها أموال شريكه ، ولما حاول الشيخ المغبون ان يطالب بحقه ، ويسترجع ماله ، أرسل اليه خير بك عصابة من زبانيته فقتلوه واستولوا على البقية الباقية من خيوله ومواشيه ..

وكان « خير بك » فى عهد « قانصوه الغورى » قد عين حاكما لمدينة حلب ، وقلب لولى نعمته ظهر المجن فخانه وانضم الى عدوه السلطان العثمانى ، مع خائن آخر يدعى « الغزالى بك » .. ولولا خيانة الرجلين لاستطاع « الغورى » ان يحرز النصر فى « مرج دابق » ، او ــ على الاقل ــ ان يوقف زحف

العثمانيين على مصر ...

وفى الوقت الذى كان فيه قانصوه الغورى مهموم البال منهمكا فى اعداد العدة لمواجهة الخطر الداهم ، لجأت اليه « شريفة » أرملة حسن الصافى ، وابنتها سليمة ، بعد ما حل بهما الخراب وامتدت ايدى القتلة الى الشيخ البدوى وانتزعت حياته . ولم يكن فى وسع قانصوه الغورى ان يثأر للمرأة وابنتها ، أو ان يسترجع لهما مافقدتاه ، فالسارق بعيد عن مصر ، وخارج على طاعة سيده ، والقتلة الجناة قد اختفوا وفروا هاربين الى من حرضهم على القتل .. فاستضاف السلطان الغورى زوجة الشيخ القتيل وابنته ، وانزلهما فى قصره ، واوصى ابن اخيه خيرا بهما ، فعهد اليهما « طومان باى » بادارة شئون القصر ، والاشراف على جناح الحريم فيه . وكانتا جديرتين بالثقة ، حافظتين للمعروف ، متفانيتين فى خدمة الرجلين اللذين احسنا اليهما : الملك الاشرف قانصوه الغورى ، وابن اخيه الملك الاشرف طومان باى .

* * *

ولما ادلهم الخطب وأحاطت بمصر المخاطر ، نادت « شريفة » نساء القصر ، وأهابت بهن قائلة : **« على النساء أن يرتفعن فى هذه المحنة الى مصاف الرجال ! واذا كان الآباء والازواج والابناء قد انتضوا السلاح ومشوا الى الميادين ، فعلينا نحن أيضا – نحن الامهات والزوجات والاخوات – ان نلحق بهم ، أو نشد أزرهم ، او نحمي ظهورهم !»**

ولقى هـذا النداء آذانا صاغية فتشاورت النســاء فيما بينهن ، وأوفدن رسولات الى أحياء العاصمة ومدن الاقاليم ، وما جاء ذلك الجمع منهن الى قصر الملك الاشرف ، وما دوت تلك الاصوات بالهتاف والتهليل ، وما انطلقت الاهازيج من فم شريفــة ، وما رفعت سليمة بيمينها سـيفا وحملت بيسارها جرابا من الجلد الاحمر ، الا لابلاغ طومان باى ماقر عليه رأى النســاء فى مملكته : مشــاركة الرجال فى الدفاع عن الوطن ، والسير الى القتال معهم جنبا الى جنب !

وكان الجراب الاحمر فى يد سليمة مطويا على مفاجأة من نوع غير مألوف . فقد فتحته الفتاة ، وتناولت من داخــله حبلا أسود اللون ، وقدمته الى السلطان الاشرف قائلة :

ـ أيها البطل الذاهب الى القتــال على رأس جيش من الابطال .. ان شريفة زوجة حسن الصافى ، وابنتها سليمة ، تهديانك باسم نساء القصر ، وباسم نساء مصر ، هــذا العنان لفرسك ، مصحوبا بدعائنا لك بالنصر !

أخذ طومان باى الرسن من يد الفتاة وقد ارتسمت عــلى وجهه امارات الغبطة الممزوجة بالدهشة :

فقد اغتبط لما أظهرته النساء من حمية ونخوة وشهامة ، ولكنه دهش لانه لم يدرك معنى الهدية الغريبة : عنان فرس مصنوع من خيوط دقيقة سوداء !



غير أن الدهشة لم تطل : فقد كشفت الام عن رأسها ، وكشفت الفتاة عن رأسها أيضاً ، واذا بالرأسين لا شعر فيهما !

ان ((شريفة)) زوجة ((حسن الصافى)) قد جزت شعرها وجزت سليمة أيضا شعرها ، ومن تلك الشعور السوداء جدلت المرأتان عنانا لفرس الملك الاشرف !

* * *

أبت الاقدار الا ان يكون طومان باى سىء الحظ كعمه قانصوه الغورى ، فبالرغم من استبسال المماليك فى القتال ، وبالرغم من النجدات التى زحفت اليهم من القاهرة ، لم يستطع اولئك الشجعان الميامين ان يوقفوا تدفق الجحافل الجرارة التى جاء بها سليم الاول لفتح مصر ، وجاء معها بعشرات من المدافع الضخمة ، والاسلحة النارية العديدة . فكثرة العدد ووفرة السلاح ، تضاف اليهما الخيانة التى دبت عقاربها فى صفوف الامراء النفعيين المتزلفين ، كل ذلك قد تحالف على جيش المماليك ونجدات الاهالى ، فدارت الدائرة ايضا على طومان باى ، وسقط فى المعركة ــ على مسافة من الخانقاه ــ خمسة وعشرون الفا من الفرسان المغاوير ، وفتحت طريق القاهرة امام الغزاة الزاحفين ..

وكان فتيان المماليك ، والشيوخ والصبيان ونساء العاصمة وفتيانها ، قد انصرفوا الى اقامة المتاريس ، وحفر الخنادق وغرس الاوتاد فى الطرقات ، وسد الحوارى والازقة ، وجمع الحجارة على سطوح المنازل ، وتكديس الاخشاب فى الميادين لاضرام النار فيها ، ولما وصلت فلول الجيش المنهزم ، وانضمت الى السكان للدفاع عن المدينة ، كانت القاهرة قد تحولت الى حصن منيع لايسهل لجيش مهما كان قويا الاستيلاء عليه بدون اراقة دماء غزيرة .

وكانت معركة رائعة . وكان قتالا مريرا استمر ثلاثة أيام بلياليها . فقد اضطر السلطان العثمانى ان يقف جيشه عند مشارف المدينة ، وان يتقدم به خطوة خطوة ، ويهاجم العاصمة المصرية شارعا فشارعا ، وحارة فحارة ، وبيتا فبيتا ، وبابا فبابا . **ولم تكن النساء أقل شجاعة من الرجال فى الدفاع عن حماهن . فان طوافهن فى المدينة وتحريضهن الناس على القتال ضاعف الحماسة فى النفوس ، والزيت المغلى الذى كن يلقينه على الاعداء من نوافذ البيوت ، والحجارة التى كن يقذفنهم بها من فوق السطوح ، والادوات المنزلية التى كن يستعملنها سلاحا فى أيديهن الناعمة ، والاهازيج الحربية التى كن ينشدنها بأصواتهن العذبة ، كل ذلك انزل بالمهاجمين خسائر فادحة ، فبيعت الحرية بثمن غال ، مما جعل السلطان العثمانى بعد فتح مصر يقول : « مارأيت بعد شعبا أشجع من هذا الشعب ، وما لقيت فى فتوحاتى مقاومة مثل هذه المقاومة ، وما ظننت يوما ان جيشى سيحارب ثلاثة ايام جيشا معظمه من النساء والاطفال !»**

خمسون الفا من سكان القاهرة سقطوا فى ساحة الشرف فى تلك المعركة الهائلة ، نصفهم من النساء المحاربات . فقد أبت كل زوجة ، وكل أخت ، وكل ابنة ، ان يقدم ابوها او اخوها أو زوجها نفسه قربانا على هيكل الحرية ، وتظل هى قابعة فى عقر دارها وقد خلت الدار من ربها !

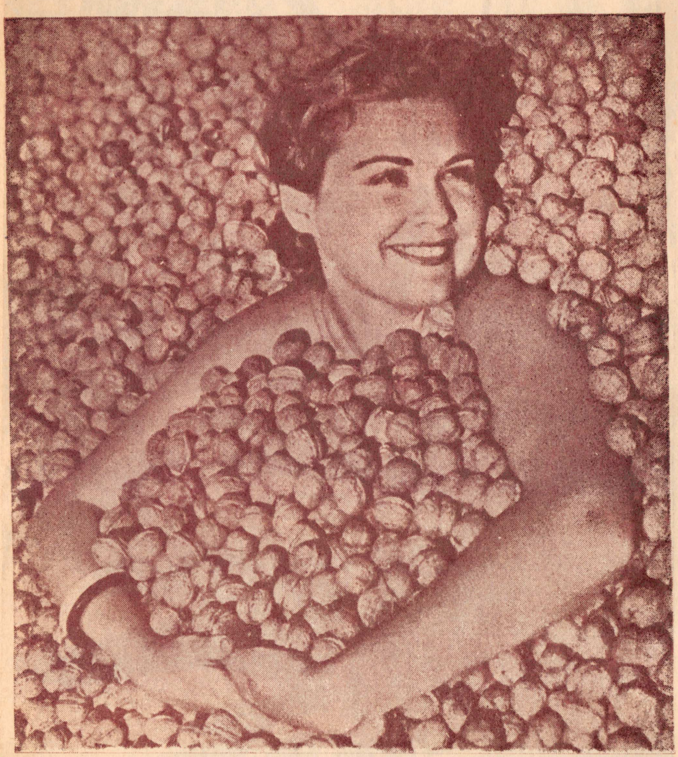
لم كان جلد التمساح سميكا ؟ !

• قال الانسان للتمساح : « لم كان جلدك بهذه الغلظة أيها التمساح ؟ »

قال التمساح للانسان : « لقد جعله الله غليظا لكيلا أبخع نفسى أو أموت أسى مما أسمع من ملاحظات الناس القاسية : فأنا ان نهضت لاستنشاق الهواء عزيت الى بواعث سافلة ، وان انسبت الى الماء قيل انى أستعد للاعتداء ! .. وحتى دموعى تشوه سمعتها بغير رحمة ! ان سماكة جلودنا هى التى استبقت جنسنا ، ولولاها لفنينا منذ عهد سحيق ! »

قال الانسان : « فانى أنا أيضا تشوه سمعتى ومع هذا لم يمنحنى الله جلدا غليظا .. فلم كان ذلك ؟ ! »

ــ لأنك قد حبيت نعمة النطق ، ولأنك تستطيع بها ان تقذف سمعة الناس ، ولأنك تقذفهم فعلا ! وكذلك رقق الله من جلدك لتحس مافى القذف من ألم ، فلا تسىء استعمال نعمة النطق ولا تقذف الآخرين بالعنف

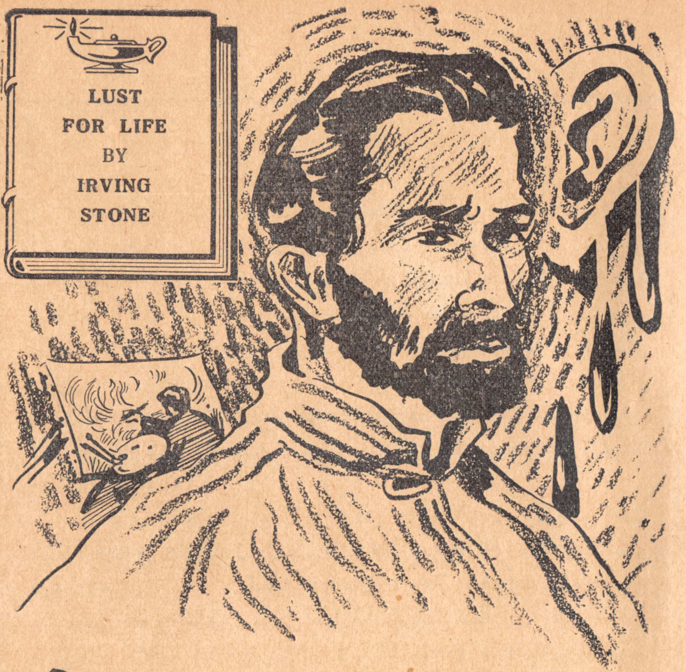


جوز ٠٠ ولوز ! تقليعة أمريكية :

حسناء دفنت نفسها فى تل من ثمار الجوز !



أحلام الحوذى البدين فى الصباح .. بعد جولات الليل المضنية ، فى شوارع (فيينا)



ڤانسانت ڤان جوخ

الفنان الذى قطع أذنه وأهداها العشيقة!

للكاتب الأمريكى الكبير : "ارفنج ستون"

تلخيص : صلاح الدين الشريف

عبقرى .. أم مجنون ؟ !

• ترى هل كان « فانسانت فان جوخ » عبقريا مجددا كما أجمع الفنانون والنقاد بعد وفاته .. أو كان مخبولا ، مجنونا ، كما أجمع من عرفوه فى حياته ؟ .. هذا ما نترك لك أمر البت فيه بعد أن تقرأ هذه التحفة الرائعة التى امتزج فيها الواقع بالتقدير الفنى والاسلوب الروائى فى آن واحد .. وهو مالم يكن يقدر عليه كاتب غير « ارفنج ستون » .. فهو فنان مصور ، وأديب قصاص ، الى جانب أن المشاركة الوجدانية بينه وبين حياة « فان جوخ » حملته على أن يقضى أكثر من عام فى زيارة مسارح حياة ذلك الفنان فى هولندا وبلجيكا وفرنسا وانجلترا ..

أما الذى أجمع عليه معاصرو « فان جوخ » ونقاد ومؤرخو أيامنا هذه ، فهو أن التاريخ لم يشهد فنانا كان مسوقا بلا رحمة تحت دفع قوى الالهام والابتكار التجديدى الخلاق ، وهو فى الوقت ذاته محروم ـ بفضل هذه القوى ! ـ من موارد السعادة البشرية ، مثل « فان جوخ » .. كانت حياته صراعا بين النشاط الخلاق ، والعذاب الساحق .. وكانت القوتان تعتصرانه طوال عمره !

نداء الحياة .. والأمل !

• فى هدأة السكون المرفرف بأحلامه ، والصباح ينسج أولى خيوطه الذهبية ، رن صوتها الموسيقى فى مزيج من الحنان والضجر ، وهى تقترب من فراشه المشعث ، فى حذر عصفور رقيق يغادر عشه فى رحلة استطلاع قصيرة :

ـ مسيو جوخ .. هناك رسالة لك . عجبا ! أما زلت تغط فى نومك ؟ .. انك يا فتاى انسان مدلل !

واتجهت فى حركة رشيقة الى النافذة ، وراحت تنحى عنها الستائر البيضاء ، وتفتح مصراعيها الى أقصاهما لاستقبال مواكب الضياء والانسام والغناء . ووقفت تتأمل جمال الطبيعة ، وهى تحس أن روحها قد انطلقت من جسمها لتعانق الكون !

أما هو ، فكان – رغم جسده الساكن – يقظان الروح . وانه ليمثل كل يوم ، وفى هذه اللحظة بالذات ، « قصة النوم » ، ليعيش لحظات فى حلم صوتها الذى يرعش كل روحه ! .. **انه يعشق كل صباح نداءها المعبود .. نداءها الذى يدعوه الى اليقظة ، والحياة ، والامل .. الامل الذى يعتبره صنوا لذلك الحب الدفين فى أعمق أعماقه ، والذى ينشره – بكل أحلامه ورؤاه – طول الليل .. ويطويه !** .. ولم يكن هناك مفر من أن يختم مسرحية التظاهر بالنوم « العميق اللذيذ » ، فبدأ يتحرك فى بطء ، ويداعب أجفانه بأطراف أصابعه الخشنة

ورن صوتها للمرة الثانية : « استيقظ بالله .. لقد نمت عشر ساعات ، وكدت تنافس أهل الكهف فى نومهم الطويل ! .. أتعلم أنه لم يبق على موعد ذهابك الا دقائق . ثم ان مائدة الافطار معدة منذ ساعة ! »

وقام هو نصف قومة فوق فراشه ، ثم غمغم :

– مس « اورسولا » .. أواه .. كفى بالله . اننى أحلم !

– ماذا ؟ أتحلم ؟ أما كفاك طول الليل تحلم فيه ؟ !

ثم أردف كمن تذكر شيئا : « ماذا تقولين ؟ الافطار معد ؟! يا الهى .. لكم أنا جائع . ان جو لندن يهيج حتى معدتى ! .. سأغتسل وأرتدى ثيابى ، ولسوف أسبقك الى المائدة يافتاتى .. أتراهنين ؟ » .. فرمقته اورسولا بنظرة سابية هزت كيانه كله ، ثم أولته ظهرها الجميل ، وأسرعت تهبط الى الطابق الارضى ، بينما تنهد هو تنهدة عميقة ، ثم انصرف الى ارتداء ثيابه . يا لله .. لكم ود أن يروق فى عينى أورسولا ! انه يريد

أن يبدو أمامها ـ رغم تحيف الطبيعة لحظه من الجمال!ـ ذلك الفتى الرشيق النظيف . ولكن ، ما حيلته ، وهذا الاجر الهزيل الذى يتقاضاه من عمله ، لا يكاد يفى بنفقات اقامته فى بيت مسز « لوير » ، والدة أورسولا ؟ .. وتنهد مرة أخرى ، ثم أكمل ارتداء ملابسه ، وهرول الى الطابق الارضى وهو منتش بغمرة فرح خفى جعله يصفر لحنا من ألحان الفالس ، ويدور حول نفسه وهو ينقل خطاه على الدرج فى حلقات راقصة !

واستمتع مع الافطار بحديث أورسولا الشهى : « فانسانت .. أما زلت تذكر وعدك ؟ لعمرى لقد مضى عليه زمن « سحيق » .. أربعة أسابيع .. تصور ! » .. فتأملها الشاب بعينين تائهتين ثم سألها : « ترى عن أى شىء تتحدثين يا آنسة ؟ »

ـ يالك من فتى سريع النسيان ! .. ماذا تم فى لوحة فتاتك أورسولا ؟ أما قلت انه لا ينقصها سوى اللمسات الاخيرة ؟!

ـ آه .. معذرة ! تعنين لوحة «الملاك ذوالشرائط الزرقاء» .. كما سميتها أنت . سأحضرها لك قبل أن تلثم شمس اليوم ، بقبلتها القانية ، وجنة الأفق . وسوف ترين فيها آية جمالك الذى ألهمنى وروعنى . ولكن .. ترى بماذا تنعمين على لو أعجبتك اللوحة ،يا أورسولا ؟ »

ـ وما الذى تطلبه أنت ؟ لعله شىء أستطيعه يا « فان » ؟!

فتلعثم برهة ، ثم قال والخجل يطويه : « قبلة ! »

ـ ستكون لك .. قبلة واحدة لا أكثر !

وضحك الاثنان كطفلين خلا بالهما من كل هم

الصدمة الأولى لعواطف الفنان !

• **وغادر** « فانسانت فان جوخ » منزل مسز لوير فى طريقه الى عمله فى « محل جوبيل وشركائه لبيع اللوحات

الزيتية » . وتراءت له الكائنات فى صورة رائعة ساحرة . أتراه الحب الذى يطويه لأورسولا فى حنايا قلبه هو الذى خلع على الكائنات هذه الصورة ؟ ! . . اواه ، ما قيمة المال بجانب حبها؟!
. . انه يشكو اليوم من ضآلة دخله . ولكنه سوف يزيد من جهوده ليضاعف من الاجر الذى يتقاضاه من المؤسسة الضخمة التى انشأها عمه الثرى فى لاهاى وباريس ولندن ، للاتجار فى اللوحات الفنية من كل مدرسة ومذهب . وهو لاينسى – فى نفس الوقت الذى يبعث فيه ذوق الشعب الانجليزى بالغثيان الى نفسه ! – ان أخاه « ثيو » يضطلع بعبء العمل فى فرع الشركة بباريس ، وقد حصل على رضاء عمه « السامى » ، بفضل الارباح التى جناها للشركة ، فظفر بزيادة لا بأس بها فى أجره . وعلى هذا فانه سوف يتمثل بأخيه ، حتى اذا ارتفع دخله ، استطاع أن يتقدم شجاعا الى أورسولا التى ستشاركه مستقبله . . كحبيبة وزوجة ! . . ولكن ، ترى هل تحبه اورسولا ؟ . . هل تحمل له فى قلبها البكر بعض الذى يحمل لها فى قلبه ؟

وبلغ فانسانت محل عمله ، واعتكف على الفور فى الحجرة الداخلية ، ليتم اللمسات الاخيرة فى اللوحة الكبيرة التى رسمها لمعبودته ، تاركا أمر البيع والمساومة الى زميل له فى المتجر

وعاد كالعصفور الطروب مع موكب المساء ، حاملا كنزه اليها ، ونشوة الحب تهز كل نابضة فى عروقه . والتقى بها فى حديقة الدار ، وكانت جالسة كعادتها تحت احدى شجرات التفاح . وما أن رأته حتى تهلل وجهها ، ونهضت تتلقى الصورة عنه وتفض عنها أغلفتها فى لهفة . وما أن رأتها ، حتى شهقت هاتفة :

– أواه يا « فان » ! . . يا لك من ساحر أيها الفتى !

– مهلا يا عزيزتى اورسولا . . لا تسرفى ، فان الأصل أجمل عندى بكثير !

وحملقت الفتاة فى الشاب ، دون أن تعى مغزى ما يقول ، بينما استطرد هو قائلا : « أورسولا .. أريد .. أريد أن أقول لك شيئا . هل تسمحين؟ » .. ولما لم تجب ،دنا منها خطوتين وقال فى رقة : « اننى أود أن تكونى لى زوجة يا أورسولا .. لعمرى كم أعبدك وآمل ... » ، فقاطعته وهى تحدجه بنظرة قاسية : « **لكم أنا آسفة يا سيد فان جوخ .. اننى مخطوبة منذ عام ، وسوف يتم زواجى فى نهاية يونيو القادم ! »**

وصرخ الفتى وقد انتفضت روحه بين جنبيه : « ماذا تقولين يا أورسولا ؟ .. مستحيل .. مستحيل ! اننى أهواك بكل جوارحى ، ولن أعرف للحياة معنى اذا عشت محروما منك . انك لم تذكرى لى شيئا عن خطيبك قبل الآن .. تكلمى يا اورسولا ! »

فأجابته بنفس اللهجة القاسية : « **لست مطالبة بأن أحدث الناس عن أمورى الخاصة يا سيدى ! »** .. فجن جنونه ، واندفع يطوق بذراعيه هذا الكنز الغالى قبل ان يفلت منه . واستطاع ان يغتصب منها قبلة نارية قبل ان تتخلص منه ، وتهتف به فى اشمئزاز :

ـ تبا لك أيها الخنزير الزرى الهيئة ! لو انك نظرت الى صورتك فى المرآة لهالتك بشاعتك المنفرة ! .. اننى الآن أحتقرك من كل قلبى ، بعد ان كنت أعطف عليك .. كأخت !

وسارت خطوات صوب البيت ، والانفعال يأخذ عليها أنفاسها ، ثم التفتت اليه واردفت فى عنف : « **سوف ننتظر رحيلك مع الصباح أيها السيد ، والا ألقينا بحقيبتك من النافذة ! لقد أصبحت اقامتك بيننا غير مرغوب فيها .. ثم اننى سأحتاج الى غرفتك لتكون مخدعى .. بعد الزواج ! هل سمعت ؟ ! »**

ورانت على شعوره وادراكه لحظات رهيبة ، قبل أن يعود الي نفسه . يالله .. لكم كان مخدوعا فى شعور الأم وابنتها

نحوه ! .. ومع ذلك فانه لم ينس ضخامة رأسه الشاذ ، ولا شفته السفلى التى تنحرف على نحو مضحك الى الجانب الايسر من وجهه الساهم الشاحب ، الذى يحكى صورة كائن فر من عالم الاشباح الى دنيا الناس ، ليثير سخريتهم ، أو شفقتهم .. أو كليهما معا ! .. وانحدرت من عينه دمعة ، حين عرف أن كل ما يسرى فى قلبه وروحه من اشعاعات الفن الملهم الخالق ، لاتساوى شيئا فى عين واحدة من بنات حواء ، بل لاتكفى لتمحو من عينها صورة قبحه ودمامته !

وانسل هاربا مع أول خيوط الفجر ، يحمل حقيبة عتيقة ، وقلبا جريحا !

يجد عزاءه .. فى مناظر الشقاء البشرى !

• **وعاد** « فانسانت » الى القرية التى ولد فيها بهولندا .. عاد الى أبيه ـ الذى كان من رجال الدين ـ وأمه وشقيقاته الثلاث . وهناك ، حاول أن يروى قصة نفسه الحزينة ، برسم مناظر القرويين البسطاء الذين يكدحون من أجل لقمة الخبز ، ومن أجل الامل .. الا أن ريشته خانته ، كما خانته من قبل « حبيبته » ! .. وقفل راجعا الى لندن ، حيث استأجر غرفة بسيطة فى نزل بحى (كانزجتون) الذى لا يبعد كثيرا عن حى (كلاهام) ، حيث كان يقيم من قبل مع .. «حبيبته» !



« الحاصد الشاب » .. احدى اللوحات التى كان الفنان يجد عزاء فى رسمها

.. وفى تلك الايام ، كان يعود فى كل ليلة الى غرفته ، بعد أن يضنى قدميه بالتسكع والتجول فى الشوارع والأزقة على غير هدى . ويأوى الى فراشه ، فيروح يستجدى النوم ، الا ان النوم كان دائب الهرب منه . **وعندما تشتد به الهواجس والأحزان ، كان يفر من فراشه الى ظلام الطرقات وضجيجها ، ويأخذ فى البحث عن مناظر الشقاء البشرى فى المدينة الكبيرة ، لعله يجد بعض العزاء فيها !**

وألحت عليه عذاباته ، ففكر فى ان يعود الى « الجنة » التى طرد منها،رغم انه غدا شيطانا رجيما فى نظر حوريتها القاسية. ولم لا ؟ .. ألا يحتمل أن تكون قصة خطبتها دعابة منها ؟ !

وفى الليلة السابقة على ليلة عيد الميلاد ــ وكان الشتاء قد غزا لندن ــ اتخذ الفنان الحزين طريقه الى جنته .. الى نزل مسز لوير . وعندما اقترب من المنزل ، استرعت نظره الأضواء القوية التى كانت تشع من نوافذه ، ومن حديقته ، والعربات الفارهة التى كانت تسد الطريق . واختار « فان » لنفسه زاوية مظلمة ، ثم أخذ يرقب ما يجرى أمامه . الا ان القلق ما لبث ان استولى عليه ، فود لو يعرف كل شىء قبل أن يمزق العذاب نفسه ، ويعصف الجنون برأسه . ومن ثم دلف من الباب الخارجى ، واتجه نحو مدخل الدار . وقبل ان يصعد الدرجات القليلة التى تفصله عن الباب ، صكت أذنيه ضحكة موسيقية عذبة ، كان يعرف صاحبتها تماما ، ثم بزغت أورسولا من وراء الباب كالبدر . ولحظ ــ وهو يتوارى خلف سياج السلم ــ ان خصرها الجميل تحيط به يد شاب فاتن الوجه ، مديد القامة ، اشرأبت الفتاة اليه بوجهها المتلألىء بسعادة لا توصف ، وكأنها معلقة اليه بخيوط مسحورة . ياالله .. انها فى ثياب تشبه ثياب الزفاف !

وتحجرت عيناه على هذا المشهد الروائى ، وأحس بالغيرة تنهش صدره فى غير رحمة ، ثم بانقباض مروع يأخذ عليه

كل منافسه . وحدس قلبه الحقيقة .. الحقيقة بكل مرارتها وقسوتها وسخريتها . ان ذلك الشاب هو خطيبها اذن .. أما هذه الليلة فهى ليلة زفافها ! .. وهبط العروسان الدرج أمام عينيه،كطيفين من أطياف الاحلام ، متخاصرين متلاصقين، ثم اتجها الى الحديقة بخطى نشوانة . وما لبثت كلمات الفتى ان تناهت الى أذنيه ، ودوت فى رأسه كالعاصفة :

ــ لقد أضحكتنى كثيرا يا عزيزتى أورسولا بنوادرك عن ذلك الهولندى الابله ، وانى لأخشى أن يكون ظله الثقيل قد بقى مخيما فى الغرفة التى ستكون عشنا قبل الرحيل الى اسكتلندا !

وأعقبت الكلمات ضحكة سعيدة مجلجلة ! .. رحماك يا الهى ! لقد كانا يتضاحكان اذن على حساب ذكرياته الغالية ، ويمتهنان مشاعره وحبه بمثل هذه البساطة القاتلة ! .. وأحس المسكين ان هذه « الجنة » قد أغلقت دونه الى الابد ، فجرى كالمجنون موليا الادبار ، وكأن غولا رهيبا يطارده فى الحاح وقسوة ! .. وأخذ يتخبط فى شوارع لندن ، ثم لم يعد يشعر بنفسه بعد ذلك !

رهان .. على وجه الفنان !

• **وأفاق** من غيبوبته بعد عشرة أيام ، تحالف عليه خلالها البرد والجوع والحمى . وكان جاسبار ــ زميله السابق فى محل جويل بلندن ــ قد التقى به وهو هائم على وجهه ، فصحبه الى منزله وأخذ يعنى به خلال مرضه . وسرعان ما استرد صحته ، فقرر ان يبحث عن عمل جديد .. قرر ان يعمل مدرسا ، كما تعمل هى .. حبيبته أورسولا !

واستطاع ان يجد عملا فى مدرسة باحدى ضواحى لندن ، لقاء المسكن والمأكل ومرتب تافه ، أخذ يقتصد منه ليصلح من ثيابه ومظهره ، كى يروق فى عينى أورسولا ! .. وعاودته طبيعة الفنان الذى يبتسم للحياة رغم كل شىء ، واعتزم ان

يبث فى روح تلاميذه الصغار حب الطبيعة والجمال . ولكن .. يا لخيبة أمله فى هؤلاء الصغار ، الذين تحجرت مشاعرهم ، وخوت أرواحهم ، وأغلقت قلوبهم ، الا من السخرية به ، والاستخفاف بمشاعره !

وقد جاءه يوما صبى مشاكس ، بعد ان تكلف شيئا من الجد ، وقال له على مسمع من زملائه : « سيدى .. لقد وقعت فى ورطة قد تكلفنى شلنا ، فمن أين لى به ؟ »

واكتسى صوته لهجة الضراعة وهو يمضى قائلا : « بالله يا سيدى لا تتخل عنى فى محنتى . ان صمويل وهنرى قد تراهنا على شىء ، واشتركت أنا فى الرهان مؤيدا كلام صمويل ! » .. فبدت امارات الاهتمام على وجه فانسانت الطيب ، وهو يحث الصبى على متابعة الكلام ، ويتحسس جيبه الخاوى بيده :

ـ عن اى رهان تتحدث ؟ .. ما عليك من ناحية الشلن ، فقط قص الواقعة كما حدثت ، لعلى أستطيع مساعدتك !

ـ بل انك تستطيع ان تساعدنى يا سيدى .. لو انك تعطفت على بكلمة .. كلمة واحدة تقولها أمام هنرى ، وينتهى الامر

ـ وما هى هذه الكلمة ؟

ـ كنا نتحدث عن وجوه التلاميذ ، وأوجه الشبه بينها وبين بعض الحيوانات ، حين جاء ذكرك يا سيدى ...

ولاذ الخبيث بالصمت ، بينما عاد فانسانت يستحثه فى بساطة :

ـ تكلم ولا تخف !

ـ قال هنرى ان وجهك يا سيدى أشبه بوجه .. الخنفساء !

واهتز « فانسانت » من الالم ، ولكنه تجلد قائلا :

ـ وماذا قال صمويل ؟

ـ أنكر ذلك ، وأقسم أن وجه سيدى أشبه بوجـه .. الفــأرة !

ـ وماذا تريد الآن منى أيها الشقى ؟

ـ أن تعلن أمام كل من حضر الرهان ، وهم خمسة عشر تلميذا ، ان وجهك ـ ومعذرة يا سيدى ! ـ أشبه بوجه الفأرة!

قالها اللعين وهو يبتعد مسرعا ، ويرسل من بين شفتيه صفير السخرية والتهكم ، بينما ضج التلاميذ بالضحك !

غروب عن انجلترا .. الى الأبد !

• **ويأوى** الفنان الى جحره الخانق بعد هذه المنغصات ، وينطرح على فراشه القذر وهو غائب عن الوجود . ولـكن خياله ما يلبث أن يتقد ، بتأثير الجذوة التى تنفخ دائمـا فى رماده .. جذوة معبودته أورسولا ! .. ويروح ذلك الخيال يحبك له القصص ، ويلفق المشاهد والمغامرات التى يكون هو ـ بطبيعة الحال ـ بطلها الاوحد . ويعاوده الامل ، وتنبثق فى ظلمات نفسه بشائر الثقة كما تنبثق بشائر أشعة الفجر من وراء حاشية الظلام !

ومع الليالى التى تعاقبت عليه فى تثاقل وبطء ، انتهى بـه مطاف التفكير الى القناعة بصداقة أورسولا .. فلئن كانت قد ضنت عليه بالحب ، فأغلب الظن انها لن تضن عليه بالصداقة . واستبد به الفرح حين انتهى الى هذا الخاطر السعيد ، وقـرر ان يسعى من فوره الى رؤيتها ليعرض عليها صداقته ، وخاصة ان عيد الميلاد كان على الابواب ، فكان من الراجح أن تقضيه مع زوجها فى بيت أمها القديم .

واستطاع ـ بالمبلغ اليسير الذى اقتصده ـ ان يحصل على حلة جديدة ، تكسبه الاحترام فى نظر معبودته . ثم استأذن ناظر المدرسة فى اجازة قصيرة ، واستقل القطار فى طريقه الى لندن . وعندما يمم وجهه شطر حى (كلاهام) ، تذكر حكمة

قرأها للفيلسوف رينان : « لكى يكون للانسان دور فعال فى هذا العالم ، لابد أن يفنى فى ذات نفسه ، لتنبثق مرة أخرى حياته كانسان جديد .. فالمرء لم يخلق ليكون سعيدا فحسب، أو مجرد انسان أمين وكفى ، بل خلق ليحقق للانسانية العظائم والروائع ، وليظفر لنفسه بأجل صفات النبل التى تمكنه من ان يسمو فوق تفاهات السطحية والسوقية ، التى يتخبط فيها ـ حتى الموت ـ سواد الناس ! »

ـ أجل ، سوف يموت « فانسانت » القديم ، لينبعث على أطلاله انسان آخر .. انسان جديد سوف يحقق لهذا العالم الروائع والعظائم ، وسوف يسمو دائما فوق تفاهات السطحية والسوقية ! كل ما يطلبه ، هو أن لا تضن عليه أورسولا بالصداقة ، لينهل من معينها العزم والثقة ، ومددا زاخرا من العبقرية !

ووصل الى البيت ، فدلف الى الفناء بخطى ثابتة ، وصعد الدرجات الرخامية القليلة ، ثم قرع الباب . ولم يطل انتظاره ، اذ ما لبث ان فتح ، ليتيح لعينيه ان تبصرا لؤلؤة أحلامه وأمانيه .. أورسولا . وعندما أفاقت من دهشتها ، صاحت فى ازدراء : « اواه .. أهذا أنت .. مرة أخرى أيها الأحمق ؟ !.. حسبتك قد غربت عن وجهى الى الابد ! »

وصعق للهجتها ، ونسى كل ما أعده خلال الليالى الطويلة من أحاديث تعبر عن مشاعره التى اعتزم ان يبثها اياها . وجاهد جهاد المستميت حتى استطاع أن ينطق بهذه الكلمات : « اورسولا .. اننى اليوم انسان آخر ، ولا أطمع الا فى صداقتك ، لأتشجع وأواصل كفاحى فى الحياة ! » .. فعادت تصيح به فى لهجة قاسية :

ـ اغرب عن وجهى أيها الخنزير ، قبل أن يحضر زوجى ويزركش وجهك بسوطه .. أنسيت أننى زوجة شريفة ؟ !

ثم صفقت الباب فى وجهه بعنف واحتقار !

ومرة أخرى ترنح المسكين من هول الصدمة ، وأخذ يتعثر وهو يهبط الدرج الى حيث لفته الظلمات والاحزان من جديد !

وفى اليوم التالى ، اقترض نفقات العودة الى وطنه ، وهجر انجلترا الى الابد !

أمل جديد .. يموت وهو جنين !

• **كانت** هذه التجربة هى المعين الاول لعبقرية فانسانت التصويرية ، ورافدا من الروافد التى غذت بالوهج واللهب حاسته الفنية الكامنة ، وعجلت فيما بعد بتفتيح براعمها التى نفحت مع عطرها أصالة انسانية عميقة الجذور !.. أما المعين الثانى ، فقد تمثل فى تجربة أخرى دبرتها له الاقدار . فلأول مرة ، أحس جوعا هائلا الى نفحات الايمان ، ومن ثم قرر أن يدرس « اللاهوت » ليكون واحدا من رجال الله . واتفق مع أبيه على أن يكون ذلك فى جامعة أمستردام . وبالفعل ، سافر فانسانت الى المدينة التى تهجع فى أحضان البحر ، وبدأ يمهد لالتحاقه بالجامعة ، بدراسة اللغتين اللاتينية والاغريقية ، على يد أستاذ يدعى « مانديس كوستا » ، اختاره له عمه القس شترايكر ، الذى كان من أشهر رجال الدين فى أمستردام !

وفى بيت عمه القس ، التقى بتجربته الثانية ، وقد تمثلت هذه المرة فى ابنة عمه « كاى » . كانت فتـاة رائعة الجمال ، ذات وجنتين نضاحتين بالحيوية ، وشعر يحكى ذهب القمح حين تلوح سنابله شعاعات الشمس فى الحقول .

وخيل اليه أن « كاى » هى المرآة التى يرى فيها أمله الجديد ، ومن ثم جلس اليها يتأمل اشعاعات هذا الامل ويحلم بروائعه المقبلة . ولكن سرعان ما مات الامل الوليد فى أعماق صدره .. فقد اكتشف أنها متزوجة .. وأن لها ولدا !.. أواه .. ألاليت الاقدار تبتعد عن طريقـه ، ليسعى الى تحقيق نصيبه من السعادة . ولكن ، لا . ان السعادة لم تكتب له بعد ، فما زالت

بينه وبين الاقدار معارك مشبوبة الاوار ، والغد المجهول مشحون الافق بالاحتمالات والنذر .. وانه ليحدس هذا من الآن !

وانسل هاربا من التجربة الجديدة .. وألقى بنفسه فى أحضان الطبيعة ، فلسوف يتسع الخلاء العريض لصرخاته وزفراته ليل نهار !.. وكان الخريف قد كسى المنطقة كلها ـ سماءها وأرضها وكائناتها ـ بصورة واجمة تبرز أسى الذبول والاحتضار بعد روعة التفتح والازدهار ابان الربيع والصيف . يالله .. انها صورة من نفسه هو !.. وراح يتسكع على غير هدى ، حتى قادته قدماه الى طاحونة مهجورة ، شاهد فى ظلها جوادا هزيلا ، مضعضع الكيان الى حد يثير الشفقة. وتأمله فى فضول ، فهاله ذلك الاسى العميق الذى يطل من عينى الحيوان ويكشف عن أوجاعه كلها !.. كان الحيوان المسكين يبدو كانسان أضناه الشقاء .. انسان آب من رحلة العمر الكادحة الى حيث هذا المجثم الذليل ، خالى الوفاض من كل شىء !.. ودون أن يشعر ، جلس الفنان القرفصاء بجوار الجواد ، وأخذ يربت رأسه ويمسح رقبته فى حنان .. أليس كل منهما وحيدا ، شقيا ، منبوذا من الاقدار والناس ؟! .. وأخرج فانسانت من جيبه ورقة وقلما ، ثم أخذ يخط رسما عاجلا للمنظر بأكمله ، حتى اذا عاد الى حجرته ، انهمك فى رسم لوحة كبيرة ، سجل على ظهرها هذه الكلمات : « نفس أخرى شقية » !.. ثم أرسلها الى « كاى » ، هدية منه وتذكارا للحظات السعيدة التى قضاها معها !

واعظ .. فى قرية البؤس والموت !

• لمس فانسانت فى نفسه عجزا عن مواصلة دراسة اللاهوت فى جامعة أمستردام ، فانتقل الى مدرسة متواضعة فى (بروكسل) ، كانت تابعة لجماعة الانجيليين ـ (الايفانجليك) ـ ويستطيع الطالب أن يتخرج منها واعظا دينيا بعد ثلاثة

أشهر . ولكنه ـ لسوء حظه ـ كان الطالب الوحيد الذى أخفق فى الامتحان بسبب ما كان يعانيه من داء اللعثمة . ولم يبد اهتماما بالامر ، اذ كان يفهم الدين على أنه « روح » قبل كل شيء .. روح ، ونبض ، وعقيدة .. ثم اخلاص صادق فى تحمل كل المتاعب والمنغصات التى يصادفها رجل الدين أثناء ادائه رسالته !.. على أن أحد زعماء الجماعة المشرفة على المدرسة أخذته به الشفقة ، فعرض عليه وظيفة واعظ فى قرية صغيرة من القرى التى يعيش أهلها على استخراج الفحم من المناجم . وقبل فانسانت الوظيفة ، فارتدى ملابس رجال الدين وسافر الى (بوريناج) ـ اسم القرية ـ على الفور

واستقبله جو كئيب متجهم ، تختنق فيه أتربة الفحم والدخان ـ بأستارها السوداء ـ الاشياء والكائنات ، ويسرح فيه الداء الوبيل الذى يفتك بالصدور !.. وانقبضت نفس الفنان المرهفة لمظاهر الشقاء البشرى ، التى صادفته فى تلك القرية الحزينة .. **ولكنه كان يؤمن بأن رجل الدين يجب أن يكون مبعث عزاء لكل أبناء الشقاء ، لانه يستمد العزاء من نبع لا يغيض .. نبع السماء !..** وتجمع أهل القرية ، بوجوههم المغبرة وعيونهم المحلقة فى تطلع وأسى ، يستمعون الى مواعظ القس الجديد .. كانوا فى حاجة ولهفة الى صوت السماء .. الى همس الايمان يغزو بالرجاء والعزاء أعماقهم الملتهبة كالاتون بالنقمة على كل شيء !

ونجح فانسانت نجاحا فاق حدود تصوره ، فأخذ يفكر فى ادخال السعادة الى هذه القلوب المظلمة ، ومن ثم افتتح فصلا ليليا للصبية والشبان من العمال ، وأخذ يلقنهم فيه القراءة والكتابة ، ويعلمهم تلاوة الانجيل .

وكان الفنان الطيب القلب يظن أن الدفء ـ فى ليالى الشتاء اللاذعة ـ مكفول لهؤلاء التعساء ، بحكم وفرة الفحم الذى يستخرجونه ويدفعون ثمنا له أرواحهم وأجسامهم . **الا أن**

المأساة البشعة تجلت له حين عرف أن كل ذرة من ذلك الحجر الاسود اللامع أثمن عند أصحاب المناجم الجشعين من حياة هؤلاء المناكيد، فلم يكونوا يسمحون للعمال الا بنفايات لاترسل سوى دخان أسود خانق، كثيرا ما قضى على أطفالهم المساكين.

ومع ذلك فان فانسانت لم يفقد الامل، بل تقبل الامر بروح الفنان الساخر، وخطا فى مشروعاته الاصلاحية خطوات واسعة، حتى أصبح معبود أهل القرية جميعا!

على أنه سرعان ما أحس بأعماقه تتأجج بلهيب ينشد تفريجا سريعا. وأمسك الفنان بقلمه، وأخذ يسجل على الورق — بموهبة ساطعة خارقة — تفصيلات هذه المشاهد التى يمتزج فيها الالم والشجن بالعناد والتحدى، وتتجاور فيها المأساة والسخرية وفق نسب مذهلة لم تعرفها كل صور الحياة التى مرت عليه، وتتصل خيوطها المادية الدقيقة، فى لحظات مشرقة نادرة، بخيوط الايمان الثاوى — رغم كل فواجع الحياة — فى أعماق النفوس.. نفوس هذه الكائنات التى شقيت بحياتها كما لم تشق كائنات أخرى فى كثير من بقاع الارض!

وجاءت هذه الصور القلمية تحكى مأساة الشقاء الانسانى خطوة خطوة: فهذا عامل خرج ينفث سموم الغاز من صدره فى نوبة مجنونة من سعال متلاحق يعتصر قطرات الروح من بين جنبيه، ثم يستلقى بوجهه المتفحم على الاديم المثلوج الذى لا يرحم، ويروح يتقلب ويصرخ ويقىء. وهذه امرأة هزيلة ذليلة من نساء العمال تضم الى صدرها الاعجف طفلها الرضيع الذى يبدو وكأنه استحال الى لوح من الثلج على صدر غلب الفقر والبرد فيه دفء الحنان و «طاقة» الامومة. وفى صورة أخرى نرى جماعة من الرجال والنساء وقد نكسوا رؤوسهم يبحثون عن فتات الفحم عله يقيهم شر الزمهرير وقسوته.

وهكذا، استطاعت ريشة رجل الدين أن تعكس — على وجوه تلك الاشباح الآدمية — اصطراع القنوط بالامل، واقتران

الولولات الصامتة واليأس المتغلغل فى الدخائل بتلك النظرات المترنحة من هول شقائها، المطلة على حافة أعين تجمدت فيها دموع العجز والحسرة !



«الريف الهولندى قبيل الغروب» .. احدى اللوحات التى نقلها فان جوخ عن الطبيعة

صراع مع الموت .. ينتهى بالفصل من الكنيسة!

• **على** أن رجل الدين الطيب رضى بحاضره المليء بأشواكه ومتاعبه . ولكن ، هل رضيت الاقدار ؟ هل هادنته وقنعت منه بأن صار الى هذه الحال؟.. لا.. واأسفاه!.. فان فانسانت المسكين ظل على موعد « متجدد » مع مداعباتها القاسية . فبينما كان يلقى موعظته فى أحد الايام — فى كوخ كان قد حوله الى كنيسة — دوى صوت رهيب من ناحية المناجم ، فاندلعت صرخات الرجال والنساء ، وراحوا يتدافعون فى سعار وجنون نحو الباب الوحيد ، الى حيث كانت تنبعث أصوات الاستغاثة والهلع . كان أحد المناجم قد انهار ، وكانت هناك أرواح تكافح الموت تحت الانقاض . **وفى ذلك اليوم المشئوم ، قاد فانسانت حملة النجدة ، ولم يدخر وسعا فى سبيل اسعاف المصابين ، حتى لقد مزق ملاءات سريره ورداءه الكهنوتى بل وثيابه الداخلية ، ليستخدمها فى تنظيف الجروح وتضميدها .** واستمرت المعركة ثلاث ساعات ، وفوهة المنجم لا تنى تقذف حمما مظلمة من غبار الفحم الخانق ، مختلطا بروائح الغاز

الكريهة القاتلة . وعند الغروب ، وقف القس يتلو صلواته على الضحايا الذين أودت بهم الكارثة ، وهو شبه عار ، فاذا يد قوية ثقيلة تحط على كتفه وتقذف فى وجهه بهذه الكلمات :

ـ يا الهى .. ماذا تفعل أيها المجنون ؟ وماهـذا الهزل المسرحى الذى تقوم به .. أنت رجل الدين ؟! ياللمصيبة !

والتفت فانسانت ـ قاطعا الصلاة ـ فاذا به أمام اثنين من المطارنة ، كانا فى رحلة تفتيشية بالمنطقة . وعاد الصوت يصيح فيه : « أيها الابله .. هل تتصور ما ألحقته بنفسك وبالكنيسة من عار أبدى ؟ ! » .. فرد فانسانت فى حيرة ذليلة: « ماذا فى الامر ياسيدى ؟ »

ـ يا الهى .. ماذا فى الامر ؟ ! لقد أفلست كل الحيل معك أيها البهلوان العريق !

وتصاعدت همهمات العمال منذرة بشر مستطير . وقد كانوا خليقين بتمزيق هذين الدخيلين ، فى ذلك الموقف ، لولا الثياب الكهنوتية التى كانا يرتديانها . والواقع أن فانسانت كان أشعث أغبر ، عارى الجسد الا من سرواله ، تختلط على أديم جلده المتصبب عرقا ، بقع الدم المتخثر ممتزجةبالفحم والطين . وارتفع صوت رئيس العمال قائلا : « ياسيد فانسانت .. ناشدتك الله أن تتم واجبك الدينى ! » .. فالتفت اليه أحد المطرانين ساخطا وقال : « نعم ، سوف يتمه أيها السيد .. ولكن بعد أن نقول له شيئا ! » .. ثم استدار الى فانسانت وقذفه بهذا القرار فى نبرة كلها غضب: **«فانسانت فان جوخ ، واعظ كنيسة بوريناج .. انك أيها السيد مفصول من خدمة الكنيسة ، منذ هذه اللحظة .. مفصول .. مفصول .. هل سمعت ؟ ! »**

وأردف المطران الآخر قائلا فى زراية : « والآن تستطيع أيها الفتى أن تقوم بأى شىء يروق لك ! »

وأولياه ظهريهما ، وسارا فى الطريق المفضى الى المحطة على عجل !

ياعجبا ! لقد نسى المغروران قول السيد المسيح ـ الذى اليه ينتسبان وباسمه يعظان : **« لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ، ولا للجسد بما تلبسون ! »** .. ولكن ، هكذا دبر القدر لغريمه فانسانت ، فعليه أن يرضخ ، لان القدر هو الاقوى !

يتخير نماذجه من الارض .. لا من السماء !

• **تبدى** كل شىء لفانسانت ـ بعد تلك التجربة القاسية فى دنيا الحياة والناس ـ باطلا وحصاد هشيم .. كل شىء ، بما فى ذلك حدود القيم وقوانين البشر وتعاليم الدين !.. على أن التجربة هدته الى الهدف الذى كان يبحث عنه .. سوف يقف نفسه على الفن .. سوف يستهدى فطرته ويستلهم طبيعته ، ليكشف للعالم أسرار الجمال الفنى فى الناس والاشياء!

وكان الربيع قدمسح بيده الآسية الساحرة أوجاع الارض والسماء ، خلال أشهر الشتاء الكالحة ، حين عاد فانسانت الى أرض الوطن . وأوى الفنان الى بيت أسرته ، وأخذ يتهيأ ـ بكل ماينبض فى كيانه ومشاعره من أشجان وآلام ، وبكل ما يتقد فى قلبه من نيران مقدسة ـ لاقتناص « الروائع » من واقع الناس والاشياء . كان يعنيه أن يتصيد فى تأمل وصبر ، تلك الخطوط الخفية التى ترسم للملامح والسمات طابعها ، وتحدد للوقفة أو المشية هيئتها ، وللجسم المتحرك أو الساكن وضعه من نبض الحياة ! انه يريد ـ فى لهفة الفنان ـ أن يعتصر من كل شىء ، ومن كل كائن .. روحه العجب ! .. وخرج الى الحقول ، يقف أمام احدى الاشجار ليرسمها فى شتى الاوضاع ، وفى حمى مختلف الاضواء والظلال .. ويرقب فلاحا يشقى فى الحقل ، سحابة اليوم ، الى أن يختار الوضع الفنى الذى يبرز هذا الكائن الآدمى فى ذروة واقعه الصابر الكادح ،

ثم تتحرك يده على الورق ، مخلفة خلقا جديدا !

ويطلع أبوه على الرسوم ، فلا يملك أن يبدى تشككه فى قدرة ابنه قائلا : « أتحسب يابنى انك كنت تبذل للمنظر الواحد كل هذا الورق والجهد ، لو كنت ميسرا لهذه المهنة ؟ ! »

ويجيب الفنان الملهم : « لست أعنى ياوالدى بالسطوح الصماء الساكنة ، بل بما تخفيه وراءها من أسرار ومشاعر واختلاجات .. اننى أريد أن أجعل كل شىء — ولو كان صخرة خرساء — يتحرك بالنبض وبالحياة على الورق ! »

وتشهد أمه هذه الجهود الجبارة ، فلا تملك أن تقول له : « لماذا لاتعنى ياولدى بتصيد نماذج جليلة رفيعة المقام بدل هذا الهراء ؟ ! » .. فيجيب على الفور : **« ذلك لان مجدى لن يقتات الا بالاحاسيس التى تبعثها فى أعمق أعماقى هذه الاشباح الجائعة الضاوية ، التى يمر عليها الكثيرون مر الكرام .. أو مر اللئام ! »** .. وأنى لأمه المسكينة أن تدرك أن هذه الاحاسيس التى يعتصرها اعتصارا من مشاهد الفقر والعجز والصعلكة ، لن تموت بموته هو ، ولا بموت هذه النماذج الهزيلة ، ولكنها ستخلد ماعاشت فى الوجود انسانية تتعذب ، وبعذابها تسمو وتتطهر ، وتطبع الدنيا بطابعها !

وحمل فانسانت رسومه الى (لاهاى) ، حيث عرضها على الرسام الشهير « موف فوس » ، الذى أعجب بها وشجعه على مواصلة صقل مواهبه .. بل انه قبل أن يكون للفنان الناشىء أستاذا ، يرشده ويشرف على انتاجه ، ريثما يستوى على قدميه ، على أن يبدأ فانسانت عمله معه فى أوائل الشتاء المقبل . وعاد الشاب الى قريته — (اتيين) — والدنيا لاتسع فرحته

صراع مع القدر .. مرة أخرى !

• **وفى** (اتيين) ، كان القدر ينتظره . فقد فوجىء فانسانت — عند وصوله الى داره — بأن ابنة عمه كاى ، حلت

ضيفة على أسرته ، وقد جاءت تنشد فى بيت عمها شيئا من العزاء والتسرية ، بعد أن توفى زوجها فجأة . **وخفق قلب المسكين بين جنبيه فى قسوة مضنية ، وأحس بفرح وحشى يغمره ويهز أعماقه . أواه ! هل له أن يأمل الآن ؟ ! لقد أصبحت وحيدة ، وتهيأ الطريق الوعر أخيرا ، ولان .. انه يريدها ! هذا كل مايعنيه الآن . وهى وحدها القادرة على أن تصنع حياته وشبابه ! ستنسيه عجزه وفقره ووحدته ، وستكون درعه الواقية التى تحميه من غوائل الدنيا الغادرة !**

وأخذ يصحبها وطفلها الصغير فى جولاته الريفية ، فيتركها تقرأ تحت ظل شجرة ، بينما ينصرف هو الى الرسم . ولكن براكين مشاعره المكتومة كانت تغلى فى صدره . وفى ذات يوم ، اقترب منها وأخذ يبثها ما فى قلبه من حب ووجد ، فصدته الفتاة ، اذ راح خيالها المشبوب يتذكر أيام سعادتها القصيرة مع زوجها الراحل ، الذى أحبته بكل وجودها ، وأقسمت — على فراش موته — ان تقف على ذكراه ماتبقى لها من أيام ! .. ولم يعبأ فانسانت بتبين حقيقة مشاعرها ، فاندفع نحوها يطوقها بساعديه ، وينفث على شفتيها المرتجفتين حمم وجده بعنف وقوة . على انها استطاعت أن تنفلت منه ، ثم حملت طفلها وأخذت تجرى نحو الدار وهى تصيح : « مجنون .. مجنون ! »

وفى الدار ، علم من أمه — حين انبأها بأنه يريد أن يتزوج من كاى — بأن الفتاة .. أخته فى الرضاع !

على أن تلك الصلة ماكانت لتثنى العاشق عن هدفه ، فمالبث أن تبع الفتاة الى أمستردام ، حيث اقتحم منزل عمه — القس شترايكر — فى ساعة متأخرة من الليل ، وصاح فيه متوعدا : « أين كاى ؟ »

— أيها الابله .. طريد الازقة والطرقات ! ألا تعلم أنها تمقتك وتنطوى على كره رهيب لك ؟ !

ـ هراء .. انها تحبنى . وان لم تحبنى فسأجعلها تحبنى!

وما لبثت المناقشة أن تطورت الى اشتباك بالايدى والشمعدانات واستطاع رب البيت أن يتغلب على الشاب بهراوة ثقيلة ، فما لبث هذا أن خرج مهلهل الكرامة ، مشجوج الرأس ، ذليلا ، يجرر جسمه الذى كانت الدماء تسيل من جراحه ، ويصيح فى الناس وأمام الجدران وأشباح الاشجار ـ كمخبول : « كاى .. أيتها المعبودة .. أين أنت ياكاى ؟ .. قولى انك ستأتين !»

ومرة أخرى ، تلقفته الوحدة ، وطواه الفراغ ، وابتلعته الظلمات !

« نموذج » حزين .. من الطريق !

• **استطاع** فانسانت أن يظفر بغرفة واسعة فى أحد أحياء (لاهاى) المتواضعة ، ليستخدمها كمرسم خاص له . وبعد ان زودها بأثاث فقير ، حبس نفسه فيها أسبوعا كاملا ، وانكب على الرسم قانعا ، راضيا ، ثم خرج ليزور أستاذه « موف » ، ويعرض عليه لوحاته الجديدة . ولم يضن عليه الفنان الكبير بتشجيعه وتوجيهاته ، ونفحه ببعض المال وهو يقول له : «سوف أبدع منك يافانسانت فنانا صادق الحس . على انك لابد أن تبدأ فى الرسم بالزيت ، فهو السائل العجيب الذى يبطل سحره كل سحر فى ميادين التصوير ! » .. ولم يخيب فانسانت ظن « موف » . اذ اتجه ـ بعد خروجه من منزل « موف » ـ الى أقرب محل واشترى أدوات الرسم الزيتى . ولم يبق الا أن يحتال على تدبير المال اللازم لاجر من سيتخذهم نماذج لرسومه ، ولا سيما النساء ، فكتب الى أخيه « ثيو » يلح عليه أن يسعفه ببعض المال لهذا الفرض

وأخذ فانسانت يتردد على موف ثلاث مرات فى الاسبوع ، فكان هذا يبدى ملاحظاته للشاب ، ويصلح له تجاربه . حتى اذا تلقى فانسانت النجدة من أخيه ، فى صورة مائة فرنك ،

أخذ يتجول فى المدينة باحثا عن نموذج حى . وسرعان ماعثر عليه فى احدى الحانات الوضيعة .. وكانت واشجة الاسى العريق الصابر ، التى نطبع ملامح كل منهما ، هى صك التعارف السريع بينهما ! .. وقد تمثل هذا النموذج فى صورة فراشة من فراشات الليل الوهنانات ،المريضات،اللاتى يحرقن فى الليل لحم الجسد على مذبح الشهوة ، ليفزن فى النهار بوجبة وكأس !

وتجاذبا الحديث ، فعرف فانسانت أنها أم لاربعة أطفال ، لاتعرف لهم آباء .. أما هذا الذى كان ينتفخ به بطنها اذ ذاك ، فقد كان أبوه معروفا لها ، وان كان قد فر كالآخرين ! .. **وعصر قلبه اختلاط الاسى الشاحب بضحكاتها الرنانة استهتارا ومجونا ، وسخرية بالحياة والاحياء ، وبالتقاليد والقيم . كان عليها أن تطحن أعصابها على حطام هذه التقاليد والقيم ، وأن تعتصر مابقى من أرماق الانوثة فى جسدها الضارع ، لتطعم الافواه المتفتحة أبدا لالتهام الطعام !**

وحين عرفت أنه رسام ، هتفت : « انك اذن من تلاميذ الشقاء الاصلاء .. أمثالى ! » .. الا انها رحبت بأن تكون « موديلا » له ، عندما عرض عليها الفكرة ، وصحبته الى غرفته على الفور

واستيقظ فانسانت فى الصباح التالى ، فأحس بأن غرفته العارية الكئيبة قد اكتست روحا جديدة ! يالله .. انها المرأة ! ان المرأة حقا ساحر رائع ، يستطيع أن يصنع كل شيء من لاشيء .. ولو كانت من بنات الطريق ! .. ولم تكن كريستين ــ وكان هذا اسمها ــ فى جاذبية أورسولا ، ولا جمال كاى ، وانما كان لها سحرها الفريد فى نظره على كل حال ! .. وقال لها فى عذوبة : « كريستين .. انك لساحرة ! .. لقد استطعت أن تبثى النظام فى فوضى حياتى الشقية لاسعد بها وأنتشى .. يالسعادتى بك ! »

ـ هل لك دخل ثابت ؟

ـ اننى أعيش على مايرسله لى أخى كل شهر . وهـذا يعنى أن أقنع بفرنك ونصف فرنك كل يوم !

ـ أواه .. انك تستطيع بشىء من النظام والتدبير أن تعيش بهذا المبلغ .. أميرا !

ـ اذن لاتتخلى عنى ياصانعة حياتى !

ـ ولكن لم تربط نفسك بتركتى المثقلة : أولادى وأمى ؟ !

ـ سأتكفل بكل شىء .. اننى سأتزوجك ياكريستين !

ـ تتزوجنى ؟ !

واهتزت المسكينة من رأسها الى قدميها ، وهى تحملق فيه كالمخبولة . فقد ألقى بقنبلة فى نفسها ! ياالله .. هـل سترحمها الاقدار الى هذا الحد ؟ !

وتعرت من ثيابها ، ووقفت أمامه فى سائر الاوضاع التى اختارها ، بينما راحت حمى النشاط تذكى فيه ملكاته الدفينة . وطلب الى كريستين أن تشبك ـ فى استسلام ـ يديها على ساقيها ، وأحنى ظهرها قليلا ليتهدل ثدياها فى « ترنيمة الحزن الرمادية » ! وحين أعمل فرشاته ، لفح الملامح بريح العجـز والضياع والالم ، ثم سمى اللوحة : « حزن » !

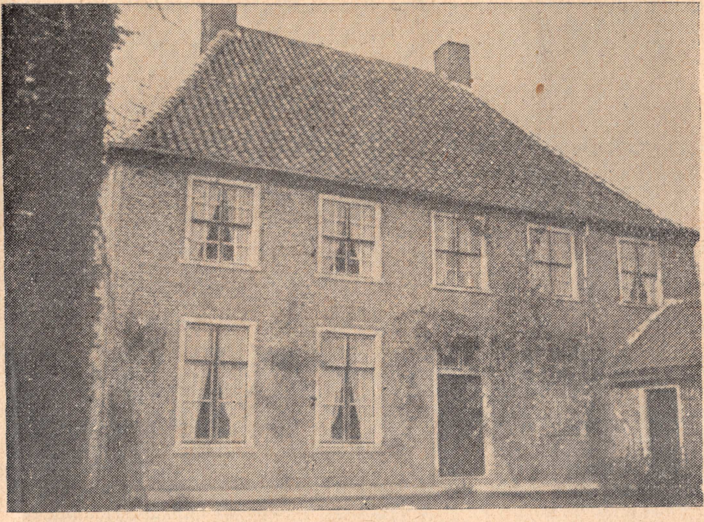
وانتظمت اعانة أخيه له ، فانتقل بفتاته الى مسكن يتألف من طابقين ، خصص الاول للرسم ، والثانى للنوم والاكل . ولكن سرعان ماعرفت العلاقة بينه وبين كريستين ـ التى لم تكن فى نظر الناس أكثر من مومس ! ـ فكتب اليه أبوه مزمجرا ، واعرض عنه « موف » ، ثم تخلى عنه نهائيـا ، واضطربت مواعيد ارسال أخيه للمعونة الشهرية ، فتكاثرت عليه الديون ، وغدا سريع الهياج لاقل بادرة ، كما بدأت كريستين تفقد هى الاخرى صبرها وتجلدها. وحاول أن يقترض ، فتنكر له الجميع . ومن ثم لم يجد الاثنان مندوحة من الفراق ! .. بيد أن هذه المحن كلها ، كانت هى النار التى أنضجت سليقـة

فانسانت الفنية . وقد اتسمت لوحاته فى تلك الفترة باللمسات الانسانية العميقة ، والومضات التى تنفخ الحزن أو السخرية

حب قصير .. ينتهى بمأساة !

• **كان** كل شيء يمسكه بلاهاى قد غدا حافزا دافعا من حوافز اغرائه على الفرار منها : تنكر استاذه موف له ، وسخط كبار الفنانين عليه لاقدامه على كبيرة الكبائر فى رأيهم ، وهى خرقه للقواعد والاصول الكلاسيكية التى استقرت عليها « المدرسة الهولاندية » فى الرسم ، ثم اضطراب معونة أخيه المالية .. وأخيرا ، خيبة أمله فى كريستين التى فضلت على حياة الاضطراب والجوع معه ، حياتها الخليعة الاولى ! .. ومن ثم حزم حقيبته ورحل الى بلدة (نوينين) ، وكان أبوه قد انتقل رئيسا لابرشيتها . وفى تلك البلدة ، عرف « مارجوت بيجمين »

كانت تراقبه فى أول الامر من بعيد ، وهو عاكف على رسم المروج والجداول والطواحين . حتى اذا أحس بها تراقبه ذات يوم من وراء شجرة غير بعيدة ، تظاهر باستغراقه فى الرسم . وشجع هذا المظهر الساكن « العصفور » ، فظل يقترب فى خطى وانية تتسم بالتردد والحذر ، الى أن أصبح على مرمى حجر من فانسانت ، فألقى هذا بأدواته على الارض وانقض على « الصيد » الثمين . وحدقت فى عينيه بوله . وكان فمه قريبا من فمها ، فطبعت بثغرها العنابى الملتهب قبلة على شفتى فانسانت ، أدارت رأسه وشهقت لها روحه ! .. يالله ، هل يمكن أن تحبه امرأة مثل هذا الحب .. هو الذى ظل محروما ــ بسبب دمامته ورثاثة حاله ــ من عطف نسوى صادق ، يمسح عنه هموم روحه ، ويفتح مغاليق نفسه الثاوية وراء ركام كثيف من مراراته وأوجاعه ؟ !



صورة لدار الابرشية ببلدة (نوينين) ، وهى الدار التى كانت تقيم فيها أسرة الفنان . وترى الى اليمين غرفة الغسيل التى كان « فان » يستخدمها كمرسم له خلال اقامته بالدار

وكانت هى قد أفاقت بدورها من حالة « اللاشعور » التى تملكتها لحظات ، فهتفت خجلى : « أواه!..ماذا فعلت ؟ ستحسبنى .. » ، ولكنه أطبق فمها بقبلة من ثغره النابض وهمس فى وجد :

ـ ماحسبتك الا ملاكا .. وها انت ذى لم تخيبى ظنى يا ..

ـ مارجوت !

ـ مارجوت ! .. أوه ، ما أرق وقع هذا الاسم على أذنى عاشق !

وتعاقبت أيامهما العاشقة ، أصابيحها رحلات للرسم ، تتخللها الاحضان والقبل والمطاردات عبر المروج ، وأمسياتها قراءات فى الشعر على ضفاف الغدران الحالمة . وكانت الفتاة فاتنة ، رقيقة ، تدلف الى العقد الرابع من عمرها ، وتنتمى الى أسرة ثرية بالاقليم ، ولها عدة شقيقات يكبرنها سنا ، وقد فاتهن قطار الزواج . وفى ذات يوم ، قالت له على أثر معانقة طويلة :

ـ فانسانت .. اننى أعبد عينيك ياحبيبى .. دعنى أحدق فيهما كل مابقى لى من عمر فوق أرض سعادتنا .. دعنى أصحبك دائما حين ترسم .. ولكن لم تؤثر صور التعاسة ، وتجرى فى سبيلها لاهثا ؟ !

ـ ذلك لاننى لست « كلاسيكيا » تافها كمن عرفتهم فى لاهاى ! .. لقد حددت من الحياة والمجتمع موقفى . اننى أكافح الشقاء بتسجيل الشقاء ، وأناصر الطبقة الكادحة بوقف فنى عليها .. فهى الطبقة التى أشعر اننى واحد من صميمها لانها كادحة مثلى ، تصارع الزمن والقدر من أجل وجودها ، وان آمنت ايمانا مستسلما عاجزا بسطوة الزمن والقدر !

وكان هذا القدر للعاشقين بالمرصاد . فقد تعاهد الاثنان على الزواج ، الا أن شقيقات الفتاة وقفن حجر عثرة فى طريق اتمامه ، اذ اتهمن فانسانت بأنه لايطمع الا فى ثروة مارجوت . على انهن كن يردن فى الواقع أن يفوتها قطار الزواج كمافاتهن ! ولما ألح الشاب على فتاته لتهرب معه ، انكمشت ازاء التقاليد الريفية الصارمة . فلما سألها يوما : « اذن ما السبيل الى أن نلتقى يامعبودتى ؟ » ، هتفت قائلة : « سنلتقى فى عالم آخر لاتنغصه الاهواء والاحقاد .. فصبرا يافان ! »

ـ أواه .. ماذا تعنين ؟

ـ سأنتحر ، فأحل بذلك مشكلتى !

ـ أحسبك غير جادة فيما تقولين

ولكنها كانت جادة . فقد تناولت سما قضى على حياتها . وظلت تهمس لحبيبها وهى تحتضر : « فان .. اننى أعبدك .. اذكرنى يا فان !»

منهب الضياء .. والالوان المشرقة !

• **خاف** فانسانت ـ بعد هذه الكارثة ـ على نفسه من الجنون ، فأغرق فراغه فى خضم من الجهد العصبى الشاذ ، منصرفا بكل نوابضه الى الفن الشعبى . وقد سجل فيماسجل من رسوم فى تلك الايام ، لوحة خلدت الريف الهولندى وكشفت عن معدنه الصافى الكريم .. معدن الخصب والخير والسلام .. وهى لوحة « آكلو البطاطس » . (ويرى القارىء صورة منقولة عن هذه اللوحة الفريدة ، بين اللوحات الفنية المطبوعةعلىالورق المصقول فى هذا العدد) . حتى اذا مات أبوه، دعاه أخوه « ثيو » ـ الذى كان قد أصبح مديرا لفرع جويل وشركائه فى باريس ـ الى الانتقال الى العاصمة الفرنسية ، حيث كان مذهب الانطباعية فى الرسم قد بدأ يظهر فى الوجود. ولما لم يكن ثمة مايمسك فانسانت فى (نوينين) ، فقداستجاب من فوره لدعوة أخيه

وفى باريس ، أخذه أخوه لرؤية اللوحات الانطباعية . كانت لوحات ذات وميض وبريق ، تشع منها معان وأفكار وقصص تترك انطباعاتها فى النفس من أول وهلة . وظل فانسانت يحملق فيها كأبله ، ثم لم يتمالك أن صاح فى أخيه وهو يلهث :

ـ ثيو .. من هؤلاء الذين جاءونا بسحر جديد للحياة ؟ أترانى فى معرض الآلهة ؟ !

ـ صدقت يافان .. ان مونيه وديجاس وبيسارووجوجان ومانيه وتولوز لوتريك ، آلهة .. انهم آلهة الفنون فى هذا العصر !

ـ لم أسمع بهم من قبل . أريد أن أتعرف اليهم فى أقرب فرصة !

ـ بل ستلتقى بهم الليلة فى مقهاهم المفضل !

وبالفعل ، التقى فانسانت بعمالقة المذهب الجديد، وعرفهم واحدا واحدا . وفى تلك الليلة ، تعلم شيئين خطيرين كان لهما أبعد الاثر فى فنه ومزاجه . . ومصيره! . . **تعلم من تولوزلوتريك، القزم القمىء ، ان يدرس المرأة لا فى ضوء النظرة المثالية المتصوفة ، بل فى ضوء واقعها الحى .. واقع الدم واللحم والشهوة ! .. وتعلم من جوجان ، العملاق ، كيف يعب كؤوس الابسنت بشراهة !**

واستهواه المذهب الجديد .. المذهب الذى نادى به الكاتب الفرنسى الاشهر اميل زولا ، وهو المذهب الذى يعول على الضياء ويفضل الالوان المشرقة ، ويقرر أن الفنان الحق يجب أن يخدم الوعى الاشتراكى الجديد ، بأن يكون انطباعيا فى تعبيره ليحكى ويسجل مشاعر الدهماء والصعاليك ، وضحايا



« رولان .. ساعى البريد » .. احدى روائع فان جوخ



.. و « مدام رولان .. المربية » .. تحفة أخرى للفنان الكبير

رأس المال من العمال الفقراء . ومن ثم حاول أن يقلد كبار فنانى المذهب ، فكان يقف النهار بطوله ، والليل حتى هزيعه الاخير ، أمام حامل اللوحات ، يطيل التفكير والتأمل والحملقة، ويجرى بريشته فى ضربات وانسيابات وتعرجات وارتعاشات ، على أديم اللوحات ، التى ما أن يبلغ منتصف الطريق فى واحدة منها ، حتى يهجرها الى أخرى جديدة ، ذات فكرة جديدة ، وكأنه يريد أن يعتصر كل مافى لوحات الانطباعيين ، وما فى آراء زولا من الهامات وثورات ، ليوقد منهـا نارا جـديدة مستعرة !

على أنه سرعان ما استعاد طابعه الخاص ، متأثرا بنصائح أخيه ، وشعوره بأن شخصيته تكاد تتلاشى لفرط التقليـد . واذا كانت الالوان فى رسومه ماتزال سوادا وقتاما ، فسيخفف منها بالضياء ، ولكن حين تقتضى ضرورة التعبير مزيدا من هذا الضياء ، لاحين تدعوه نزوة من نزوات التقليد والمحاكاة الى العب من الضياء حيثما اتفق !

وذات يوم قال فانسانت لثيو : « أريد ان أرسم مزيدا من اللوحات العارية ، فهى وحدها التى ستعمق تجربتى فى مزج الالوان ! » .. وكان معنى هذا زيادة الاعانة الشهرية ، ومع ذلك وافقه أخوه وشجعه على تنفيذ الفكرة .. **وظل فانسانت على نشاطه المحموم ، ينتج ويعطى انتاجه لاخيه كى يجد له مشتريا . ولكن ثيو لم يوفق الى بيع لوحة واحدة من تلك اللوحات التى كان فانسـانت ينفث فيها أعصـابه وقطرات دمه !** .. وكان هذا هو الذى حز فى نفسه .. فهو برغم كل تلك المجهودات الجبارة ، خلال السنين الطويلة ، لم يجـد ثمة من يعير رسومه التفاتا .. اللهم الا الفنانين أمثاله .. الذين كانوا هم الآخرون يحاولون ـ عبثا ـ الترويج لبضاعتهم!

« المجنون المتجول » !

• **وشعر** فانسانت بأن نفسه تنشد التحرر من باريس ومدارس باريس التى أسقمته ، وجو باريس البارد المتجهم الذى ثقل على أنفاسه ، فسرعان ما شد الرحال الى بلدة (آرل) فى جنوب فرنسا . واستقبلته شمس ساطعة لم ير لها مثيلا من قبل ! .. وألقى الفنان حقيبته فى أحد الفنادق ، ثم خرج يتجول بين الحقول التى تحيط بالبلدة ، حتى انتهى الى تل صعده وجلس على قمته . وبهره المشهد الذى كان يترامى تحته ، فأخذ يتطلع حواليه فى ذهول ، حتى اذا نفذت الشعاعات الذهبية الدافقة بالحرارة الى نخاع عظامه ، وطردت من رأسه وجسمه كل برد باريس ووخم حاناتها ، تنفس الصعداء وهتف فى الفضاء العريض : « آرل .. ياعروس وحيى الجديد ! سوف أخلدك بلوحاتى على مر الزمان ! » .

وحين عاد الى الفندق ، تعرف الى شاب فى مقتبل العمر ، كان قد نزل فى البلدة ليؤلف رسالة علمية فى لهجات أهل الجنوب وأدبهم الشعبى ، وكان ساخطا لايفتأ يلعن هذه البلدة وأهلها . فلما استوضحه فانسانت السبب ، قال : « ان أهل آرل مصابون بالذهول والصرع والجنون .. ان نار الشمس هنا تقدح الرؤوس طوال النهار ، فتستنزف — على مر الايام — من هذه الرؤوس صوابها ! » .. ثم أردف ناصحا الرسام : « ارحل ياسيدى فى الحال ، والا أصبحت من ضحايا تلك البلدة اللعينة ! » .

وظل هذا التهديد يؤرق فانسانت عدة أيام ، الا أنه سرعان ما نسى الامر . وأخذ يستيقظ قبيل الفجر ، فيحمل أدواته ويظل سائرا على قدميه حتى يجد البقعة الصالحة للوحى والالهام . وجعل يجرب مزج الالوان ، ليهتدى الى سر الاضواء فى لوحة الطبيعة . **.انه يريد أن يمثل بالالوان الرمادية المفضضة،**

وبالصفراء الفاقعة ، وبالبرتقالية المتوهجة ، ثم بالرمادية المتجهمة : ومضات الفجر قبل أن تتوهج صفحة الافق بطلعة القرص المتيقظ رويدا رويدا ، ثم شعاعات السماء الشرقية حين تتضوأ بشذور من خالص الذهب ، ثم ساعة الظهيرة حين يسبح الوجود مع السماء فى فيض من زرقة فيروزية وصفرة ذهبية ، ثم ساعة انحدار القرص الى مغربه حين يزعفر الاصيل هامة النهار ، ثم حين يلهب الشفق وجنة الافق فى حرارة الوداع ، وأخيرا حين تغزو طلائع المساء بسمرتها ذات الاسرار تلك الزرقة اللازوردية الحالمة ! .. وحين يعود راضيا عما صنع ، كان يطالع أهالى البلدة بسحنته المتعبة ، وبوجهه المحمر وعينيه النضاحتين بوهج دموى مروع من أثر الشمس ، فلا يملكون أن يصيحوا ، مشيرين اليه ، فى سخرية : « هاهو ذا المجنون المتجول » !! . ولزمه اللقب منذ ذلك الوقت !

والواقع أن فانسانت لم يحاول فى تلك الاثناء أن يضع على رأسه قبعة تصد عنه لفح الوهج ، اذ كان يرى أن هذا الرأس ينبغى أن يظل محموما بالافكار والانفعالات طول النهار ، متحررا من كل قيد ، حتى يندمج فى الطبيعة ويغدو ذرة هائمة فى محيطها اللانهائى ، ترتل لها الصلوات والتسابيح متمثلة فى صور ولوحات !

.. ومع ذلك ، لم يجد لهذه « التسابيح » من مشتر !

وعندما جاءه نبأ وفاة أستاذه « موف » ، لم يهتز فى بدنه عرق . **فالحياة والموت أمسيا فى نظره ، وبعد طول ماجرب وذاق ، ظاهرتين متلازمتين ، تماما كالضياء والظلمة .. وهما بتعاقبهما المحتوم يؤلفان « ثنائية » الوجود الخالدة** ، ومن ثم فلا داعى لحزن أو ابتئاس .. فكما أن الموت مر ، فان الحياة مرة ، وكما أن الحياة تطيب أحيانا ، فلا شك أن وراء المنون حلاوة وحسنا تهفو اليهما الارواح !



صورة للبيت الاصفر الذى كان يقيم فيه فان جوخ فى بلدة (آرل)

طفلة .. فى بيت الشيطان !

• **وهفا** فانسانت الى المرأة ، واشتاق الى الاحضان التى تعتلج فى ظلمة الليل بنبض اللذة الحسية ، وتنفح خياشيمه برائحة اللحم الانثوى المتضوع حنينا واشتهاء الى جسد الرجل!
.. لقد مل المسكين الحب الخيالى أو « الرومانتيكى » ، من طول مامنى به من اخفاق مر وخيبة مذلة . ان الوحى وحى فى كلا حاليه ، من السمو الخيالى الى السماء ، أو من التدلى الى حد اللصوق الوضيع بأرض اللذات والشهوات !

وساقته قدماه يوما الى احد بيوت الدعارة فى البلدة ، فما أن دخله حتى بادره صاحبه بقوله : « عندى لك أشهى سمراوات الجنوب ، وأفتن شقراوات الرون .. مر تجد طلبك ياسيدى . أوه .. لقد نسيت، أن أذكر لسيدى أن فندقنا فاز منذ ليلتين بـ « لقطة » رائعة .. كاعب فى عمر

الزهور ، لاتتجاوز السادسة عشرة ، واسمها راشيل ! »

وتحرك فى نفس فانسانت فضول لم يستطع مقاومته ، فهتف :

ـ اذن .. آتنى أيها السيد بزهرتك راشيل !

ـ حسنا ، اتبعنى الى غرفتها بالطابق العلوى

ودخل فانسانت غرفةراشيل ، فوجد « طفلة » مضطجعة فى فراش ، لاتتجاوز الخامسة عشرة ربيعا ، سمراء البشرة ، خضراء العينين ، لها نظرات ساخنة وشفتان شبقتان . أما ثدياها الناهدان فكانا يكادان أن يهتكا غلائلها الرقيقة ! .. واستقبلت الفتاة فانسانت بصرخة مكتومة ، اذ عرفت فيه « المعتوه المتجول » . وقال لها فانسانت ، بعد أن اطمأن الى خلوته بها : « لكم أنت فاتنة .. يا يمامتى الحلوة ! سوف أخلدك فى لوحة كبيرة . هل تحبين أن تكونى نموذجا لى ؟ ! »

ـ بل أعبد شيئين فى وجودى يا « فو ـ رو » (أى المجنون المتجول)

ـ وما هما يا يمامتى ؟

ـ كؤوس الراح المعتقة .. وأذنيك هاتين !

فسألها فى بساطة : « أتحبين أذنى الى هذا الحد ياريرى ؟ »

.. فأجابت : « أوه .. انهما رائعتان يا « فو ـ رو » ! ستكون خطيبى وزوجى وعشيقى طالما أمتعتنى برؤيتهما ! » .. فهمس لها فى حنان ، بعد أن سكر من خمر شفتيها : **« اذن سأقطع الاذن اليمنى لانها أكثر تدليا من اليسرى ، وأمنحها لك عربونا لخطبتنا العتيدة ! هل توافقين ؟ ! »**

ـ أ أنت جاد يا « فو ـ رو » ؟

ـ كل الجد يا يمامتى !

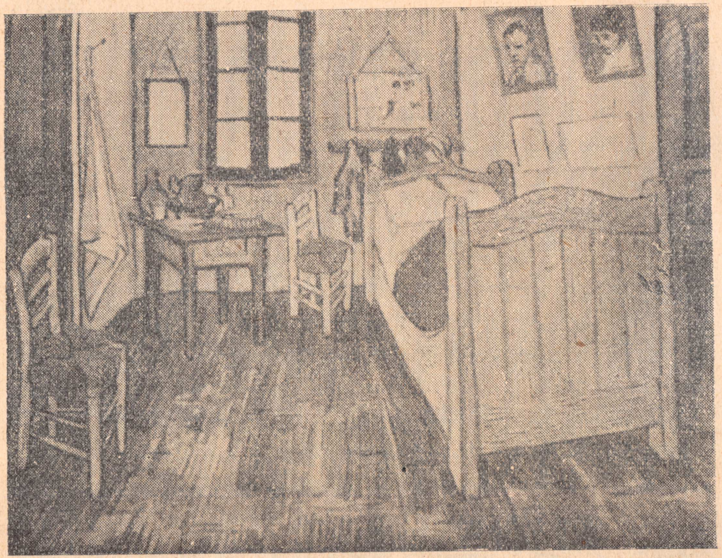
ـ اذن قبلت « شبكة » الخطبة . ستكون أروع هدية قبلتها امرأة من رجل !

وفى تلك الليلة ، غادر فانسانت فراش راشيل ، وقد

أدفأت قلبه ـ بعد برد الوحدة ـ نشوة عميقة نضحت بحلاوتها وعذوبتها فى كل جسمه . وغدت راشيل منذ تلك اللحظة عزاءه الوحيد ، وباتت حجرتها قبلته فى ساعات تمرره من الحياة وضيقه بالعمل .

بداية النهاية !

• **وظل** يرسل ما يتمه من لوحات الى أخيه فى باريس ، حتى تلقى منه خطابا ذات يوم ، يهنئه فيه بأن لوحاته بدأت



الغرفة التى كان ينام فيها فان جوخ فى البيت الاصفر ببلدة (آرل) ، وقد رسمها الفنان نفسه

تحدث بعض الاثر فى دوائر باريس الفنية . ولكنه رغم ذلك . لم يكتب له يوما يبشره بأنه وفق الى بيع لوحة واحدة من لوحاته العديدة !.. وفكر فانسانت فى أن يدعو صديقه جوجان – وكان الرسام الوحيد الذى ارتاح لحسن معشره فى باريس – ليقيم معه فى (آرل) ، ويتعاون معه فى العمل . وبالفعل ، أرسل يدعوه ، واستأجر مسكنا ذا حجرات أربع ، لقاء خمسة عشر فرنكا ، فى بيت مدهون باللون الاصفر الفاقع ، الذى كان يحبه فانسانت الى حد العبادة ! وأقبل على ترتيب المسكن وتزيين جدرانه ، وقسمه بينه وبين جوجان ، الذى سرعان ما حضر .

على أن الريح أتت بغير ما يشتهى فانسانت . فقد راح جوجان ينتقد رسومه ، ويصف ألوانها بأنها ألوان مصروعة مجنونة ، ويؤكد أن من الخير له أن يعود الى رداء الكهنوت! وعلى مر الايام ، استفحل الخلاف ، حتى صار يصحبه الشجار والعراك . واستنزف الاجهاد المتصل ، والعراك الدائم ، أعصاب فانسانت .. كان يرسم طول النهار تحت وقدة الشمس الحارقة ، ويعارك بعقله وجسمه شطرا كبيرا من الليل ، ويعب كؤوسا لا عد لها من الابسنت ، ويدخن باسراف ، ويقنع بأتفه الاطعمة ، ويقبل على تناول القهوة والرسم حين يأرق . وفى ذات يوم ، أطلع جوجان صديقه على رسم (اسكتش) طريف رسمه له ، فهتف فانسانت : « حقا .. بداية جنون .. ما أليق هذه النهاية بى ! » .. **ثم أمسك بكأس الابسنت التى كانت فى يده وقذفها فى وجه جوجان بقوة ، فما كان من هذا الا أن انهال باللكمات والصفعات على وجه فانسانت . وانطرح المسكين على فراشه محموما ، وظل يهذى طيلة أربعة عشر يوما ! .. أما جوجان ، فقد ترك له البيت وأوى الى أحد فنادق البلدة**

وأطبق اليأس والوحدة على نفس فانسانت ، ثم داهمته

نوبات الصرع فى غير رحمة . وانتابته حالة ذهول ، وراح يتطلع كثيرا الى المرآة . وفجأة ، خطرت له فكرة : لماذا لايسجل هذا الوجه العجيب الرهيب فى لوحة ؟ ! .. وعكف من فوره على رسم صورته ، فخرجت آية من آيات الفن الرفيع .. كانت فى الواقع انعكاسا حيا لنفس أضحت أنقاضا وخرائب !

يقطع أذنه اليمنى .. ويهديها الى عشيقته !

• **وما** لبث أن تذكر حبيبته راشيل ، فهفت نفسه اليها. ولكن .. كيف يذهب اليها وهو قد وعدها شيئا .. أذنيه؟! .. وعاد الى المرآة يتطلع اليها ، فرأى عينين تتلظيان بيتمه ووحدته وأوجاع روحه . **وأسرع الى احضار موسى مرهفة النصل ، وأمسك أمام المرآة بأذنه اليمنى .. وبضربة واحدة ، بترها عن رأسه !** .. وجرى الى الحمام يغسلها ، ثم لفها فى ورقة نظيفة ، وهرول بها الى الفندق الذى يضم راشيل - بعد أن غسل جرحه وضمده جيدا - حتى اذا غدا فى غرفتها ، هتفت فى دهشة : « اوه .. فو - رو .. ترى لم جئت مبكرا ؟ »

- لقد أتيت لاتحفك بهدية غالية ياريرى !

- لكم أنت طيب القلب ، ودود ، يافو - رو . هاتها !

وناولها اللفافة ، فما أن فتحتها وتأملتها برهة ، حتى أطلقت صرخة فزع ، وتهاوت الى الارض مغمى عليها ! .. وقفل فانسانت عائدا الى بيته ، حيث استلقى على فراشه وأخذ يهذى !

وعندما علم جوجان بالامر ، أرسل يستدعى ثيو ، فحضر هذا فى المساء ، واتفق مع الطبيب الذى عاد أخاه ، على نقله الى مستشفى للامراض العقلية والعصبية فى (سانت ريمى)

وبعد أيام ، عاد فانسانت الى صوابه ، وعرف حقيقة المكان الذى نقلوه اليه . . **ياالله .. انه اذن فى مستشفى للمجاذيب .. مرحى بالجنون ! انه فرصة من أندر فرص العمر للفنان ..**

انه سيسجل الجنون تسجيلا نابضا حيا ! .. وسره أن طبيبه لم يحرمه من هوايته ، وان كان قد حرمه من الابسنت والتبغ

وأثمرت أيام الراحة والغذاء ثمرتها فى صحة فانسانت ، فاستعاد اشراقة عينيه وأمله . وعندما زاره أخوه ، طلب اليه أن ينقله الى مكان آخر ، اذ كانت أنات المجانين وصرخاتهم تثير أحاسيسه المرهفة . ونزل أخوه عند رغبته ، فأخذه معه الى منزله فى باريس ـ حيث كان قد تزوج من فتاة وديعة دمثة الطباع وانجب منها طفلا ـ ليمكث أسبوعا ، قبل أن ينتقل ليقيم فى مستشفى طبيب من أصدقاء أخيه فى بلدة (أوفير)

وسرعان ما انقضى الاسبوع ، فسافر فانسانت الى (أوفير) . وتوالت الايام عليه هناك ، وهو ينعم بالغذاء الجيد والنوم



لوحة للفنان تمثل ((الاب تانجى)) .. وهو القس الذى كان يساعد الرسامين الانطباعيين فى باريس



((الدكتور جاشيـه)) .. لوحة رسمها فان جوخ للطبيب الذى كان يشرف على علاجه فى أيامه الاخيرة

العميق ، والرسم فى الهواء الطلق . ورغم ذلك كله ، عادت نوبات الصرع تهاجمه بين الحين والحين ، وفى قسوة هائلة !

((.. وفى موتهما لم يفترقا)) !

• **وبدأت** حالته النفسية تزداد سوءا ، حتى تلقى المسكين خطابا من أخيه ثيو ينبئه فيه بأن أصحاب شركة جويل قد أنذروه بالطرد ، بعد ستة عشر عاما من الخدمة ، بدعوى أنه تسبب فى خسارة كبيرة للشركة من جراء اسرافه فى عرض لوحات أصدقائه الانطباعيين ! .. وراح يفكر فى حياة التشرد والجوع التى تنتظر أخاه ـ الذى كان يعبده ـ وأسرته ، فجن جنونه ، وأخرج مسدسا كان يحتفظ به فى حقيبته ، وأطلق على نفسه الرصاص

وجاء ثيو على عجل ، ووقف أمام فراش أخيه المحتضر ، ينظر اليه بعينين ملؤهما العتب ، ثم ركع بجانبه وهمس له :

((فانسانت .. قل انك ستعيش من أجلى .. من أجل لوحاتك! هيا ، تكلم .. سأفتح للوحاتك معرضا فنيا أهز به عاصمة الفنون ! .. أتسمعنى يافانسانت ؟ .. لقد بيعت احدى لوحاتك بأربعين فرنكا .. تصور هذا يافانسانت !))

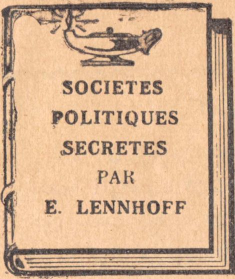
فلاحت ابتسامة باهتة على شفتى الرسام ، وهمس قائلا:

((لقد تأخر الحظ عنى كثيرا ياثيو ! .. اغفر لى ما جلبته على رأسك ، طوال حياتى ! .. أود أن أموت الآن ! أواه .. ما أجمل الراحة !)) .. ثم أسلم الفنان العظيم روحه

ودفن عند ظهر اليوم الذى توفى فيه ، بمقبرة (أوفير)

ومن عجائب القدر ، أن يموت أخوه ثيو بعده بستة أشهر . وفى ذات يوم ، كانت زوجة ثيو الحزينة تقرأ فى الكتاب المقدس ، فاستوقفت نظرها هذه الآية : **((وفى موتهما لم يفترقا))** ! .. وعملت من فورها على نقل جثة زوجها الى القبر الذى يضم رفات أخيه فانسانت

وهكذا اجتمع الاثنان مرة أخرى .. والى الابد !





الجمعية السرية التى نبعت منها الحركات
التحررية فى الصين خلال ١٥٠٠ سنة !

الزنبقة البيضاء

للمؤرخ العالمى "يوجين لينهوف"



تلخيص : ابراهيم موسى

التاريخ .. يعيد نفسه !

• ان اتحاد انجلترا وفرنسا فى عمليات العدوان الوحشية ، لخدمة أغراضهما الاستعمارية ، ليس بالامر الجديد .. ولعل الصين حين وقفت موقفها المشرف الى جانب مصر فى المحنة الاخيرة ، قد ذكرت ألوانا من ذلك التحالف المشين بين « الدولتين المتمدينتين ! » ، تركت ظلالا قاتمة فى تاريخ الحركات التحريرية فى الصين .. وكان أكثر تلك الظلال سوادا ، هو استغلال الدولتين الجشعتين فرصة قيام ثورة تحريرية فى الصين — فى أواسط القرن التاسع عشر — لتتآمرا على احتلال الموانىء الصينية ، وكل ما استطاعتا الوصول اليه من أراضى هذه الدولة .. كما ستقرأ فى هذا البحث التاريخى الطريف ، الذى وضعه المؤرخ العالمى « يوجين لينهوف » عن الحركات الثورية فى الصين ..

« الزنبقة البيضاء » .. توقظ الوعى القومى !

• **لعل** أقدم الجمعيات السرية التى اتصل تاريخها بالعصر الحديث وأحداثه ، هى جمعية « هونج » ، التى نبعت فى أصلها من تقليد ساد الميدان السياسى فى الصين زهاء خمسة عشر قرنا ، ثم ظلت تقوم بالدور الاول فى الحركات القومية السرية والثورية هناك ، الى ماقبل ثورة « ماوتسى تونج » — آخر الثورات الصينية — بعهد قصير .. ومن هنا نرى أن من حق هذه الجمعية أن تفخر بأنها ساهمت بنصيب وافر فى صنع تاريخ الصين !

ومن المصادفات الغريبة ، أن الطقوس والنظم السرية التى اتبعت فى هذه الجمعية ، كانت تشبه الى حد كبير بعض الطقوس والنظم التى اتبعتها بعض الهيئات الدينية المصرية ، فى أيام الفراعنة ، مما أوحى الى البعض بأن ثمة صلة بين تاريخى الشعبين العريقين — المصرى والصينى — أو انهما استقيا بعض

حضارتيهما ، على الاقل ، من نبع واحد ! .. ويدعم هذا الرأى أن الزنبقة ـ زهرة « اللوتس » ـ التى كان لها شأن لدى الفراعنة ، كانت ذات شأن أيضا لدى الحركات السرية والمذاهب الاصلية التى استمدت جمعية «هونج» كيانها منها..
فقد انعقد الاجماع على أن فكرة الحركة السرية لايقاظ الوعى القومى والثورة على الطغيان ـ وهى رسالة جمعية « هونج » ـ انما انبثقت أول الامر بين أتباع طائفة « الزنبقة البيضاء » .. وهى طائفة ازدهرت منذ القرن الخامس الميلادى ـ فى الصين ـ تحت رعاية واشراف « نبى » من أقطاب البوذية يدعى «يون»، يعاونه الحكماء الثمانية عشر الذين كانوا يقيمون فى (روزان)، يلقنون الناس تعاليم البوذية ، ويبشرون بوجود الجنة والحياة الاخرى . وقد ظلت طقوس هذه الطائفة قائمة فى الصين على مر الاجيال والقرون ، حتى ورثتها عنها جماعة « هونج » الثورية ، منذ ٢٥٠ عاما .. ومن ثم فسنرى ، حين نوغل فى الحديث عن هذه الجمعية ، انها كانت تقوم على نظام يمزج بين الطقوس الدينية ـ بغض النظر عن القيمة الدينية ذاتها ـ والاسرار الطائفية الغامضة ، والشعوذة .. والمؤامرات !

أولى قرارات الزنبقة البيضاء

• **وكان** من أهم عناصر رسالة « الزنبقة البيضاء » : الثورة على الظلم والفساد ، والتبشير بأن « بوذا » عائد الى الارض يوما ليطهرها ! .. **ولهذا السبب فانها لم تتردد فى مساعدة الثائر الاكبر « هان ـ شانتونج » عندما هب فى سنة ١٣٤٤ يعلن العصيان على أسرة « يوان » المغولية ، التى كانت تتوارث عرش الصين ، والتى أمعنت فى الفساد والطغيان . وبفضل مؤامرات « الزنبقة البيضاء » وأساليبها السرية الغامضة ، أقصيت أسرة « يوان » عن العرش**
وتولى الحكم ـ فى أعقاب الثورة ـ كاهن بوذى يدعى «شو

ـ هونج ـ وو » . كان رأس الاسرة المالكة التى حكمت البلاد طويلا باسم أسرة « مينج » ، الى أن فقدت هذا العرش فى القرن السابع عشر ، اذ انتزعته منها أسرة تترية من منشوريا ، عرفت باسم اسرة « تسنج » . وسنجد فيما بعد أن جماعة « هونج » الثورية كانت تعمل على اعادة آل « مينج » الى عرش الصين .. وكان هذا ـ فى حد ذاته ـ دليلا آخر على انها وارثة « الزنبقة البيضاء » عبر الاجيال !

الحركات السرية تتجه الى الميدان السياسى

• **وانقضت** ثلاثة قرون ـ عقب هذه الثورة الاولى ـ أخلدت فيها « الزنبقة البيضاء » الى السكون ، ثم هبت تستأنف نشاطها من جديد ، عندما قامت ثورة « سو ـ هونج ـ تو ـ تيس » ، فى سنة ١٦١٥ .. ولكن هذه الثورة منيت بسوء الطالع منذ البداية ، فانزوت « الزنبقة البيضاء » سبع سنوات ، ثم حاولت أن تنشط من جديد ، ففشلت مرة أخرى !

.. الى أن انتزعت اسرة « تسنج » ـ المنشورية التترية ـ عرش الصين من أسرة « مينج » . ثم ولى العرش ثانى اباطرتها « كانج ـ هسى » فى سنة ١٦٦٢ . فلقد كان هذا الامبراطور متحمسا لمذهب « كونفوشيوس » ـ الذى نهض اذ ذاك يزاحم البوذية ـ فأصدر مرسوما باعتبار البوذية والطوائف المنتمية اليها ، ومنها « الزنبقة البيضاء » والجمعيات السرية ذات الصلة بها ، هيئات « اجرامية » .. **وكان من نتائج هذا الاضطهاد أن ضمت تلك الهيئات صفوفها ، واشتدت الروح الثورية فى الحركة السرية ، وحولت رسالتها عن الناحية الدينية الى الناحية السياسية ، وان استبقت نظمها وطقوسها الغامضة ، ذات الطابع الدينى . فكان المرشح للعضوية اذا ما أثبت أنه صادق الرغبة فى مناهضة الاستبداد ، وفى التضحية اذا ماتطلبها**

الكفاح ، استقبل فى الجماعة لاول مرة ، حيث يقوم ــ تحت ارشاد المسئولين ــ بطقوس دينية تمثل رحلة الروح فى العالم الخفى ــ بعد أن تودع الجثة جوف الارض ! ــ الى أن تبلغ السماء فتلقى الترحيب من الكائن الاعظم !

وكان لابد من أن يحرص المسئولون على التأكدمن أن المرشح للعضوية محارب قدير ، قبل أن يطلعوه على شيء من أسرار الكفاح ضد الظلام .. أو بالاحرى ، ضد الاسرة المالكة التترية المنشورية ! .. ولم يكن المسئولون فى الحركة السرية يكترثون بالذكاء أو التعليم كثيرا ، بل انهم كانوا يسعون الى اجتذاب العمال والفلاحين قبل سواهم ، اذ كانوا يستغلون موقف هؤلاء كمستضعفين ، مغبونين ، ليذكوا فى صدورهم جذوة الثورة على المستبدين . أما الطبقات الراقية من المجتمع الصينى ، فكانت بعيدة عن هذه الحركة ، لانها كانت تترفع عن التعاون مع العامة . ومن ثم كانت كلمات السر بين الاعضاء تقتبس دائما من اللهجة العامية ، وألفاظ العوام !

الجمعيات تفنى .. والرسالة تبقى !

• **وكان** الهدف السياسى للحركة السرية هو اعادة أسرة ((مينج)) الى الحكم . وقد ظلت دائبة فى سعيها الى هذه الغاية مائتين وخمسين عاما ، بعناد ينم عن عزائم صلبة قوية .. فكانت الاجيال تتوارث الرسالة وكأنها واجب مقدس ، وكان الصينيون يبقون على وفائهم لها ، أينما حلوا فى هجرتهم لوطنهم . ومن ثم صارت للحركة السرية مراكز ومعابد فى الهند ، والملايو .. بل وفى انجلترا ، والولايات المتحدة !

وكان أعداؤها بدورهم يتوارثون عبء مكافحتها والسعى للقضاء عليها ، كما لو كان ذلك العبء رسالة مقدسة أيضا ! .. **ولكن الدماء التى أراقوها لم تزد الفكرة الا رسوخا ، فكان الدين والسياسة لايلبثان أن يتحدا من جديد فى منظمة سرية تحمل**

اسما جديدا ، وتسعى الى القضاء على أسرة « تسنج » المالكة الظالمة — التى كانت تعتبر دخيلة — واعادة السلطان الى أسرة « مينج » الشرعية

وتوالت الثورات .. ولكن أعنفها كانت ثورة سنة ١٧٧٤ ، التى تولى قيادة جيش الثوار فيها « وانج لونج » ، كبير أساتذة البوذية فى ذلك الحين . وبلغ من عنفها أن أريقت الدماء وشبت الحرائق فى طول ولاية (شانتونج) وعرضها .. ولكن القائد لم يلبث أن وقع فى أيدى اعدائه ، فأعدموه وعلقوا رأسه فى ميدان عام !

ثورة « الزنبقة » المقدسة !

• **وأخلدت** الحركة السرية بعد ذلك الى الهدوء . على انها لم تلبث أن قامت من جديد تحت اسم « تين هان هوى » — (أى اسرة ملكة السماء !) — فقادت « ثورة اللوتس » ، التى اشتقت اسمها من الزهرة المقدسة : « الزنبقة » ، التى كانت دائما شعار المذهب الدينى الذى كان يرعى فكرةالثورة ! .. وقد ساهم فى هذه الثورة أربعون ألفا من الثوار ، وظلت دائرة الرحى منذ سنة ١٧٩٣ حتى استطاع الامبراطوروالامراء أن يخمدوها فى سنة ١٨٠٨

ولكن الحركة لم تمت ، وانما انتقلت الى (كانتون) تحت اسم جديد .. ثم أصبحت فكرة يتناقلها الزمن ، والعقول المتفتحة ، والنفوس التى كان الظلم يثيرها .. فلقد آمن الصينيون بأن خلاصهم من ظلم الاسرة المالكة لن يكون الابحركة ثورية

وكانت الهيئات الدينية التى تحمل رسالة بوذا ، هىالامل الذى يتطلعون اليه .. و « الانبياء » — (أو كبار الكهنة)—هم القادة الذين ينشدونهم .. وهكذا ظل المبدأ الاصلى قائما : الثورة على أيدى جمعية سرية تنشأ فى رحاب الدين ، وعلى أساس مبادىء « الزنبقة البيضاء » !

ولم يكن ذلك راجعا الى تعصب دينى أو نعرة عقيدية فى الواقع ، وانما كان السبب الاول فى تبلور الحركة الثوريةحول رجال الدين ، يرجع الى انهم كانوا يؤلفون الطبقة الوحيدة المتنورة ، والى أن نفوذهم على عامة الشعب كان عظيما .
وليس أدل على بعد الحركة الثورية فى الصين عن التعصب الدينى ــ فى تلك الحقبة ــ من انها لم تعد تقتصر على البوذيين وحدهم ــ وهم الاصل والمنبع ــ وانما اتسعت لتضم غيرهم . بل لقد دخل صفوفها فريق ممن تخلصوا من العقائد الوثنية ، واعتنقوا المسيحية التى كانت قد بدأت تتسرب الى الصين !..
وكان كل مابقى من رباط بين الحركة الثورية والدين ، هو انها ظلت ــ على تعدد جمعياتها وهيئاتها ــ تحتفظ بالطابع القديم لطائفة « الزنبقة البيضاء » : الطقوس ، والاسرار الطائفية الغامضة ، والمؤامرات !

البؤس الاسود .. وحرب الافيون !

• **ولم** يكد القرن التاسع عشر يشرف على منتصفه ، حتى بعثت الفكرة فى أخطر صورها . اذ كان الفساد قد استشرى فى البلاد ، ورزح فلاحو الجنوب تحت ما عرف اذ ذاك باسم « البؤس الاسود » !.. كما اتسعت أعمال القرصنة فى مياه الصين ، واشتدت حركة تهريب الافيون الى داخل البلاد ، وترويجه بين الشعب .. مما أدى فى النهاية الى نشوب حرب ضروس بين الصين وانجلترا فيما بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٤٢، عرفت باسم « حرب الافيون » !

ومما يجدر ذكره عن حرب الافيون ، أن شرارتها الاولى اندلعت فى ١٦ يونيو سنة ١٨٣٩ ، عندما أقدمت السلطات الصينية فى (كانتون) على احراق ٢٠٧٩١ صندوقا من الافيون، كانت واردة من الهند .. **فقد انتبهت السلطات اذ ذاك الى أن الانجليز هم الذين كانوا وراء حركة تهريب الافيون الى الصين،**

وكانوا بذلك يهدفون الى غرضين : أولهما ، يتمثل فى استنزاف الدخل القومى للبلاد . وثانيهما ، عبر عنه موظف صينى كبير اذ ذاك ـ على ما ورد فى كتاب عن ((صن يات سن)) للمؤلف الالمانى جوستاف أمان ـ اذ قال : ((لقد جاءونا بهذه المادة لكى يجف عصب ظهورنا ، ولكى تضطرب بطوننا ، ولكى يستنفدوا قوى رجالنا ، ويخربوا بيوتنا واسراتنا .. ومن ثم وجب أن يدخل تهريب الافيون فى قانوننا كجريمة لاتقل عقوبتها عن الاعدام !))

وكان من نتائج فساد الحكم الداخلى فى الصين ، أن هزمت حكومتها فى هذه الحرب ، ووقعت معاهدة للصلح فى (ننكين) ، كان الغرم كله واقعا فيها على الشعب الصينى ، اذ قضى عليه بغرامة حربية قدرها ٢١ مليونا من الريالات ، كما نزلت الحكومة لانجلترا عن (هونج كونج) وفتحت موانيها للتجارة الاجنبية

وكان لابد للشعب من أن ينتفض ، فتلفت يبحث عن ((نبى)) أو زعيم .. **وكان النبى)) الذى بعثه القدر شابا يدعى ((هونج سن تشوين))** .. ولد ونشأ وسط فلاحى الجنوب فى (كانتون) ، فعانى ماكانوا يعانونه من بؤس . ومع أن أباه ـ كعمدة لقرية صغيرة ـ كان ضيق الموارد ، الا أنه استطاع أن يمضى فى تعليم ابنه حتى ألحقه بأكاديمية ((هاملين)) فى (بكين) ، وكانت أرقى المعاهد الحديثة فى الصين اذ ذاك . **ولكن ((هونج)) فجع فى أعز أمانيه وأحلامه ، عندما حرم من امتحان التخرج ، لانه لم يكن يملك رسوم التقدم اليه !** .. وكانت الصدمة قاسية ، أسلمت الشاب الى مرض خطير ، خرج منه عرضة لنوبات الصرع ، وقد شف جسمه من الهزال .. ولكن حيويته كلها تركزت فى قلبه ، لتستحيل الى نار مشبوبة .. نار الحقد والحسرة !

((الكائن الاعظم)) يدعو ((هونج)) للجهاد !

• **وما** أن عاد ((هونج)) الى قريته ، حتى اعتكف بعيدا عن



الناس أربعين يوما ، راودته فيها رؤى وأحلام أوحت اليه بأن الاقدار اختارته منقذا للشعب من المحن والآلام ! .. ورسخت الفكرة فى ذهنه عندما رأى ـ فى منامه ـ أن الناس احتشدوا لحمله على الجلوس على عرش الاباطرة ، وأن النبلاء قد التفوا حوله فى طاعة ، ثم شقوا جوفه وانتزعوا قلبه وكبده اللذين أضنتهما هموم الحياة ، ووضعوا فى مكانيهما قلبا وكبدا جديدين . ثم اقتيد الى قاعة هائلة ، تصدرها « الكائن الاعظم » ـ أى الاله أو الرب ـ على عرش مرتفع ، وقد تمثل فى شكل شيخ مهيب ، ذى لحية من ذهب ، اتشح بالسواد ، وترقرق الدمع فى عينيه وهو يعرض عليه شرور الدنيا قائلا : **« ان هذه المخلوقات كلها مدينة لى بوجودها . ولكنها تأخذ نعمى فتقدمها للشياطين قربانا ، وتتمرد على وصاياى .. فاذهب اليها ، ولكن .. حذار أن تحذو حذوها »** !

ومنحه الاله سيفا وخاتما وفاكهة صفراء اللون ، بينما انحنى له القوم بوصفه « السيد الذى سيحكم العالم » ! .. وما أن استيقظ « هونج » بعد هذه الرؤيا ، حتى قص ضفائر شعره ، واعتزل الناس فى الصحراء ليعد نفسه للرسالة . ثم عاد فأخذ يدعو الى تعاليم جديدة تحث على المحبة والمساواة فى هذا العالم ، وتقرب من التعاليم المسيحية

الاخ الاصغر للسيد المسيح !

• **ولعل** السر فى ذلك يرجع الى أن « هونج » كان قد قرأ

عن المسيحية وتأثر بها ، أثناء دراسته . ومن ثم اعتزم أن يحدث انقلابا دينيا يمهد به لغايته ، فأطلق على نفسه لقب « الاخ الاصغر للسيد المسيح » !

وأخذ النبى الجديد يطوف بالقرى والمناطق الجبلية مبشرا برسالته ، عاملا فى الوقت ذاته على تأليف جماعة عسكرية .. فقد أغراه نجاحه فى احداث انقلاب دينى على السعى لاحداث انقلاب سياسى واجتماعى . وكانت رسالته فى هذا الميدان تقرب من الشيوعية فى بداية عهدها . **فقد كان يقول لتلاميذه ان « أبانا الذى فى السماء ، وأمنا الارض » لم يؤثرا أقلية من البشر بامتيازات ترفعهم عن الآخرين ، ولا بحق الاستيلاء - دون سواهم - على مساحات شاسعة من الارض، بل ان التملك والتمتع بنعم الدنيا من حق البشر أجمعين ، وقد حان الوقت ليسترد الملايين من المستضعفين البائسين، حقوقهم من القلة الغاصبة ولو بالقوة ! .. ومضى « هونج » الى حد تسفيه كتب الاديان الصينية القديمة ، واتخاذ الانجيل دستورا للحياة !**

واتسعت حركة « هونج » واشتد جنوحها الى العنف ، لاسيما حين شرعت السلطات فى البطش بها . فرحل « النبى » واتباعه الى (كوانجسى) حيث رحبت بهم الجموع الغفيرة ، وأقسمت يمين الولاء لهونج ونصبته زعيما . **وهناك ، ألف جمعية أطلق عليها اسم « جماعة عباد الله » ، أخذ أفرادها يطلقون شعورهم كما كانت العادة فى عهد أسرة « مينج » ، فكان هذا رمزا الى أن الغاية السياسية ظلت واحدة - وهى قلب الاسرة المالكة القائمة - وان تغيرت التعاليم الدينية ! ..**

واتخذت الجماعة من أحد الجبال معقلا ، فاستولت الحكومة على الجبل بالسلاح .. ومن ثم انتقلت قوات « هونج » الى مدينة (لينتشو) ، فتحصنت بها . ومرة أخرى ، زحفت قوات الحكومة على المدينة فأحرقتها بعد مذابح رهيبة ..

ولكن « هونج » نجا بحياته ، فعادت الالوف تتجمع حوله !

« الامبراطورية السماوية » !

• **وسنحت** فرصة جديدة للجماعة ، حين مات الامبراطور فى سنة ١٨٥١ ، فنهض « هونج » معلنا انتهاء عهد أسرة « تسنج » الغاصبة ، وعودة أسرة « مينج » القديمة الى العرش ، ممثلة فى شخصه ! .. رغم انه لم يرد فى سيرته مايدل على انتمائه اليها . ولعله كان يقصد أن عهد حكم الصين بأسرة غريبة قد انتهى ـ لان أسرة « تسنج » كانت من التتر ، أبناء منشوريا ـ فآن للبلاد أن تحكم بأبنائها ! . . ولكن خليفة الامبراطور المتوفى لم يشأ أن يستسلم ، بينما اجتمع أعداء الحكم المنقرض حول « هونج » ، فدارت معارك عنيفة بين الفريقين ، أحرز فيها الثوار انتصارات متعاقبة . **واتخذ « هونج » لنفسه لقب « الاخ الاصغر للمسيح » ـ من الناحية الدينية ـ ولقب « الملك المؤيد من السماء » ، من الناحية السياسية ، وأطلق على مملكته اسم « الامبراطورية السماوية الساعية الى السلام العالمى » !**

وسقط عدد كبير من المدن فى أيدى أتباع « هونج » ، كما استولوا على مخازن هائلة للاسلحة والذخائر ، فتحولوا الى جيش نظامى ، لم يلبث أن ظهر فى ٨ مارس سنة ١٨٥٣ أمام مدينة (ننكين) ، وقد عقد العزم على الاستيلاء عليها ، لانها كانت المدينة المقدسة لاسرة « مينج » .. ولكن جنود الحكومة أمعنوا فى القسوة والوحشية . وظل الصراع دائر الرحى ، حتى اجتاح جنود « هونج » المدينة ومحوها عن آخرها ، وأقاموا فى مكانها مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم (تينكين) ، أى « مقر السماء » !

كلاب الاستعمار .. تدخل المعركة !

• **ولكن** قوات الامبراطور التترى لم تكف عن الصراع ،

اذ عادت الى الهجوم من جديد . وفى تلك الاثناء نشبت خلافات بين « هونج » وكثيرين من القادة المحالفين له . كما انه رفض التحالف مع جماعة كانت تدعى « السكين الصغيرة »، وكانت قداحتلت ساحل الصين الى مدينة (شنغهاى) وأوقفت تهريب الافيون . وكان هذا أول خطأ دل على قصر نظر « هونج » فى السياسة ، اذ أفاد منه أعداؤه الذين كانوا قد ألفوا عصابات تطوف بالبلاد وتنشر الفزع بين الناس ..

وكان الانجليز والفرنسيون يتربصون كالكلاب المسعورة ـ شأنهم دائما ! ـ فما أن رأوا هذه التطورات ، حتى بادروا الى استغلالها ، فاحتلوا (شنغهاى) . وفى تلك الاثناء ، اعترت « الامبراطور النبى » نكسة غريبة ، فاذا به يعتزل الناس ، ويعتكف فى (تينكين) منصرفا الى تسجيل نظرياته وآرائه . ولكن الفتنة لم تلبث أن دبت فى قصره .. واشتدت شوكة أعدائه ، فحاصروا عاصمته ـ فى سنة ١٨٥٩ ـ حصارا أدى الى انتشار المجاعة بين أهلها

وكانت الدولتان الجشعتان (انجلترا وفرنسا) دائبتين فى هذه الاثناء على التآمر لاحتلال أراضى الصين تدريجيا ، حتى انتهت قواتهما الى احتلال ميناء (كانتون) ، ومدينة (بكين) ، العاصمة القديمة ..

وشعر « الامبراطور النبى » بالخطر ، فظهر لاعوانه من جديد ، وسرعان مادبت الحمية فى نفوسهم ، فحطموا الحصار ، ونكلوا بقوات الامبراطور التترى ، ثم زحفوا على (شنغهاى) ـ التى كان الفرنسيون والانجليز يحتلونها ـ فاستردوا بعض أطرافها . واستمر القتال بينهم وبين الدخلاء الاستعماريين سنوات عدة ، فانتهز أعداء « الامبراطور النبى » الفرصة وهاجموا (تينكين) فذبحوا أهلها ، وهدموا معاقلها ، ثم انسحبوا منها

الامبراطور الدخيل يتحالف مع الاستعمار



• **وانتقلت** المعركة الى (شنغهاى) بعد ذلك، فتحالفت قوات الامبراطور التترى مع الفرنسيين والانجليز .. **واشتد ساعد هؤلاء فارتكبوا من الفظائع مايتنافى مع كل شعور انسانى، حتى انهم كانوا يربطون الاسرى فى فوهات المدافع، ثم يطلقون القذائف فتفتتهم تفتيتا ! .. وكان على رأس القوات الانجليزية ضابط برتبة الصاغ يدعى « غوردون » .. قدر له أن يفقد رأسه بعد ذلك فى السودان !**

وهربت فلول أنصار « هونج » الى (تينكين) ، فتعقبتها ألف سفينة نهرية مزودة بالمدافع الانجليزية .. واشتد القتال ، فما لبثت حامية (تينكين) أن انهارت ..

وفى ١٧ يوليو سنة ١٨٦٤ ، أدرك « هونج » أن الدائرة ستدور عليه ، وان المعركة ستنتهى بانهيار ملكه ، ففعل مافعله هتلر بعد ذلك بثمانين عاما تقريبا . اذ نظم حفلة فى حديقة قصره . **وفى خلال هذه الحفلة ، انقض بعض جنوده ـ بتدبير منه ـ على نسائه ، فخنقوهن بخيوط من حرير .. ثم قدمت لهونج وكبار أعوانه كؤوس من شراب جمع بين تبر الذهب والسم الزعاف ، فماتوا لساعتهم .. وما لبثت النار ان أضرمت فى القصر فأتت عليه كله !**

ومع ذلك ، فان أنصار « هونج » ، فى طول البلاد وعرضها لم يستسلموا الا بعد ثمانى عشرة سنة .. وكبدت هذه

الثورة الشعب الصينى مليونا من الانفس !

الحافى .. الذى كان يحلم بالامبراطورية !

• **وانقضت** سنوات أخلدت فيها الحركة الثورية القومية فى الصين الى الركود ، اذ كان يعوزها الزعيم . ثم ظهر « صن يات سن » ـ الذى يعتبر الزعيم الاكبر للنهضة الحديثة فى الصين ـ فبدأ يجمع شتات جماعة « هونج » ، ويوقظ الغافلين ، وينبه مواطنيه الى أن الاسرة المالكة التترية المنشورية لم تنتصر على « هونج » والعناصر الوطنية ، الا بمعونة الاستعماريين الاوروبيين ..

وكان « صن » قد ولد فى الركن الجنوبى الغربى من مقاطعة (كانتون) ، عقب اندحار ثورة « هونج » بسنتين . وكان أصغر أبناء خمسة لفلاح بلغ من فقره انه لم يكن يجد قوت أولاده فى أحيان كثيرة . **ومع ان « صن » قضى معظم أيام حداثته حافى القدمين ، الا انه كان طموحا ، واسع الأفق ، لم يصده الحفاء عن ان يحلم بأنه سيغدو يوما ما أمبراطورا ! . وكان يطمع فى ان يبلغ غايته عن طريق الثورة وتزعم الثوار !**

وفى سنة ١٨٧٩ ، أقدم « صن » ـ وكان فى الثالثة عشرة من عمره ـ على انقلاب خطير فى حياته ، اذ ضاق ذرعا بما كان فيه من فقر ، فرحل الى جزيرة (هونولولو) ليقيم مع أخ له سبقه الى هناك . وفى تلك الجزيرة ، أتيح له ان يتم الدراسة الابتدائية والثانوية فى مدرسة لاحدى البعثات البروتستانتية . ثم عاد الى (كانتون) ليدرس الطب فى جامعتها .. وما لبث ان انتقل الى « كلية الملكة » ـ التى كانت قد افتتحت حديثا فى هونج كونج ـ حيث أقبل على التحصيل بجد ونهم ، فدرس الطب والحضارات الغربية ..

نحو حكومة ديموقراطية !

• **وكان** حلمه القديم ينمو بنمو جسمه وعقله ، فاتسعت آفاقه لتشمل اصلاحات واسعة النطاق أخذ يصبو الى تحقيقها اذا ماتبوأ الحكم ! .. وأدرك « صن » ان الاسرة المالكة هى مصدر الفساد فى وطنه . ولم يكن يؤلمه قدر اذعان مواطنيه لبؤسهم ، وجمودهم ازاء المحن التى كانت تنصب على رؤوسهم لاسيما وقد كانت الدول الكبرى ترهق البلاد بما تتبارى فى الفوز به من امتيازات !

وأخذت أفكار « صن » تزداد وضوحا وتبلورا ، على مر الايام،فلم يعد يطمع فى أن يكون « امبراطورا » . وانما أضحت أمنيته تتمثل فى قيام حكومة ديموقراطية فى الصين ! .. وكان أثناء اقامته فى (كانتون) قد تعرف الى ثلة من الشباب الذين شاركوه أفكاره الحديثة . وقد توثقت علاقته بشاب منهم ـ يدعى « تشين تشى ليانج » ـ كان على صلة قوية ببقايا جماعة « هونج » ، فعمل على ضم « صن » اليها ، لما توسمه فيه من صفات الزعامة والقدرة على القيادة . ومنذ ذلك الحين ، قطع « تشين » على نفسه عهدا بأن يكون نعم الاخ والمعين لصديقه « صن » اذا ما حانت ساعة الجهاد

الحركة الثورية تتحرر من الصبغة الدينية !

• **وكان** عام ١٨٩٢ عاما فاصلا آخر فى حياة « صن » ، اذ تخرج وأصبح طبيبا فى (ماكاو) .. ومكنه تخرجه من توثيق علاقاته بالحركات السرية . وفى تلك الفترة ، حاربت اليابان امبراطور منشوريا والصين ، فانتزعت منه كوريا وميناء (بورت آرثر) . **وفى غمرة السخط العام المحتدم ، قرر «صن» ان يكرس حياته للثورة ، وان ينتزع لمواطنيه من الحكام الظالمين حقين هما أساس كل الحقوق : المساواة ، والحرية !**

وكان « صن » قد أصبح عضـوا بارزا فى جماعة تسمى « الاخوة القدامى » ، كانت أشد الجماعات التى خلفت جماعة « هونج » وفاء للرسالة القديمـة .. رسـالة محاربة الظلم والقضاء على أسرة « تسنج » المالكة الفاسدة ! .. واستطاع « صن » ـ بعد ان كرس نفسه للجهاد ـ أن ينظم الجماعة ، كما رحل الى (هونولولو) ، فجمع الصينيين المقيمين هناك فى جماعة أسماها « نهضة الصين » .. ثم انتقـل الى جنوب الصين ، حيث كان صديقه « تشين ليانج » قد وحد صفوف الجمعيات السرية هناك ، وانشأ خلايا ثورية فى قوات حامية (كانتون) ..

ولاول مرة ، فقدت الحركة الثورية ارتباطهـا بالفكرة الدينية ، واصطبغت بصبغة سياسية بحتة ..

الصراع بين « صن » وحكومة الأمبراطور

• **ورؤى** أن تتجه الدعوة الى « الملكية الدستورية » ، وأن تبدأ فى (كانتون) ، فتكون هذه الولاية البوتقة التى تنضج فيها الفكرة ، والمركز الذى تنتشر منه الثـورة . ولكى تموه الجماعة على السلطات ، أنشـأت شركة تجـارية ، وجمعيـة للدراسات الاقتصادية . ولكنهـا فى الوقت ذاته استأجرت مدربين عسكريين من الامريكيين والاوربيين لتدريب أعضائها على الفنون الحربية ، ولم يعد « صن » يكف عن التنقـل بين (هونج كونج) و (كانتون) للاشراف على تهريب الاسلحة التى كانت تستورد للجماعة

وسار كل شىء قدما فى سبيل الثورة الى أن وقعت شحنة من البنادق المهربة فى أيدى السلطات ، فكشفت سر المؤامرة .. واعتقلت الحكومة كثيرين من زملاء « صن » وأعدمتهم . أما هو فقد تمكن من الفرار الى (هونج كونج) بأعجوبة ، حيث لحق به أخوه فى الجهاد « تشين » ، ثم نزحا الى اليابان متنكرين ،

فراحا يعدان الخطط من جديد . وما لبث ((تشين)) أن رجع الى الصين ، ليمهد للثورة من جديد ويجمع لها الاموال ،وليضم صفوف الاحرار ، ويبعث رسالة جماعة ((هونج)) مرةأخرى !

وأخذ ((صن)) يتنقل من بلد الى آخر ، وجواسيس الاسرة المالكة التترية في أثره ، حتى استطاعوا يوما أن يستدرجوه - أثناء زيارته لبريطانيا - الى السفارة الصينية فى لندن ، حيث احتجزوه . ولكن القدر أرسل له نصيرا لم يكن مرتقبا ، في شخص أستاذه السابق فى كلية الطب بهونج كونج ، فمازال الاستاذ يسعى حتى طلب لورد سالسبورى - رئيس الحكومة البريطانية - الى السفارة الصينية أن تطلق سراحه

وعاد ((صن)) الى اليابان ليكون على مقربة من بلاده ، يرقب تطور الحركات السرية التى أخذ نفوذها يسرى من الشمال الى الجنوب

مبايعة ((صن)) زعيما للثورة

• **وفى** عام ١٨٩٨ ، تولى الحكم فى الصين امبراطور شاب - من نفس الاسرة المقيتة - حاول أن يقوم ببعض الاصلاحات ، ولكن جهوده تحطمت على صخرة الرجعية التى كانت مسيطرة على مقاليد الحكم ، والتى كانت تتمثل أكثر ما تتمثل فى أم الامبراطور بالذات . وقبل أن ينقضى مائة يوم على تولى الشاب الحكم ، حبسته أمه وتولت ادارة شئون البلاد بنفسها !

وقوت هذه الاحداث من عضد الحركة السرية ، فاذا بأعضائها يشعلون نار الثورة فى مقاطعة (كوانجسى) بعد عام . **ومع أن السلطات أخضعت هذه الثورة فى عشرة أشهر ، الا أن ((صن يات سن)) لم ييأس ، بل ضاعف جهوده ، فأوفد رسله الى مقاطعات الوسط ، ونسق بين جهود الجمعيات الثورية في منطقة (يانجتسى)** . وأوعز الى ((تشين)) بأن ينشىء مركزا جديدا لقيادة الثورة فى (هونج كونج) ، كما عمل على اصدار

صحيفة ثورية لمهاجمة الاسرة المالكة التترية والدعوة الى عودة أسرة « مينج » الصينية

وفى مطلع القرن العشرين ، عقد رؤساء الحركات والجمعيات السرية مؤتمرا فى (هونج كونج) برئاسة « صن » ، وقرروا أن يتحدوا فى كتلة ثورية واحدة تحت قيادته ..

ثورة « البوكسر » توحد أوربا ضد الصين

● **ولكن** عام ١٩٠٠ بالذات شهد أحداثا جساما .. فان الاسرة المالكة الغاصبة كانت قد ملت الخضوع لتسلط الاجانب والمستعمرين ، فعمدت الى الانتقاض على نفوذهم . وفى سبيل ذلك سلكت مسلكا خطرا ، اذ شجعت العناصر الرجعية على ثورة حمقاء ، عرفت باسم « ثورةالبوكسر » ... فقد انقضت تلك العناصر فى وحشية على المدنيين من الاجانب — رجالا ونساء وأطفالا — وأعملت فيهم الذبح والقتل ، كما حاصرت السفارات الاجنبية . **وكان من جراء هذا العمل ان اتحدت الدول الاوروبية ضد الصين ، لاسيما حين فرضت الامبراطورة حمايتها على جمعية « البوكسر » — التى دبرت هذا العدوان المنافى للانسانية — وحولتها الى فرق منظمة !**

وكانت للدول الاجنبية أساطيل صغيرة ترسو فى المياه الصينية ، فصدرت اليها الاوامر بانزال بحارتها الى البر ، وارسالهم الى (بكين) فى شكل قوة دولية لحماية الاوروبيين ، والمسيحيين الصينيين الذين تعرضوا للعدوان . وتطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة مذهلة ، فانضم الجيش الصينى الى « البوكسر » ، وأعلنت الحكومة الحرب على الدول الاوروبية ، وأطلقت النيران على السفن الحربية التى كانت قد اجتمعت فى ميناء (تاكو) . وسرعان ما وصلت الامدادات الى القوة الدولية ، فزحف ٨٠٠٠ جندى — من سبع دول — على بكين .. وقابلت قوات الحكومة الامبراطورية و « البوكسر » هذا

الزحف بمحاصرة الحى الاوربى ، واضرام النيران فى جميع المبانى الاجنبية .. بل ان حرمة دور البعثات الديبلوماسية لم تلبث هى الاخرى أن أهدرت ، فأحرق بعضها ، ونسف البعض الآخر !

وكان يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٠٠ يوما مشهودا ، فقد وصلت القوة الدولية الى بكين ، ودار القتال فى الشوارع طيلة الليل والنهار .. وفزعت الامبراطورة وحاشيتها ففروا من المدينة !

واستمرت المعركة اياما فى جهات شتى ، ثم عقد الصلح ، وساد السلام !

« صن » يصدر الامر بالثورة

• **ولكن** « صن » كان يقف بالمرصاد ، اذ كان عاكفا على اعداد العدة للثورة ، حين وقعت تلك التطورات . فلما سقطت (بكين) فى أيدى الاعداء ، رأى أن الساعة الحاسمة التى كان يرتقبها مع الوطنيين الاحرار قد حانت ، فلجأ الى اليابان ، وأصدر أمره من هناك بالثورة

وكانت الخطة الموضوعة تقضى بأن يهجم « تشين » بقواته من الساحل على القوات التابعة للاسرة المالكة ، ثم يعود «صن» الى (كانتون) فيتولى القيادة .. واستطاع « تشين » أن يوفق فى حملته ، فزحف على القوات الامبراطورية من الساحل الى الداخل ، ودحرها فى عدة مواقع واستولى على أسلحتها .. كما استولى على منطقة كبيرة

وراح « تشين » ينتظر الزعيم ، والامدادات التى وعد بها من اليابان ، ولكن انتظاره طال دون جدوى ! .. ذلك لان اليابان نكثت بوعودها بتصدير الاسلحة الى الثوار ، ثم غضت النظر عن تلك الوعود تماما عندما تغيرت حكومة طوكيو ، كما أن السلطات البريطانية فى (هونج كونج) منعت « صن » من

النزول الى الاراضى الصينية عندما أراد العـودة ، فاضطر للرجوع الى اليابان

الكفاح من أجل الجمهورية !

• **وعندما** اشتد تحرج موقف « تشين » ، سرح جنوده ـ وكانوا ١٠,٠٠٠ جندى ـ وشق لنفسه طريق العودة الى « هونج كونج » مع ٢٠٠ ضابط وجندى ..

وضاعت الثورة الاولى ادراج الرياح !

ولكن هذا لم يفت فى عضد « صن » . ففى سنة ١٩٠٤ أجرى تعديلا خطيرا فى خطته ، اذ أعلن « الكفاح من أجل الجمهورية الصينية » . **وبذلك عدل « صن » رسالة الثورة التى عاشت أكثر من ٢٥٠ عاما .. فهى لم تعد مكرسة لنزع أسرة مالكة من أصل أجنبى لتنصيب أسرة من أصل صينى ـ مهما يكن حقها الشرعى ـ وانما أصبحت مكرسة لازالة العرش ، وتخليص الشعب من حكم الافراد ، ليتولى حكم نفسه بنفسه**

وقضى « صن » السنوات القلائل التالية ، متنقلا بين ربوع أوربا ، ليجتمع بمواطنيه من الشبان الذين كانوا يدرسون هناك ، وليتباحث معهم فى اعادة بناء الوطن الصينى وفقا لما عرف باسم « المينتشو » ، أى المبادىء الوطنية الثلاثة: سيادة الشعب ، حقوق الشعب ، ضمان حد أدنى لمستوى معيشة الشعب

اتحاد الجمعيات الثورية

• **وكانت** هذه المبادىء انقلابا خطيرا ، جريئا ، لاسيما وان الشعب الصينى قضى قرونا طويلة وهو مقصوم الظهر ، لطول انحنائه المتواصل للطغاة . **فقد كان مبدأ « سيادة الشعب » كفيلا بتحريره من الخضوع لاسرة حاكمة تتمتع وابناؤها بامتيازات خاصة ، وبذلك يصبح الصينيون سواسية ،**

ويصبح الشعب المصدر الاوحد للسلطات . وكان اتخاذ مبدأ « حقوق الشعب » كقاعدة لقيام الحكم الجمهورى ، دعامة قوية تضمن اتجاه هذا الحكم الى الصالح القومى العام .. ثم كان مبدأ « الحد الادنى لمستوى معيشة الشعب » ضمانا للقضاء على الفوارق الشاسعة التى كانت بين الاغنياء والفقراء ، مما يعفى الشعب من ويلات النزاع بين الطبقات

ومن الناحية العامة ، كانت فكرة المبادىء الاساسية الثلاثة تنطوى على تنسيق يقضى على الصراع بين رأس المال والعمل

وهكذا راح « صن يات سن » يعرض مبادئه على الصينيين خارج الوطن ، ويجمع - أينما ذهب - العناصر الثورية ، فيؤلف منها فروعا وثيقة الصلة بالفروع التى كانت تعمل فى كافة مقاطعات الصين .. فروع « هونج » و « الاخوة القدامى » وما اليهما من جمعيات وحركات كانت قد وحدت صفوفها تحت قيادة منظمة واحدة ، هى « الاتحاد الاكبر » ، الذى ضم أكثر من عشرة آلاف عضو رسمى - خلاف الانصار - والذى صارت له صحيفة تدعو الى « جمهورية الشعب الصينى » ، والى مبادىء « صن » الثلاثة ، والدستور الذى وضعه للدولة الجديدة

ساعة النصر تقترب !

• **وعمدت** هذه المنظمة الموحدة - أول ماعمدت - الى اشاعة التفكك فى قوات الحكومة الصينية ، والى كسب جنودها الى صفوفها ، عن طريق تأليف الخلايا بين تلك القوات .. كما عمدت الى تدريب أعوانها سرا على القتال

ومرة أخرى ، لم يلبث السر أن افتضح .. ولكن هذا الافتضاح لم يمنع « الاتحاد الاكبر » من أن يثير ست مقاطعات فى جنوب الصين - فى سنة ١٩٠٦ - فتتابعت الثورات فى السنوات التالية فى كل مكان . **ولكن هذا لم يجنب قيادة**

الحركة شتى الاخطار ، حتى لقد كتب « صن » فى مذكراته عن تلك الفترة ، انه لم يكن يجد موطأ قدم آمنا يطمئن فيه على حياته ، فى القارة الاسيوية على سعتها وجزر المحيط الهادىء على كثرتها !

وما لبث أن نقل مركز قيادته من (طوكيو) الى (هانوى) حيث اعترفت فرنسا — التى كانت تسيطر عليها — بأن جيشه « قوة محاربة » ، فأولته بذلك صفة « الدولة »

وتوالت الانتصارات والهزائم خلال القتال الدائر ، وراحت القوات الثورية تحارب فى نضال مستبسل .. **وكان كل انتصار يدعم من تحمسها ، وكل هزيمة لاتقابل منها بغير توحيد الصفوف وتنظيمها من جديد لاستئناف الكفاح .** واضطر « صن يات سن » الى الفرار عدة مرات للنجاة بحياته . ولكنه انتهز هذه المرات للذهاب الى (هونولولو) وأمريكا ، حيث كان يجمع الاموال من الصينيين المهاجرين ، لامداد الحركة ، دون أن ينعم بالراحة لحظة واحدة . وكان يعود ليشجع أنصاره ويستحثهم ، وهو موقن من أن ساعة النصر كانت تقترب ، لاسيما وان قوات الحكومة كانت فى تضاؤل ، ومواردها فى نضوب !

« جئت بروح الثورة » !

• **وفى** سنة ١٩١١ ، وقعت فى (كانتون) المعركة الحاسمة فى النضال . فقد تدفق الثوار على (كانتون) من كافة المقاطعات ، ليشتركوا فى الموقعة الفاصلة ضد حكومة « التتر » .. حتى اذا كان شهر اكتوبر من ذلك العام ، دخلت قوات الثوار (ووتشانج) ، فانضم اليها عدد كبير من قوات اعدائها ، واستطاعت فى أقل من شهر أن تستولى على ١٥ مقاطعة !

وانهارت الاسرة الحاكمة التترية .. وهوت عن عرشها

وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١١ ، هبط « صن يات سن »

أرض الوطن فى (شنغهاى) ، فكان أول ما قاله لمواطنيه :
« اننى لم آت لشعبى بمال ، وانما جئته بروح الثورة »
ولم تمض أربعة أيام ، حتى كان « صن » أول رئيس للجمهورية الصينية الوليدة . فقد اختير ليرأس الحكومة المؤقتة التى أعلنت قيام الجمهورية .. وكان أول ما فعله ، هو أن أحيا تقليدا قديما من تقاليد « هونج » وجماعته .. فقد سعى وسط حشد هائل من الناس ، الى قبر « شو ـ هونج ـ وو » ـ رأس أسرة « مينج » الحاكمة الشرعية ـ ليعلن لرفات الامبراطور القديم ، ان أسرة الحكام الغاصبين الاجانب قد طردت من البلاد ، وان الصين قد عادت ـ بعد قرون من الاستعباد ـ تحظى بحكم وطنى شرعى سليم ، وان لم يرأسه امبراطور ، لانه كان .. حكم الشعب لنفسه وبنفسه !

وأخيرا .. « جمهورية الصين الشعبية ! »

• **وراح** الشعب يوطد حكمه هذا على مر السنين .. حتى اذا خشى ان يتطرق اليه الفساد ، وان يتسرب اليه النفوذ الاجنبى ـ خلال عهد « شيانج كاى شيك » ـ عاد الى النضال من جديد ، بقيادة « ماوتسى تونج » ، الذى انتصر بعد الحرب العالمية الثانية وأقام « الجمهورية الشعبية » فى الصين !

قصة الحياة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء :

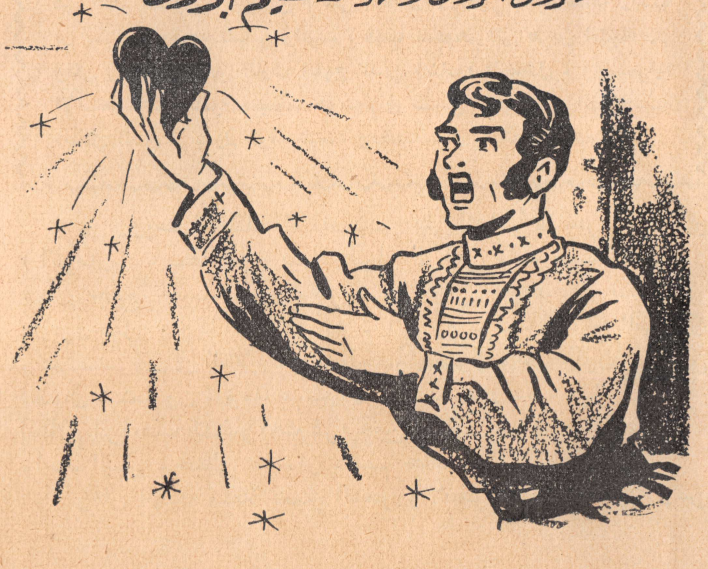
قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص: • أموك : لستيفان زفايج • قلب عذراء : جون جالزورثى • مرتفعات وذرنج : أميلى برونتى • التلميذ :بول بورجيه • أحدب نوتردام : فيكتور هوجو • جريمة حب : بول بورجيه • جين اير : شارلوت برونتى • أيام بومباى الاخيرة : لورد ليتون • مانون ليسكو : الاب بريفو • حديقة الله : روبرت هتشنز • عندما تحقد المرأة : جورج أونيه • آسيا : ايفان تورجنيف • الحب الاول : تورجنيف • تاييس: أناتول فرانس • بلاد العميان :هـ.ج. ويلز • نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون • كوخ العم توم : هارييت بيتشر ستو • الزوج والعشيق : سومرست موم • البوهيمية : هنرى مرجيه • فتاة لها ماض : بول بورجيه • شيرى : كوليت • الجريمة والعقاب: دستويفسكى • لحن كرويتزر: تولستوى • أميرة مصر : جورج ايبرز • امطار: سومرست موم • أفروديت : بييرلويس • جيجى : كوليت • الشيطان فى الجسد : ريموند راديجيه • ليبوريللا: ستيفان زفايج • كانديد • أشجان فرتر • فرانشسكا • لوريت • المعطف • يوميات زوجة • الافق المفقود • النار الخالدة • الوحل • أبناء وعشاق • « اليهودى التائه » • « صباح الخير أيها الحزن » • علاج الحب • العانس • « آدم بيد » • أحزان الشيطان • شذوذ • وهاك اليوم تحفة جديدة



(أقاصيص العجوز ايزرجيل)

قلب البطل!

للروائى الروسى الأشهر "مكسيم جوركى"



مكسيم جوركى .. رائد المجد والحرية !

• كان الكاتب الروسى الخالد « مكسيم جوركى » ـ الذى قدمت اليك « مطبوعات كتابى » منذ نحو أسبوعين مجموعة من قصصه ـ يستمد وحيه من أحلام تتجاوز واقعية يومه الى واقعية غده !.. على أن اتجاه « جوركى » الى الواقعية والقصص العاطفى لم يشغله عن القصص الرمزى الذى مجد فيه البطولة ، وعبر فيه عن ايمانه الوثيق بانتصار قضية الحق والحرية ..

والرواية التى نلخصها لك فيما يلى ، تعتبر من أروع انتاج « جوركى » ، لانه يعرض فيها شتى ألوان أدبه .. من قصص واقعى ، وقصص عاطفى ، وقصص رمزى . ولعل أقصوصة « قلب البطل » بالذات ـ وهى ثالثة الاقاصيص فى هذه المجموعة التى تقرأها اليوم ـ هى أعظم قصص « جوركى » على الاطلاق .. فهى قصة شاب راعه أن يستسلم قومه لليأس والموت ، فهب يدعوهم الى طريق النجاة .. ولكن وعورة الطريق أثارت القوم الذين اعتادوا التخاذل ، واستمرأوا الاستخذاء ، وكادوا يبيعون حريتهم فى سبيل الحياة .. انها قصة البطل الذى لا يدرك قومه قيمته وعظمته ابان حياته وجهاده !

• رويت لى هذه الاقاصيص على شاطىء البحر بالقرب من (أكرمان) ، بمقاطعة (بيسارابيا) . ففى ذات مساء ، انحدر عمال جمع العنب الى البحر ، وتركونى مع عجوز تدعى « ايزرجيل » ، كانت ترقد تحت الكروم ترقب أشباح العمال وهم يسيرون فى الظلام ، وقد أخذوا يغنون ويضحكون . ومضى العمال يبتعدون ، وقد عبث الهواء بشعورهم ، فبدوا وسط الظلام الزاحف كمخلوقات غريبة من أبطال القصص الخرافية .. وأخذ الليل وخيالى يخلعان عليهم حللا من البهاء المطرد !

وكان الهواء مثقلا بعبير البحر والابخرة المتصاعدة من الارض

التى كانت الامطار قد أغرقتها قبيل الغروب مباشرة . وكانت السحب المطيرة لا تزال سابحة فى عرض السماء ، وقد اتخذت أشكالا عجيبة ، وألوانا أعجب .. بينما بدت خلالها سماء الليل مرصعة بنقاط من ذهب . **وكانت كل هذه الاشياء - من أصوات وروائح وسحب وأناس - تجمع بين الأسى والجمال ، وتبدو كمقدمة لقصة رائعة .. كان كل شىء يبدو وكأنه قد كف عن النمو وبدأ يذوى ويحتضر .. وكانت أصوات القوم تخفت فى تباعدهم حتى أصبحت تبدو كهمهمة حزينة !**

وتساءلت « ايزرجيل » وهى تومىء فى اتجاه البحر : « لم لم تذهب معهم ؟ » .. وكانت الايام قد أحنت عودها ، وأطفأت وميض عينيها ، كما كان لها صوت غريب ، فكأن لسانها من عظام جوفاء ! .. وعندما أجبتها بأننى لم أجد فى نفسى رغبة للذهاب قالت : « انكم أيها الروس تولدون كهولا .. كلكم فى اكتئاب الاشباح .. ان فتياتنا يرهبنكم ! »

وبزغ القمر اذ ذاك قرصا كبيرا فى لون الدم . وألقت السحب التى كانت عالقة بالسماء ظلالا باهتة شفافة على السهول ، فقالت العجوز : « انظر .. ها هو ذا « لارا » يسير! » .. والتفت فرأيت الظلال تتحرك .. وكانت كثيرة ، ولكنى استطعت أن أميز من بينها ظلا كان أشد دكنة وأسرع حركة من سواه ، وقد انعكس عن سحابة كانت أقرب من سواها الى الارض .. فقلت : « أهو ذاك ؟ .. انه ليس سوى ظل ، فلماذا تسمينه لارا ؟ »

- لأنه « لارا » ! .. لم يتبق منه غير ظل . ولا عجب فهو قد عاش منذ آلاف السنوات ، فجففت الشمس لحمه ودمه وعظامه ، ثم ذرتها الريح كالغبار .. ألا انظر كيف يعاقب الله انسانا من أجل زهوه وكبريائه !

فقلت وقد توقعت أن أسمع احدى القصص الممتعة التى تولد فى السهول : « قصيها على » .. فشرعت ترويها لى ..

(١) ابن النسر

• « **لقد** جرت أحداث هذه القصة منذ آلاف عديدة من السنين . فعلى مسافات شاسعة وراء البحر ـ فى الناحية التى تشرق منها الشمس ـ بلاد يجرى فيها نهر عظيم ، وتنمو فيها النباتات بوفرة هائلة ، حتى ان ورقة الشجر ، أو عود العشب ، يلقى ظلا يكفى عرضه لأن يقى رجلا وطأة الشمس التى تصب شواظها فى غير ما رحمة .. وهذا يدلك على مدى خصوبة أرض تلك البلاد ! .. وكانت تعيش هناك ـ ذات مرة ـ قبيلة من قوم أقوياء ، يرعون الماشية ، ويتبارون فى عرض قوتهم وشجاعتهم فى صيد الوحوش . فاذا فرغوا من الصيد ، أقاموا الحفلات ، وانصرفوا الى الغناء والمرح مع العذارى

« وحدث أثناء احدى هذه الحفلات ، ان اختطف نسر فتاة جميلة ذات شعر بديع أسود كالليل ، وارتفع بها الى السماء .. وارتدت السهام التى أطلقها الرجال وراء النسر ، فتكسرت على الارض دون أن تناله . وراح الرجال يجوسون الجبال بحثا عن الفتاة ، ولكنهم لم يعثروا لها على أثر .. وما لبثت أن غدت ـ على مر الزمن ـ نسيا منسيا ، ككل شىء على هذه الأرض ! »

وأرسلت العجوز زفرة عميقة ، ثم أخلدت الى الصمت . وعندما عادت الى الكلام ـ بصوتها الذى كان يشبه قرقعة العظام ـ لاحت كما لو كانت تصوغ فى الصوت مشاعر الاجيال المنسية المنزوية فى ظلال الذكريات التى تضمها جوانح صدرها :

« على ان الفتاة لم تلبث أن عادت بعد عشرين عاما ، كليلة القوى ، يابسة العود ، ومعها شاب على مثل ما كانت هى عليه قبل عشرين عاما من قوة وحسن . **فلما سئلت أين كانت ، أجابت بأن النسر حملها الى أعالى الجبال وتزوجها ،**

فأنجبا هذا الشاب ! .. على ان النسر لم يعد على قيد الوجود، لأنه لم يكد يشعر بقواه تضمحل ، حتى حلق عاليا فى عنان السماء لآخر مرة ، ثم طوى جناحيه ، وغاص فى الفضاء ، فلقى حتفه على الصخور الصلدة !

« وأخذ كل انسان يتأمل ابن النسر فى عجب ، فاذا به لا يختلف عنهم فى شىء سوى عينيه ، اذ كانتا تومضان بما يتألق فى عينى ملك الطيور من كبرياء باردة ! .. ولم يكن – فى بعض الاحيان – يحفل بالاجابة عما راحوا يوجهونه اليه من اسئلة .. كما كان يكلم شيوخ القبيلة – اذا ما خاطبوه – وكأنه ند لهم ، فاعتبروا هذا المسلك قحة منه ، ونعتوه بأنه سهم عار من الريش ، ومثلوم السن .. وقالوا له ان آلافا من أمثاله، وآلافا ممن يبلغون من العمر ضعف عمره ، اعتادوا ان يقدموا لهم آيات الاحترام ، وان يطيعوا أوامرهم . ولكنه رمقهم فى جرأة ، وقال لهم ان ليس هناك من يشبهه ، وانه لا يعنى بأن يبدى لهم أى احترام . وشد ما كان غضب الشيوخ اذ ذاك .. وقالوا فى غضبهم ان لا مكان له بينهم ، وان عليه أن يذهب حيث يشاء .. فضحك وذهب حيث شاء : **ذهب الى كاعب حسناء كانت ترمقه طيلة الوقت باهتمام ، فاحتواها بين ذراعيه .. وكانت ابنة أحد الشيوخ الذين أنحوا عليه باللائمة . ومع ان الشاب كان جد جميل ، الا انها دفعته عنها ، لانها كانت خائفة من أبيها ! أجل ، دفعته عنها وسارت مبتعدة عنه ، فاذا به يصفعها فى قوة جبارة ، حتى اذا هوت الى الارض ، راح يدق صدرها بقدمه حتى انبثق الدم من فمها عاليا ، وأرسلت الفتاة زفرة كبيرة ، وتلوت كالثعبان ، ثم ماتت !**

« وألجم الخوف ألسنة من كانوا يشهدون ما يجرى .. فان أحدا منهم لم يشهد من قبل امرأة تقتل بهذه الوحشية ! وظلوا فترة طويلة واقفين فى صمت ، ينظرون الى الضحية التى استلقت مفتوحة العينين ، ملطخة الفم بالدم .. والى



الشاب الذى كان يقف بجوارها ، بمعزل عن الآخرين ، بادى الزهو ، رافع الرأس ، وكأنه اقتص منها ! .. وعندما أفاق الرجال أخيرا من ذهولهم ، انقضوا عليه ، وأوثقوه ، ثم تركوه فى مكانه ، وقد وجدوا أن القضاء عليه فى الحال لن يرضيهم ارضاء كافيا ! »

* * *

• **وكانت** ظلمة الليل قد تكاثفت ، وتخللت سكينته أصوات غريبة ، خافتة . وأخذت الجرذان تئن بأسى فى السهل ، والجراد يتخبط فى الكروم ، وأوراق الشجر تتنهد ويهمس بعضها لبعض .. وشحب وجه القمر الذى كان محتقنا ، وارتفع عن الارض ، وراح يسكب على الحقول نورا أزرق .. وعادت العجوز تستأنف القصة :

« وما لبث الشيوخ أن اجتمعوا وقرروا أن يوقعوا بالشاب عقابا يعادل جرما كجرمه . **ففكروا أولا فى أن يربطوه الى جياد تنطلق فى اتجاهات مختلفة فتمزقه اربا ، بيد أن هذا العقاب بدا لهم خفيفا ، ففكروا فى أن يرميه كل منهم بسهم ، ولكن هذا الاقتراح لم يجد قبولا . واقترح البعض احراقه حيا ، غير أنهم وجدوا أن دخان النار كفيل بأن يحجب عذابه عنهم !**

وتوالت المقترحات ، ولكن أيا منها لم يفز برضاء شامل .. كل ذلك وأم الشاب راكعة أمامهم فى صمت ، لا تجد من الكلام أو الدموع ما يحرك عوامل الشفقة فى نفوسهم . وظلوا

يتداولون طويلا ، ثم قال أحد حكمائهم أخيرا : « لنسأله عما دعاه لهذا العمل ! » .. وسألوه ، فقال :

ـ فكوا وثاقى أولا ، فلن أقول كلمة واحدة ما دمت موثقا

« واذ فكوا قيوده ، قال فى لهجة السيد حين يخاطب عبيده: « لماذا أفسر لكم تصرفاتى ؟ » ، فأجابوه : « لكى نفهمها ! .. ألا اسمع ايها المتكبر ، ان من المحقق انك ستموت ، فساعدنا على ان نفهم ما دعاك الى مثل هذا العمل ، لنضيف شيئا الى ما ندخر من معرفة ! » .. فقال : « حسنا .. سأنبئكم ، وان كنت فى الواقع لا أدرى تماما لماذا أقدمت على ذلك .. وانما يبدو لى اننى قتلتها لانها صدتنى ، فى حين اننى كنت بحاجة اليها ! » .. قالوا : « ولكنها لم تكن ملكا لك »

ـ وهل أنتم لا تستخدمون سوى ما تملكون ؟ .. اننى أرى أن كل رجل لا يملك سوى ذراعين وساقين ولسانا .. ومع ذلك فهو يقتنى ماشية ونساء وأرضا وأشياء كثيرة !

« اذ ذاك أجابوا بأن على الانسان أن يدفع ثمن ما يقتنى.. يدفع الثمن من عقله ، أو قواه .. أو من حياته ! .. فقال الشاب انه لم يكن راغبا فى أن يدفع أى ثمن . وظلوا يجادلونه بعض الوقت ، فتبينوا انه كان يرى نفسه أرفع منهم قدرا ، وانه لا يحفل بغير نفسه .. وجزعوا حين فطنوا الى انه بذلك قد جعل نفسه بمعزل عن الدنيا بأسرها ، فانه لم يكن راغبا فى ان تكون له عشيرة ، ولا أم ، ولا ماشية ، ولا زوجة !

« وعادوا يتناقشون فى أمر العقاب اللائق به ، فما لبث الحكيم الذى تكلم فى المرة السالفة ان قال : « صبرا ، فقد وجدت عقابا فظيعا لن تصلوا الى مثله ولو فكرتم ألف عام .. لسوف يعاقب نفسه بنفسه . فاطلقوا سراحه ، وسيكون هذا عقابه ! » .. واذ ذاك حدثت ظاهرة غريبة، فقد تردد قصف الرعد رغم ان السماء كانت صافية ، فاعتبر هذا دليلا على ان السماء تقر رأى الحكيم ! .. هذا بينما ضحك الشاب ـ الذى سمى

منذ ذلك الحين « لارا » ، اى المنبوذ المزدرى ـ واشـــتدت قهقهته حين رأى نفسه وحيدا ، طليقا كما كان أبوه من قبل . ولكن أباه لم يكن آدميا كما كان هو .. ومع ذلك فقد شرع يعيش كالطائر ، يسرق من القبيلة الماشية والحسان ، وكل شيء يروق له . وكانوا يرمونه بالسهام فلا تخترق جسمه ! فان العقاب الذى أقرته السماء أضفى على جسمه درعا خفية واقية !

« وكان جريئا ، ضاريا ، قويا ، قاسيا .. ولم يكن يقابل الناس وجها لوجه على الاطلاق ، بل كان يراهم على البعد ، وهكذا ظل زمنا يهيم على هامش المجتمع الانسانى . وطال هذا الزمن . ثم جاء يوم تسلل فيه « لارا » مقتـــربا من أحد المضارب ، حتى اذا خرج أهله ليهاجموه ، ظل واقفا فى مكانه ، ولم يبذل أتفه جهد للدفاع عن نفسه . **وما لبث أحد الرجال ان حدس غايته فصاح : « لا تمسوه ! .. انه ينشـــد أن يموت ! » .. ومن ثم كف القوم أيديهم عنه وهم يســـخرون منه .. فقد ضنوا بالراحة على الشخص الذى أساء اليهم ! .. وراح يرتجف ويخمش صدره بيديه .. ثم انقض على الناس فجأة وأخذ يرميهم بالاحجار ، ولكنهم تفادوها ولم يحاولوا أن يردوا عليه بالمثل ، حتى اذا تعب فى النهاية ، اطلق صـــيحة يائسة ، وألقى بنفسه على الارض** .. ولكنه ما لبث أن نهض ، فالتقط سكينا كانت قد وقعت من أحد الرجال ، وغرسها فى صدره .. بيد ان نصلها تحطم وكأنه ارتطم بصخر ! .. ومن جديد ، ارتمى على الارض وراح يخبط رأسه بها ، ولكن الارض بدورها تراجعت عنه .. اذ أحدث رأسه فجوة بها ! »

* * *

• **و مضت** العجوز فى قصتها قائلة : « وصاح الناس فى طرب وابتهاج : « انه عاجز عن الموت ! » .. ثم انصرفوا عنه ، فظل راقدا على الارض ، يحدق فى السماء متـــأملا

النسور التى كانت تحلق على أبعاد شاسعة .. وكان فى عينيه من الاسى ما يكفى لأن يشقى الدنيا بأسرها . **ومنذ ذلك الوقت حتى الآن وهو وحيد ، يرتقب الموت ، ولا يملك سوى ان يهيم على وجهه ! .. وقد رأيت بنفسك كيف أصبح كالظل ، وسيمكث كالظل الى نهاية الزمن ! .. انه لا يعى شيئا ، ولا يفهم من كلام البشر وتصرفاتهم شيئا ، وانماهويمضىهائما على وجهه دائما .. انه لا يعيش بالمعنى المألوف ، ولكنه كذلك عاجز عن الموت .. ولا مكان له بين البشر ! »**

وأرسلت العجوز زفرة حرى ، وقالت : « ألا تأمل ما تفعله الكبرياء بالرجل ! » .. وهزت رأسها مرة أواثنتين ، ثم أسلمته الى صدرها .. وبدا أن النوم غلبها . وشعرت بأسف من أجلها .. أسف لم أدر مأتاه ، اذ خيل الى أن لهجتها – وهى تختتم القصة – كانت تنم عن خوف وذلة !

وكان عمال الحصاد يغنون عند الشاطىء غناء غريبا .. كان اللحن يبدأ بصوت رنان ، ولا يكاد يرقى طبقة أو طبقتين ، حتى يبدأ صوت آخر باللحن ، والصوت الاول مستمر فيه .. وهكذا تتتابع الاصوات حتى تغدو خمسة .. ولا تلبث أن ترتفع فجأة أصوات مجموعة من الرجال تردد اللحن . وتشترك النساء بدورهن ، فيسمع صوت كل منهن واضحا على حدة ، وكأن أصواتهن جداول متباينة الالوان تنحدر فوق الصخور ، فهى تقفز وتتناثر اذ تندفع لتنضم الى أصوات الرجال !

* * *

• **وقالت** العجوز : « هل سمعت يوما مثل هذا الغناء ؟ »

– لا .. لم أسمع يوما أى مثيل له ، فى أى مكان !

– ولن تسمع قط ! .. اننا نحب الغناء ، فليس يحسنه سوى عنصر بديع الحسن ، مليء بحب الحياة .. ونحن كذلك!

.. تأمل هؤلاء القوم الذين يغنون .. ألا تظن أنهم مرهقون من جراء العمل طيلة النهار ؟ .. ومع ذلك فهاهم أولاء يغنــون بعد اذ طلع القمر عليهم ! .. ان الذين لا يحفلون بالحياة يأوون الى فراشهم فى مثل هذا الوقت ، أما أولئك الذين يجــدون الحياة حلوة فيغنون !

ـ ولكن صحتهم ...

ـ ان لدى الانسان من الصحة دائما ما يكفيه لان يعيش دهرا .. الصحة ! .. اذا كان لديك مالا ، أفلا تنفقه ؟ .. كذلك الامر بالنسبة للصحة ، فهى كالمال . أفتدرى كيف أنفقت شبابى ؟.. كنت أنسج الابسطة من الفجر حتى الغــروب ، ولا أكاد أقيم ظهرى طيلة هذا الوقت .. كنت موفورة الصحة والحياة ، ولكنى كنت مضطرة الى أن أجلس بلا حراك كالحجر! .. ومع ذلك ، فما ان يحل المساء ، حتى كنت أهــرع الى احضان الرجل الذى أحبه .. كنت أجرى اليه فأقضى الليل بطوله معه .. فانظر الى أى مدى قــدر لى أن أعيش ! .. لكم أحببت ، وما أكثر القبلات التى منحتها ، والتى نلتها !

وتأملت وجهها .. كانت عيناها لا تزالان خابيتين ، لم تقو الذكريات على أن ترد اليهما اشراقهما . وكان القمر يسكب أشعته على شفتيها اليابستين المشققتين ، وعلى ذقنها النحيلة المكسوة بشعيرات شيباء ، وعلى أنفها المجعد المعقوف كـأنه منقار حدأة ! .. وكانت ثمة فجوتان غائرتان فى مكان خديها ، وقد تهدلت على احداهما خصلة من الشعر الاشيب أفلتت من تحت المنديل الاحمر الذى كانت تلف به رأسها .. وانتشرت شبكة من التجاعيد على وجهها وعنقها ويديها .. وكنت أخشى مع كل حركة تصدر عنها أن ينشق هذا الجلد النحيل ويتهدل ، كاشفا عن هيكل عظمى ذى عينين سوداوين !

(٢) غراميات ايزرجيل

• ومرة أخرى ، عادت تقول بصوتها الشبيه بقرقعة العظام :

« كنت أعيش مع أمى بالقرب من (فالمى) على ضفاف نهر (بيرلات) . وكنت فى الخامسة عشرة عندما وفد على مزرعتنا . كان طويلا ، أسمر ، مهيب الطلعة ، ضافى المرح ، وقد أوقف قاربه تحت نافذتنا وصاح بصوت رنان : « هالو ! هل أستطيع أن أحصل على شىء من الخمر والطعام ؟ » . وأطللت من النافذة ، فرأيت النهر صفحة زرقاء ، تحت ضوء القمر .. وكان الشاب واقفا فى قميص أبيض ، واحدى قدميه فى القارب ، والاخرى على الضفة ، وقد راح يؤرجح القارب ويغنى . وما ان لمحنى ، حتى قال : « انظر أية حسناء تقيم هنا وأنا لا أدرى ! » .. كأنما كان يعرف كل حسان الدنيا الاخريات !



« وأعطيته نبيذا ولحما ، ثم .. منحته نفسى بعد أربعة أيام . وأصبحت أخرج معه فى القارب كل مساء ، اذ كان صائد أسماك من (بروت) . وعندما اكتشفت أمى الامر ، ضربتنى ، فراح يغرينى على الفرار معه الى (دوبروجا) ، بل الى روافد نهر (الدانوب) . ولكننى كنت فى تلك الاثناء قد سئمته .

وحدث فى ذلك الوقت بالذات ، أن هبطت الريف جماعة من

الفجر ، فسرعان ما اتخذوا من فتيات المنطقة عشـــيقات . وطلبت من احدى هؤلاء الفتيات أن تقدمنى اليهم ، فاستطعت بذلك أن أتعرف الى شاب من الجماعة كان مليحا ، ذا شـــعر أحمر ، وسوالف فى حمرة اللهب !.. وكان فى بعض الاحيـــان قاسيا ، وفى أحيان أخرى رقيقا . ولقد صفعنى ذات مرة على وجهى ، فانقضضت على صدره كالقطة ، وأنشبت أســـنانى فى خده .. ومنذ ذلك الحين ، نشأت ثمة ندبة فى خده ، فكان يحلو له أن أطبع عليها قبلاتى ! »

فسألتها : « ولكن .. ماذا جرى لصياد السمك ؟ »

ـ لقد انضم الى الجماعة ، وسرعان ما عثر لنفسه عـــلى عشيقة أخرى . وقد شنق عشيقاى الاولان : الصياد ، والغجرى .. وذهبت لاشهد اعدامهما فى (دوبروجا) ، فكان الصياد شاحب الوجه ، وقد بكى حين اقتيد الى حتفه . أما الغجرى ، فكان يدخن غليونه وهو ماض الى مقتله فى خطى ثابتة ، وصاح عندما لمحنى : « وداعا ! » .. ولقد ظللت أبكيه عاما بأكمله ! »

* * *

● **وكان** الغناء المنبعث من ناحية البحر قد انقطع ، ولكن همسات الامواج كانت تخالط صوت المرأة العجوز وهى تروى قصتها . وما لبثت الريح ان اشتدت ، فتحولت همســـات البحر الى زمجرة .. واستأنفت المرأة حديثها قائلة :

« وأحببت بعد ذلك رجلا تركيا ضمنى الى حريمـه فى (سكوتارى) ، ولكننى لم ألبث أن ضقت بالحياة هناك ، فمـا كنت أرى حولى سوى نساء !.. كانت ثمة ثمان منهن ، لاعمل لهن طيلة اليوم سوى الاكل والنوم والثرثرة أو الشجار ، فكن اذ ذاك ينقنقن كالدجاجات !.. ولم يكن التركى شابا ، ولكنه كان عظيم الثراء والمكانة ، وكان يتـــكلم وكأنه امبراطور .. **وكان له ابن شاب ، رشيق ، أسود الشعر ، فى السادسة عشرة**

من عمره.. فهربت مع هذا الابن الى (لوم ـ بالانكا) في بلغاريا!..
وهناك طعنتني امرأة بلغارية بسكين في صدري، من أجل زوجها.. أو لعله كان عشيقها، فقد نسيت صلته بها!

« ولزمت الفراش في احد الاديرة زمنا طويلا، حيث توفرت على رعايتي راهبة بولندية شابة، كان لها أخ راهب اعتاد أن يزورها. فأخذ يدور حولي كالدودة، حتى فررت معه ـ عندما عوفيت ـ الى بولندا »

ـ مهلا.. ماذا جرى للفتى التركي؟

ـ آه، لقد مات.. أهزله الحنين الى الوطن، أو أضناه الحب على ما يبدو.. وأخذ يضمر ويذوي، حتى انتهى!.. مازلت أذكره وهو راقد، وقد استحال لونه الى زرقة شاحبة كلون الجليد.. ومع ذلك، فقد كانت وقدة الحب تتأجج في كيانه. وكان لا ينفك يسألني أن أقبله!.. وكنت أحبه حبا عظيما، وأكثر من تقبيله.. ولكنه أخذ يزداد ضعفا، حتى لم يعد يقوى على الحراك.. **ومع ذلك فانه لم يفتأ يتوسل الى ـ في الحاح المتسول وضراعته ـ كي أرقد الى جواره، لادفىء جسمه.. فاذا ما رقدت، دبت النار في كيانه!.. واستيقظت يوما لاجده ميتا، فبكيته. ومن يدري؟ لعلني أنا التي قتلته، فقد كنت في ضعف سنه، وفي عنفوان القوة، وأوج الحيوية.. في حين أنه لم يكن أكثر من طفل!**

وتنهدت وهي ترسم علامة الصليب على صدرها ثلاث مرات، وتتمتم بصلاة خافتة.. ولم أكن قد رأيتها تفعل ذلك من قبل!

وعدت أسألها: « هل رحلت بعد ذلك الى بولندا؟ »

ـ أجل، مع ذلك الشاب البولندي.. كان وحشا سخيفا، انتابته الشهوة للنساء. وكان يتمسح بي كالقط، واللعاب يسيل من بين شفتيه، فاذا أرضى شهوته، راح « يلعقني » بلسان كأنه السوط!.. وفيما كنا نسير على ضفة النهر يوما

أخذ يفتخر بشيء فيه اهانة لى ، وشد ما ثار غضبى !.. لقد فار دمى ، فرفعت الشاب كأنه طفل ــ اذ كان قلة فى الجسم ــ وعصرته حتى استحال لون وجهه أسود ، ثم ألقيت به فى النهر ، فصرخ .. ورحت أرقبه وهو يصارع الماء ، ثم انصرفت. ولم أره بعد ذلك ، فقد كنت مجدودة الحظ ، لا ألتقى بأحد من عشاقى بعد افتراقى عنهم !.. ذلك لان اللقاء بعد الفراق بغيض .. كأنما المرء يلتقى بميت ! »

وسكتت العجوز ، فرحت أتمثل فى خيالى العشاق الذين تحدثت عنهم ، واحدا بعد آخر .. لقد غدوا جميعا كالاطياف الباهتة ، أما هى ــ التى طالما قبلوها فى وجد ــ فكانت تجلس انى جوارى .. على قيد الحياة ، ولكنها ضامرة الجسم ، ناضبة الدم ، ذهب عنها لحمها ، وخلا قلبها من كل شهوة ، كما خبت عيناها من كل بريق .. فكأنها طيف مثلهم !

* * *

• **وعادت** تتابع قصتها قائلة : « ووجدت العيش فى بولندا عسيرا ، فان القوم هناك مخادعون باردو العواطف ، فضلا عن أننى لم أكن أحسن الحديث بلغتهم ، ومن ثم رأيت أن أرحل ، وخاصة أننى رأيت البولنديين يتأهبون للثورة على الروس . وبلغت فى ترحالى مدينة (بوكينا) . **وهناك ابتاعنى رجل يهودى ، لا ليستمتع بى ، وانما ليتجر فى جسدى ! وقد قبلت هذا ، فان على المرء أن يتعلم حرفة ما اذا شاء أن يكسب عيشه .. ولما كنت لا أعرف أية حرفة ، فقد دفعت الثمن بجسدى!..** على أننى عقدت العزم فى نفسى على أننى اذا استطعت أن أجمع من المال ما يكفى لعودتى الى موطنى الاصلى ، فلن أتوانى عن تحطيم قيود عبوديتى !

« ولم أجد فى حياتى هناك ما يدعو للشكوى . فقد كان يتردد على أغنياء المدينة ، فينفقون عن سعة ، ويتنافسون من

أجلى الى أن ينتهى بهم الامر الى الافلاس !. وظل أحدهم وقتا طويلا يسعى الى الفوز بقلبى ، وهاك ما فعله فى النهـــاية .. **أقبل مع خادم يحمل كيسا كبيرا أفرغه فوق رأسى ، فاذا النقود الذهبية تغرقنى .. وطرب قلبى لسماع رنين الذهب ، ولكننى مع ذلك طردت الرجل ..** فقد كان بدينـــا ، ذا وجه ينضح بالشحم ، وبطن منتفخ .. وكان يبدو كالخنزير السمين !.. أجل ، طردته رغم ما قاله من أنه باع أرضه وقصره وجياده ليجلب لى هذا المال .. ولكننى كنت فى تلك الفترة مدلهة فى هوى سيد جليل ذى وجه تركت سيوف الاتراك ندوبا على طوله وعرضه . فقد كان عائدا لتوه بعد أن عاون اليونانيين فى محاربة الاتراك ، فأثخنه هؤلاء جراحا بقسوة ، حتى أنه فقد تحت ضرباتهم احدى عينيه ، وأصبعين من يده اليسرى .. تصور !.. ماذا كان شأنه باليونان وهو بولندى ؟ .. ولكنه مع ذلك حارب فى صفهم ، لانه كان يصبو الى أعمال البطولة . **والرجل اذا تاقت نفسه الى البطولة لم يعدم الفرصة . والحياة مليئة بالفرص التى من هذا النوع ، فاذا لم يعثر الرجل عليها ، فما ذلك الا لانه كسول أو جبان ، أو لانه لا يفهم الحياة .. فانه اذا فهمها وطد العزم على أن يخلف وراءه ذكرى تعلى اسمه!.. ماكان أبدعه من رجل ، بوجهه المشوه ذاك ! »**

وتحولت بالحديث الى البطولة والقتال ، ولكنها ما لبثت أن ارتدت الى موضوعها الاول قائلة : « ولكن ، عم كنت أتكلم ؟. آه ، عن بولندا .. لقد خضت هناك آخر غرامياتى . فقد قدر لى أن ألتقى بشاب باهر الجمال الى حد يفوق التصـــور .. ولكننى كنت فى ذلك الوقت قد تقدمت فى السن .. آه ! لابد أننى كنت اذ ذاك فى الاربعين .. على الاقل ! وكان الشـــاب مزهوا بشبابه وجماله .. وكانت النساء يتهـــافتن عليه .. **وشغفت به ، فظن أن بوسعه أن ينالنى بمجرد الاشارة ! ولكنى لم أكن أهب نفسى بســــهولة .. ما كنت جارية لاحد قط ،**

لا سيما بعد أن تحررت من ذلك اليهودى !.. وكنت أعيش فى (كراكاو) محفوفة بالبذخ والثراء ، فأقبل الفتى المغرور الى دارى متوقعا أن ألقى بنفسى بين ذراعيه . ودارت بيننا معركة عنيفة دامت فترة طويلة ، حتى أرهقنى الصدود والتجلد . على اننى انتصرت فى النهاية ، وجثا على ركبتيه أمامى . **على أنه لم يكد ينال وطره منى ، حتى نبـــذنى ، اذ اكتشف أننى عجوز .. وشد ما كان هذا الاكتشاف مريرا ! فقد كنت أحب ذلك المزهو وان كان قد راح يضحك منى كلما التقى بى .. كان حيوانا ، فلم يتورع عن أن يسخر منى فى حديثه الى أصدقائه .. أواه ، لكم تعذبت !.. ولكننى كنت أجد العزاء فى مجرد رؤيتى اياه !**

« .. الى أن رحل ذات يوم ليحارب الروس ، فحاولت أن أصبر على غيابه ، ولكنى عجزت عن السيطرة على مشاعرى ، فقررت أن أسعى اليه . وكان معسكره فى غابة قريبـــة من (وارسو) .. على أننى لم أكد أصل الى هناك ، حتى وجدت أن البولنديين مع من كانوا يحاربون فى صفوفهم قد هزموا ، وأنه قد سيق أسيرا الى قرية لم تكن بعيـــدة . وجزعت اذ خطر لى أننى لن أراه بعد ذلك اليوم ، فقررت أن اصل اليه . وارتديت ثياب امرأة متسولة ، وتصنعت العرج ، وأخفيت ملامحى بالطلاء ، ثم رحلت الى القرية التى كان سجينا بها . وما أن عرفت مكان المعتقل ، حتى أيقنت أن الوصول اليـــه عسير .. ولكننى كنت مصرة على الوصول . لذلك تسللت ذات ليلة الى أن وصلت الى أحواض الخضر فى السجن ، واذا بى أمام أحد الحراس .. وتناهى الى سمعى غناء البولنديين وحديثهم .. وتذكرت فى مرارة أن الرجال كانوا يتسللون يوما محاولين الوصول الى ، فاذا بى فى تلك الليلة أتسلل كالدودة وراء رجل ، وقد ألقى فى سبيل ذلك حتفى ! »

* * *

• **وصمتت** برهة ثم استطردت تقول : « وأسفت لاننى

لم أتسلح بسكين .. فقد سدد الحارس « السونكى » الى رقبتى ، فهمست : « انتظر واسمع قولى ، ثم احكم ان كان فى صدرك قلب . لست أملك ما أقدمه لك ، ولكننى أنشد رحمتك ! » . وحاول أن يقصينى وهو يقول : « ما الذى أتى بك الى هنا أيتها العجوز ؟ » .. فقلت : **« ابنى أيها الجندى . أتفهم ؟.. انك ابن لامرأة ما ، فانظر الى وحاول أن تفهم ، فان لى ابنا سجينا هنا .. ألا دعنى أراه ، فلربما مات قريبا .. ولعلك أنت الآخر مسوق الى الموت غدا ، فهلا تتوقع أن تبكيك أمك ؟ .. ثم ، ألن يكون من الشاق على نفسك أن تموت دون أن تراها ؟.. كذلك الامر بالنسبة لابنى ، فاشفق علينا ! »**

« ولست أدرى كم من الوقت مضى وأنا استحلفه . على أن المطر لم يلبث أن تدفق فأغرقنا معا ، وهبت الريح معولة ، وراحت تلفح ظهرى وصدرى ، فأخذت أترنح أمام الجندى المتحجر القلب ، وهو لا يفتأ يرفض فيزداد شوقى الى رؤية « اركادك » – كما كان حبيبى يدعى – باصراره على الرفض . ورحت أقدر قوته ، وأنا أضرع اليه .. كان قصير القامة ، نحيلها ، وكان يسعل . **وأخيرا ، ارتميت على الارض وأنا ماضية فى التوسل ، ثم احتضنت ساقيه فجأة ، فهوى فى الوحل . وسرعان ما دسست وجهه فى بركة موحلة ، فحاول أن يقاوم ، ولكنى رحت أضغط رأسه فى الوحل حتى اختنق** . واذ ذاك أسرعت الى الكوة التى كان غناء البولنديين ينبعث منها ، وهتفت هامسة : « اركادك ! »

« وما أشد دهاء أولئك البولنديين ! .. انهم لم يكفوا عن الغناء ، ولكننى لم ألبث أن رأيت عينى فتاى أمام عينى ، فهتفت به أن يسرع الى الخروج ، فسرعان ما أقبل مع أربعة وهم يحبون على أيديهم وأرجلهم فى حذر . وكان المطر ينهمر ، والريح سادرة فى عويلها ..

« وبادرت أقودهم فى صمت خلال الغابات ، ونحن نغذ

السير ، وقد أمسك أركادك بيدى .. وكانت قبضته دافئة. أواه !.. ما كان أحلى ذلك السرى وهو الى جانبى !.. تلك كانت آخر لحظات سعادتى !.. على أننا ما لبثنا أن خرجنا أخيرا من الغابات الى المروج ، فوقفنا ، وأقبل رفاق اركادك الاربعة يشكروننى فى اسهاب ظننت معه أنهم لن يكفوا عن الكلام . وكنت طيلة الوقت أمتع ناظرى بطلعة فتاى ، الذى لم يلبث أن طوق جيدى بذراعيه ، وتمتم بكلمات فى لهجة يشوبها الغرور والغطرسة . **ولست أذكر ماقال، ولكنه كان حديثا يعنى أنه سيحبنى لاننى أطلقت سراحه .. وركع أمامى هاتفا وهو يبتسم : « يامليكتى ! » . ولكن نفاقه وزيفه أثارا نفسى ، فلم أتمالك أن ركلته بقدمى ، وكدت أصفعه لولا أن وثب مستويا على قدميه ، وتصدى لى متجهم الوجه شاحب اللون .**

وما زلت أذكر مدى الضيق والملل اللذين غشيانى ، فصحت فيه وفى زملائه : « اذهبوا ! » . فقال الكلاب : « وهل نتركك لتعودى فترشديهم الى الطريق التى سلكناها ؟ » .. هكذا ألهمتهم عقولهم الحيوانية ! على أنهم مالبثوا أن انطلقوا مبتعدين

« وأدركت بعد هذه المغامرة أن الوقت قد حان لكى أستقر فى مكان ما ، فان حياة التنقل لم تعد تلائمنى ، اذ ثقل جسمى ، ووهنت قواى ، وخبا جمالى .. أجل ، فلقد اكتهلت !.. ومن ثم عدت الى (دوبروجا) حيث أقيم منذ ثلاثين عاما وقد تزوجت ، ولكن زوجى مات ، بينما ظللت على قيد الحياة. ولكنى لست وحيدة .. فان هناك من يؤنسنى »

وأشارت العجوز الى الامواج التى كانت قد عادت الى السكون ، وقالت : **« انها تحبنى ، وانى لاروى لها قصصا كثيرة !.. انها دائمة الشباب ، ولذلك أشعر بالغبطة حين أكون معها .. وكثيرا ما أحدق فيها وأقول لنفسى : لقد مر بى زمن كنت فيه شابة مثلها ، ولكن الناس فى أيامى كانوا أقوياء ، مشبوبى العواطف ، مما كان يجعل الحياة أكثر بهجة وقيمة !»**

ثم أخلدت الى السكون، وقد أحنت رأسها على صدرها ، وسرعان ما أخذتها سنة من النوم . وخيمت على البحر سحابة كثيفة ، معتمة ، بدت وهى تزحف نحو البر كأنها سلسلة من الجبال . ثم انفصل جزء من أطرافها وانطلق يحجب النجوم واحدة بعد أخرى .. وانبعثت من البحر همهمة كأنها قبلات تتخلل همسات ما ، فندت من احدى الكروم زفرة . وامتلأ الهواء بعبير غريب مثير للخياشيم والاعصاب ، وأخذت الظلال التى ألقتها السحب على الارض تزحف ، وهى تزداد ثقلا فى بعض الاحيان ، وتخف وتبهت فى أحيان أخرى . ولم يبق من القمر سوى قرص شاحب ، مهتز المعالم .. وكانت ثمة أضواء زرقاء كأنها الشرر ، تنبثق عند حافة الافق ، ثم تعتم وتنخفض، لتعود الى التألق والارتفاع ، وكأنما كان ثمة قوم يهيمون بحثا عن شىء ما ، على أنوار أعواد الثقاب !

* * *

. **وما** لبثت ايزرجيل أن سألتنى : « أترى أى وميض هناك ؟ » . فلما رددت بالايجاب ، قالت : « اذن فهى لا تزال تظهر ، وان أصبح بصرى كليلا عن تبينها .. انها تنبعث من قلب « دانكو » !.. سأروى لك القصة ، فهى جد قديمة . أفرأيت كم من أمور بديعة كانت تجرى فى غابر الازمان ! .. **أما اليوم ، فليس هناك شىء من محاسن الماضى . لماذا ؟.. ليس بوسعك أن تجيب ! ماذا تعرفون ياأبناء هذه الايام ؟.. لو أنكم نبشتم الماضى لوجدتم جوابا لكافة معميات الحياة وألغازها .. اننى رغم ضعف بصرى أرى الناس يقضون أعمارهم فى التأهب للحياة ، وليس فى الاقبال على الاستمتاع بها .. فاذا ما بددوا الوقت فى التأهب ، ولحقهم الكبر ، راحوا يلومون القدر ! »**

وسكتت برهة لتفكر ، فأخذت أرتقب فى صمت . وما لبثت أن شرعت تروى لى القصة

(٣) قلب البطل

• « **حدث** فى زمن سحيق ، أن كان ثمة قوم يعيشون فى مكان تحف به من ثلاث جهات غابات لا سبيل الى اجتيازها ، بينما كانت تحده – فى الجانب الرابع – سهول فسيحة .. وكانوا قوما من الشجعان ، الاقوياء ، المرحين ، بيد أنهم فوجئوا بأوقات عصيبة ، تعرضوا فيها لحملات عشائر أخرى اضطرتهم لان يتوغلوا فى جوف الغاب ، حيث كانت المستنقعات تملأ الارض ، والاشجار الكثيفة المتشابكة الاغصان تحجب الشمس والنور والسماء . وكانت الابخرة السامة تتصاعد من المستنقعات أينما ذهب هؤلاء القوم ، فاعتلت صحتهم ، وأخذ الموت يحصدهم ، وبات حتما عليهم أن يفارقوا الغابة ، لينجوا بأعمارهم !.. ولكن أعداءهم العتاة كانوا يتربصون لهم عند نهاية الطريق المفضية الى السهول .. **فلم يعد أمامهم سوى أن يضربوا فى الغابة ليجتازوها ، ولكن الاشجار الضخمة كانت تعترض سبيلهم ، كما كانت الاغصان المتعانقة المتشابكة تسد عليهم المنافذ . وهكذا كان هؤلاء القوم ، الذين جبلوا على الحرية فى السهول ، يجدون أنفسهم محوطين بأشجار كأنها جدران شاهقة ، أو كأنها أشباح عملاقة تتحفز لتسحقهم !..** وكانت الريح هى أفظع الفظائع ، فاذا ما ثارت ، راحت تعول بين قمم الاشجار ، فتردد الغابة بأسرها فى آذان القوم أناشيد رهيبة !

« على أنهم كانوا قوما شجعانا كما ذكرت ، لم يحجموا عن منازلة أولئك القوم الذين هزموهم الا اشفاقا من أن تدور عليهم الدائرة فتنقرض سلالتهم وتذهب معها مثلهم العليا التى كانوا يعتزون بها . ومن ثم راحوا يقضون الليالى فى تدبر أمرهم ، والغازات السامة تتصاعد فتحف بهم من كل جانب ، والغابة لاتكف عن ترديد عويلها الرهيب ، وظلال الاشجار تتراقص

حولهم – مع لهب النار التى كانوا يوقدونها – متحفزة للانقضاض عليهم ، وكأنها أرواح شريرة تحتفل بانتصارها !.. **ولا يرهق الرجال ويسلمهم الى اليأس شىء قدر الافكار القاتمة ! لذلك أخذ الرجال يضعفون ، واستبدت بهم الهموم ، وغزا الخوف قلوبهم ، ففت فى قوى سواعدهم ، وأخذ الفزع ينهش نفوسهم وهم ينصتون الى نحيب نسائهم وهن يندبن موتى القبيلة ، أو يتحسرن لما أصبح القوم فيه من يأس وخوف** . وما لبثت أن انبعثت بينهم كلمات قيلت فى البداية بجبن وخفوت ، ثم أخذت ترتفع رويدا ، فاذا القوم يفكرون فى أن يعـودوا الى أعدائهم فيسلمونهم حريتهم فى سبيل حياتهم .. اذ اشتد بهم الخوف من الموت ، حتى لم يعودوا يحجمون عن أن يروضوا أنفسهم على العيش عبيدا !

« وفى تلك اللحظة ، ظهر دانكو ، فأنقذهم من ذلك المصير التعس ! »

* * *

• **وصمتت** العجوز برهـة ، ثم عادت تقول بصـوتها الشبيه بقرقعة العظام ، والذى أوحى الى اذ ذاك بأننى أتسمع أصوات الغابة الرهيبة التى كان أولئك البؤسـاء يضربون فى جوفها متهالكين فى قبضة الموت :

« كان دانكو واحدا منهم .. شابا ، وسيما . وأصحاب الوسامة غالبا ما يكونون مقدامين . فقد صاح دانكو فى رفاقه : **« ان الصخور لاتتزحزح بالتفكير ، والذى لايعمـل لايمكن أن يجنى ، فلماذا نبدد قوانا فى التفـكير والاسى ؟ .. هبوا ، ولنمض فى الغابة حتى ننفـذ من طرفها الآخر ! »** .. وتطلعوا اليه ، فتبينوا انه خير رجل فيهم ، اذ كانت عيناه تومضان بالحياة والقوة ، ومن ثم سألوه أن يتولى قيادتهم ، ففعل »

وأمسكت المرأة عن الكلام ، وراحت تحملق فى الفضاء الذى

كان يزداد ظلمة . وكان الشرر المنبعث من قلب « دانكو » ينبثق على البعد متألقا كزهور من الاثير الازرق ، تتفتح لحظة ، ثم تذبل !.. وعادت العجوز تقول :

« وقادهم دانكو ، فتبعوه طائعين لانهم آمنوا به . وكانت الطريق شاقة ، مظلمة ، تربض فى كل خطوة منها حمأة تبتلع الناس .. والاشجار العاتية تسد السبل ، وأغصانها المتشابكة وجذورها كالافاعى تمتد فى كل اتجاه .. كانت كل خطوة تكبد القوم عرقا ودما !

« وظلوا فى سيرهم زمنا طويلا ، والغابة تزداد تكاثفا ، وأجسادهم تزداد وهنا ، فما لبثوا أن بدأوا يتذمرون من « دانكو » قائلين انه كان شابا ، قليل التجربة .. ولكنه ظل يتقدم على رأسهم ، دون أن يعتور روحه أى وهن ، ودون أن يعكر صفاء ذهنه شىء !.. الى أن هبت على الغابة عاصفة ، فتهامست الاشجار فى وعيد . وفجأة ، اشتد الظلام وكأنما تجمعت حولهم كل الليالى التى مرت منذ خلقت الغابة ! وكان القوم يسيرون تحت الاشجار العملاقة العاتية التى راحت تهمهم بأغنية رهيبة .. ولمع البرق فوق هامات الشجر ، مرسلا وميضه الازرق البارد للحظات قصار ، مما بعث فى قلوب القوم ذعرا قاتلا .. كانت الاشجار تبدو تحت ومضات البرق وكأنها مخلوقات حية ، تمد أذرعا ملتوية لتنسج منها شبكة تصيد بها أولئك الذين كانوا ينشدون الفرار من الظلام . وخيل اليهم أن شيئا معتما ، رهيبا ، فظيعا ، كان يطل عليهم من خلال الافنان !

« .. كانت الطريق شاقة ، وقد تعب القوم وفقدوا تحمسهم ، ولكنهم خجلوا من أن يقروا بتخاذلهم وضعفهم ، فأخذوا يصبون سخطهم وغيظهم على « دانكو » الذى كان يسير على رأسهم .. وبدأوا يتهمونه بالعجز عن قيادتهم !.. وما لبثوا أن توقفوا عن السير . وشرعوا يحملون عليه فى الظلام ،

ووسط زئير العاصفة ، وقد أضناهم التعب واشـــتد بهم السخط ، فقالوا له : « انك خسيس مهين ، لم تجلب لناسوى الهم .. لقد أضنيتنا اذ قدتنا الى هنا ، فوجب أن تموت لقاء هذا ! » .. فصاح دانكو : « **لقد قلتم : قدنا ، فقدتكم . ولولا انني أوتيت اقداما وجرأة ماتوليت قيادتكم .. أما أنتم ، فماذا فعلتم لتنقذوا أنفسكم ؟ .. انكم لم تفعلوا أكثر من أن تبعتمونى، دون أن تحشدوا قواكم للرحلة الكبرى .. لم تفعلوا أكثر من أن سرتم ورائى كقطيع من الغنم ! »**

« ولم تزدهم كلماته الا حنقا ، فصرخوا : « لسوف تموت ! » .. ورددت الغابة صراخهم فى زمجرة هادرة ، وشق البرق كبد الظلام ، فحملق « دانكو » فى أولئك الذين تكبد من أجلهم كل ماتكبد من عناء ، ولكنه لم ير فيهم الا وحوشا ضارية ، تكاثرت حوله وليست فى وجوهها بارقة من طباع البشر ، فأيقن أنه لن يلقى منهم رحمة ما . **وثار الغضب فى صدره ، ولكن الاسى أخمده .. فلقد كان يحب أولئك القوم ، وكان يخشى أن يهلكوا بغيره . واندلعت فى صدره نيران الرغبة الجامحة فى أن ينقذهم ويقودهم الى طريق الامان ، فانعكس بريق هــذه النيران الجبارة فى عينيه .** وما أن رأى القوم هذا البريق ، حتى ظنوا أنهم أثاروا هياجه فكشروا عن أنيابهم كالذئاب ، وتلاصقوا لينقضوا عليه فيقتلوه ..

« وشعر بما كانوا يبيتون ، فلم تزدد نيران قلبه الا ضراما ، لان نواياهم ضاعفت وقود الاسى الذى كان يغذى نيران رغبته النبيلة ! »

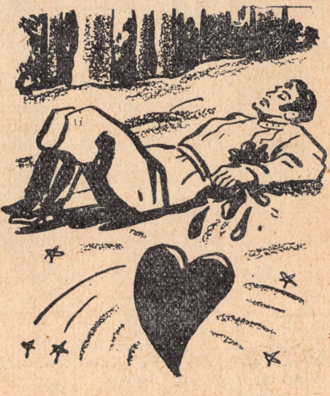
* * *

. **وواصلت** العجوز روايتها قائلة : « ومضت الغابة فى نشيدها المكتئب ، والرعد فى هزيمه ، والمطر فى تدفقه . . وصاح دانكو بصوت طغى على قصف الرعـد : « ما الذى بقى أمامى لانقاذ هؤلاء القوم ؟ » .. **وفجأة ، شق صدره ، وانتزع قلبه**

فرفعه عاليا فوق رأسه ، فاذا به يتألق كالشمس .. بل كان أكثر من الشمس ضياء !.. وهدأت الغابة أمام هذه الشعلة.. شعلة الحب العظيم لبنى البشر .. وتراجع الظلام ثم توارى مرتجفا !.. وجمد القوم مبهوتين وكأنما استحالوا أصناما ، فصاح فيهم دانكو وهو يندفع الى الامام ، رافعا قلبه المشتعل فوق رأسه ليضىء لهم الطريق : « اتبعونى ! » .. فتبعوه وكأنهم منساقون لسحر طاغ !

« وعادت الغابة تدمدم وتهز رؤوس الاشجار فى عجب ، ولكن وقع الاقدام المسرعة طغى على تلك الدمدمة ، اذ أخذ القوم يركضون قدما فى جرأة وخفة وقد استحثتهم رؤية القلب المتأجج . وهلك منهم فى السعى نفر ، ولكن أحدا لم يحزن عليهم أو يتمرد لهلاكهم .. كل هذا ودانكو ماض فى الطليعة ، وقد أخذ قلبه يزداد تأججا !

« وما لبثت الغابة أن أخذت تنفرج أمامهم شيئا فشيئا لتفسح لهم منفذا ، حتى اذا اجتازوه عادت الى انطباقها كأنها جدار أصم .. واندفع دانكو وأتباعه أخيرا الى بحر من ضوء الشمس والهواء الصافى الذى طهره المطر ! .. كانت العاصفة قد مكثت خلفهم فوق الغابة ، بينما أشرقت الشمس أمامهم على السهول التى كانت تنبض بالحياة!..وكان العشب مثقلا بلآلىء المطر ، والنهر موشى بضياء الذهب . حتى اذا حل المساء ، صبغت الشمس الآفلة سطح النهر بحمرة قانية كأنها



الدم المتدفق دافئا من الجرح الذى شق صدر دانكو !

((وسرح دانكو الشجاح بصره فى السهول المترامية الاطراف .. وفاض الحبور من عينيه وهو يرى أرض الحرية ، وضحك مزهوا فخورا ، ثم هوى صريعا !.. وألهى الفرح رفاقه عن أن يتبينوا أنه مات ، وان قلبه الجرىء كان لايزال متأججا الى جوار جسده الميت . ولكن مخلوقا متخاذلا منهم لمحه ، فداخله خوف لم يدر كنهه ، وداس القلب المشتعل ، فاذا الشرر يتطاير منه ويحلق فى الافق .. وأصبح هذا الشرر الازرق يرى دائما فى السهول قبيل العاصفة !))

وصمتت المرأة العجوز ، فسكنت السهول وكأنها خشعت أمام قوة ((دانكو)) الشجاع الذى أوقد قلبه ليضىء لقومه طريق الحرية والخلاص ، ومات دون أن ينشد جزاء ما !

عندما ترفع الستار..



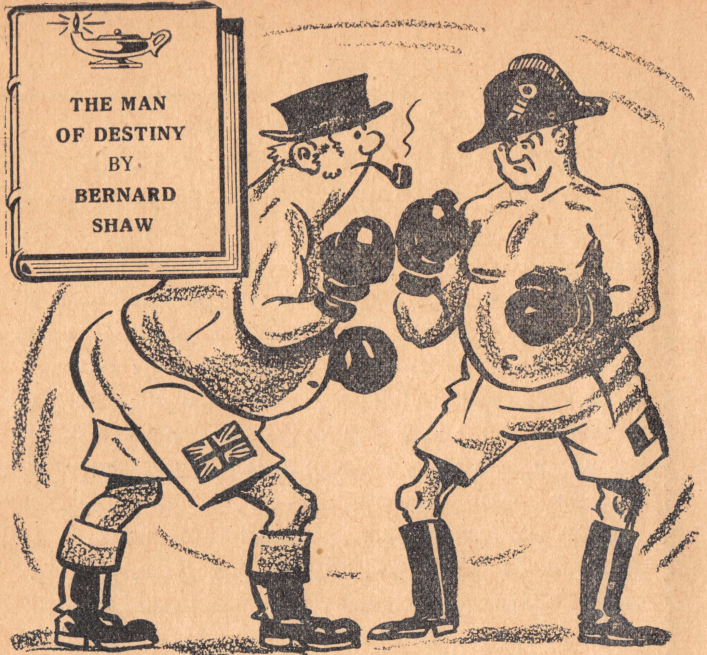
روائع المسرح العالمي (التمثيلي.. والغنائي)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

• خطايا الحب : لاوسكار وايلد • نزاهة الحكم : جوجول • سلاح المرأة : أريستوفان • فولبون : بن جونسون • جيوكندا : دانونزيو • كلام الناس : جوزيه اشيجاراى • مدرسة الفضائح : شيريدان • سيرانو دى برجراك : روستان • لعبة الحب والموت : رومان رولان • مروحة الليدى وندرمير : وايلد • فاوست : جيته • أوديب الملك : سوفوكل • فى سبيل الحب : جون درايدن • وليم تل : شيللر • الام : مكسيم جوركي • الملك يلهو : فيكتور هوجو • الجنس الآلى : كاريل كابيك • الابن الاكبر : جالسورثى • هرنانى : فيكتور هوجو • ترويض النمرة : شكسبير • الحياة نفاق : لويجى بيراندللو • أغلال الحب : ستيف باسير • المنافق (طرطوف) : موليير • بيت الليل : تييرى مونييه • علموهم الحب : روجيه فردينان • زوج مثالي : اوسكار وايلد • سالومى : أوسكار وايلد • مدرسة الارامل : جان كوكتو • برهان الحب : جان انوى • لوسيد : بيير كورنى • كيف نقع فى حبائلهن : بروفانس • أحزان هان • حلاق اشبيلية • تشيترا • كاليجولا • لوسيد

واليوم أقدم لك تحفة رائعة للفيلسوف الساخر برناردشو



رجل الأقدار!

المسرحية التي وضعها "جورج برنارد شو" وسخر فيها من الانجليز والفرنسيين!

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

برنارد شو .. ((الخارج)) على بلده وأهله !

• لم يوفق كاتب فى التاريخ الى وصف الانجليز وأخلاقهم قدر ما وفق الفيلسوف الساخر ((جورج برنارد شو)) ، ولعله ما كان يجد الجرأة على أن يصارح الانجليز - وهو يعيش بينهم وينتمى اليهم ويتربع على عرش الادب لديهم - بعيوبهم المخزية ، لو لم تكن الدماء الايرلندية الحرة تجرى فى عروقه . وكم تعرض لحملات مقذعة فى هذا الصدد ، ولكن هذه الحملات لم تزد الانجليز أنفسهم الا اقبالا على انتاجه ، واعتزازا بأدبه .. وكان لا يفتأ يقول : ((لست أحفل بغير الحقائق الواقعية القائمة .. ان المثالية ليست سوى اسم من الاسماء البراقة التى تخلع على الخيال فى مضمارى السياسة والاخلاق ، فأنا لا أقنع بالمبادىء الخلقية الوهمية ، ولا أخلع حسنا زائفا على اللصوصية والجوع والمرض والجريمة والخمر والحرب والقسوة ، وغيرها من المعالم العامة للحضارة .. تلك المعالم التى تدفع الناس الى المسرح ينشدون فيه خداعا زائفا أحمق ، يصور لهم تلك الاشياء الواقعية فى ثياب التقدم والعلم والاخلاق والدين والوطنية والتفوق الاستعمارى والعظمة القومية ، وما الى ذلك من أسماء تبتدع لاخفاء الواقع)) !

والمسرحية التالية ليست تمثيلية بالمعنى المفهوم ، وانما هى مسرحية للقراءة ، كتبها شو ((فى لحظة من لحظات الخمول ، فى سنة ١٨٩٥)) كما قال ، ليعرض فيها آراء صريحة جريئة فى الفرنسيين والانجليز والحروب والاستعمار .. ولا جدال فى أن شو لو كان حيا الآن ، لكتب أبدع تحفة على الاطلاق ، فى وصف التحالف الفرنسى الانجليزى الذى مثل فى بور سعيد أبشع مسرحيات الوحشية !

• **نحن** فى اليوم الثانى عشر من مايو سنة ١٧٩٦ .. فى قرية (تافاتسانو) على الطريق بين (لودى) و (ميلان) فى شمال ايطاليا .. والنهار قد تجاوز منتصفه ، وأطلت الشمس

على سهول (لمباردى) وهى تتلظى ، فراحت ترمق جبال الالب فى احترام ، وترنو الى قرى النمـــل ، غير مشمئزة لنعـاس « الحلاليف » فى القرى ، ولا مستاءة لما كانت تستقبل به من فتور فى الكنائس ! .. **ولكنها أخـذت ترمق فى ازدراء طاغ جحـــافل ضمت أسراب حشرتين شريرتين .. أو بالاحرى جيوش الفرنسيين والنمسويين ! ..** فلقد حاول النمسويون قبل ذلك بيومين أن يمنعوا الفرنسيين من أن يعبروا النهرعلى الجسر الضيق القائم عند (لودى) ، غير أن الفرنسيين ـ بقيادة ضابط فى السابعـــة والعشرين يدعى « نابليون بونابرت » ، لايحترم قواعد الحرب ! ـ اقتحموا الجسر تحت وابل النيران، مستعينين بمدفعية ضخمة ساهم فيها القائد الشاب بيديه .. فقد كانت المدفعية فنه الذى تخصص فيه . **اذ تدرب عـلى المدفعية فى العهد القديم ـ فى فرنسا ـ وبلغ الكمال فى الفنون العسكرية .. فنون التكاسل عن واجباته ، وغش « الصراف » بشأن نفقات السفر والانتقال ، وتقدير الحرب بكمية هـدير المدافع ودخانها !**

وكان لهذا الضابط الشاب جلد غير عادى على العمـــل ، وادراك واقعى لطبيعة البشر فى المسائل العامة .. ثم انه كان واسع الخيال ، ولكنه لم يكن يبنى خياله على أوهام . كما كان مبدعا ، ولكن بلا عقيدة ، ولا ولاء ، ولا وطنية ، ولا أى مبدأ من المبادىء العامة !.. ولم يكن ذلك نتيجة عجز عن استيعاب تلك المبادىء ، بل انه ـ على العكس ـ كان قد استوعبها كلها فى صغره ، وأصبح ـ بفضل ما أوتى من موهبة تمثيلية مرهفة ـ قادرا على أن يستغلها ببراعة الممثل ومهارة المخرج المسرحى !

ولقد علمه الفقر ، وسوء الحظ ، والاخفاق المتكرر فى أن يصبح مؤلفا ، وهوان الزجر والصفعـات كموظف صـغير ، والتأنيب والعقاب كضابط لا يبارى فى عدم الامانة .. كل هذه اكتسحت الغرور من نفسه ، واضطرته الى أن يدرك أن الدنيا

لا تعطى أمثاله شيئا مالم ينتزعوه هم بالقوة . فالدنيــا ــ فى هذه الناحية ــ لاتخلو من جبن وطيش ! .. ومن ثم فان نابليون ــ كمدفعى يهاجم العبث السياسى بلا رحمة ــ جعل نفســه ذا نفع .. فالواقع أن من المستحيل على انجلترا أن تعيش ــ حتى فى الوقت الحاضر ــ دون أن تفــكر من آن الى آخر فى مدى الخسارة التى منيت بهــا لانها حرمت من أن يهزمها هذا الرجل ! !

* * *

• **على** أنه ــ فى ذلك اليوم من أيام مايو سنة ١٧٩٦ ــ كان الضابط الشاب حديث عهد بالترقية الى مرتبة «الجنرال» التى حصل عليها باستخدام زوجته فى اغواء المديرين ــ الذين كانوا يرأسون الحكومة الفرنسية اذ ذاك ــ وبفضل ندرة الضباط فى فرنسا ، بسبب هجرتهم الى الخارج عند قيام الثورة !.. على أن الفضل الاكبر لترقيته كان يرجع ــ لدرجة كبيرة ــ الى ايمانه الجديد بقيمة اطلاق المدافع على الناس !.. وكان جيشه ــ من حيث الفوضى ــ خليقا بأن يذهل بعض الكتاب المعاصرين الذين ينظرون الى نابليون تحت أضواء مجد « الامبراطور » التى أحاطت به فيما بعد . على أن نابليون لم يكن قد أصبح امبراطورا ، بل كان يحاول أن يفرض نفوذه على جنوده بمــا كان يعرضه عليهم من تظاهر بالشدة . ولكنه لم يكن قد غدا بعد فى منصب يستطيع أن يفرض منه ارادته عليهم بالاســلوب العســكرى .. بالجلد بالســوط ذى التسع شعب ! وكانت الثورة الفرنسية قد أبدلت عادة الملكية ــ فى تأخير دفع مرتبات الجند أربع سنوات ــ بعادة جديدة هى عدم الدفع على الاطلاق ، اللهم الا بالوعود والمجاملات الوطنية !.. ومن ثم سعى نابليون الى جبال « الالب » على رأس رجال مفلسين ، مهلهلى الثياب ، فهم لذلك لم يكونوا مستعدين لان يحتملوا كثيرا من النظام ،

لاسيما اذا كان الشخص الذى يفرضه عليهم جنرالا ناشئا !..
على أن نابليون وجد هذا الظرف أكثر نفعا من ألف مدفع ، اذ قال لجنوده: «ان لديكم الكثير من الوطنية والشجاعة، ولكنكم لاتملكون نقودا ، ولا ثيابا ، ولا ما تأكلونه تقريبا .. وفى ايطاليا كل هذه الاشياء ، الى جانب المجد . ومن الممكن أن يجنيها جيش مخلص يقوده جنرال يرى أن النهب حق طبيعى للجندى .. فالى الامام يا أبنائى ! »

وكانت النتيجة كافية لارضائه ، اذ اجتاح الجيش ايطاليا ، وراح الجنود يحاربون فى النهار ، ويسيرون فى الليل قاطعين مسافات لا تصدقها العقول ، ليظهروا فى أماكن لا يتصور أحد ظهورهم فيها .. وما كان ذلك لان كل جندى كان يطمع فى أن يغدو « ماريشالا » ، وانما لانه كان يأمل فى أن ينهب نصف « دستة » ـ على الاقل ـ من الملاعق الفضية ، فى اليوم التالى !

وجدير بالذكر أن الجيش الفرنسي لم يكن فى حرب مع الايطاليين ، بل أنه ذهب ليخلصهم من ربقة النمسويين ، وينعم عليهم بنظم الجمهورية الفرنسية .. ولهذا فان أعمال النهب لم تكن تعتبر أكثر من استباحة لمتاع الاصدقاء ، فخليق بالاصدقاء أن يتقبلوا هذا التنازل شاكرين !! .. وهكذا كان نابليون قادرا على أن يمضى مظفرا ـ بوجه عام ـ دون أن يقوم بالمعجزات ، لا سيما وأنه كان متحررا من التقاليد العسكرية ، لا يعبأ بأوامر باريس ، فى حين أن غريمه « بوليو » ـ القائد النمسوى ـ كان مقيدا بسياسة رجال الحكم فى النمسا ، وبالفنون العسكرية التقليدية العريقة ، وبعادات المجتمع الارستقراطى فى (فيينا) !

وكانت هذه الانتصارات خليقة بأن تصنع من نابليون ـ فيما بعد ـ امبراطورا .. كما كان رواء هذا المنصب خليقا بأن يجعل مهمة الروائى مهمة صعبة ، وهو يسجل هذا المنظر الذى جرى فى (تافاتسانو) ، فى مرحلة مبكرة قبل أن يصبح نابليون امبراطورا !

***

• **كان** خير مأوى فى (تافاتسانو) يتمثل فى فندق صغير ، هو أول ما يصادفه المسافر فى الطريق بين (ميلان) و (لودى) . وكان هذا الفندق يقوم وسط الكروم التى كانت تصلها بالقاعة الكبرى فيه شرفة واسعة .. وكان أطفال القرية ـ الذين أثارتهم ظروف الحرب ودخول الفرنسيين قريتهم فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ـ موزعين بين الخوف والفضول .. الفضول الذى راح يغريهم بمحاولة استراق النظر الى نابليون خلال نوافذ القاعة الكبرى ، والخوف من الجندى الحارس الذى كان يقف بباب القاعة ، والذى لم يؤت شاربين حقيقيين ، فرسم على وجهه شاربين بدهان حذاء « الجاويش » الذى كان رئيسا له .. ولكن الحر ، وثقل الزى العسكرى ، أذابا طلاء الشاربين وجعله يسيل خطوطا رفيعة انحدرت على ذقنه وعنقه ، وجعلت شكله سخيفا ـ فى عين التاريخ بعد مائة سنة ! ـ ورهيبا فى أعين الاطفال الايطاليين اذ ذاك .. فكأنه غول لن يلبث أن يغرس « سونكى » بندقيته فى أحدهم ، ثم يرفعه ليلتهمه !

وكان صاحب الفندق ـ جيسيبى جراندى ـ رجلا بشوشا ، فى الاربعين من عمره ، فطر على أن يكون مضيفا رائعا ، لاسيما وانه كان فى أوج الغبطة فى ذلك المساء ، اذ أن نزول القائد فى فندقه كان خليقا بأن يحميه من عبث الجنود !.. **وكان نابليون يلتهم الطعام الشهى الذى قدمه اليه « جيسيبى » وهو منكب على الخريطة . وما لبث أن طلب من الفندقى مدادا أحمر ، فلما لم يجد ، أمره بأن يذبح شيئا ويأتيه بدمه .. وأردف : « اقتل زوجتك ! »**

جيسيبى : حبا وكرامة ياصاحب السعادة ، ولكنى لسوء الحظ لست قويا .. انها خليقة بأن تقتلنى !

نابليون : سيان عندى أن تقتلها أنت أو تقتلك هى !

ويفرغ نابليون من الاكل ، فينهض ويسير الى المدفأة ، بينما يقول جيسيبى : « يقولون انك تعنى بكل شىء عدا الحياة الانسانية ! »

نابليون : ان الحياة الانسانية هى الشىء الوحيد الذى يعنى بنفسه !

جيسيبى : ما أغبانا بجانبك ياصاحب السعادة ؟ .. الواقع اننى سأسعد اذ أرقبك حتى تصبح امبراطورا لاوربا !

نابليون : امبراطور أوربا ؟ .. ولماذا أوربا فقط ؟ !

جيسيبى : صحيح .. امبراطور الدنيا ، لم لا ؟ .. الرجال سواء ، وكل بلد كالآخر .. وكل معركة كالاخرى .. اهزم بلدا تهزم الكل !

نابليون : وتحكم الكل ، وتحارب فى سبيل الكل ، وتصبح خادم كل امرىء تحت ستار السيادة على كل امرىء ! .. اننى أمنعك من أن تتكلم عنى !

فيتحول صاحب الفندق ويحدثه عن النزيلة الوحيدة فى فندقه .. سيدة فى الثلاثين من عمرها ، بديعة الحسن . ويقترح جيسيبى أن يستدرجها الى مائدة القائد ، ولكن نابليون يبدو قلقا ، مشغول البال . فقد كان ينتظر رسولا يحمل اليه أوراقا هامة . ولكنه لايلبث أن يسمع صوت السيدة وهى تنادى « جيسيبى » فيسأله عنها

جيسيبى : لقد وصلت الى هنا قبيل وصول سعادتكم ، فى عربة من عربات فندق النسر الذهبى فى (بورجيتو) .. وهى وحيدة ، لا تصطحب سوى حقيبتى ثياب .. وقد قال الحوذى انها تركت جوادا فى « النسر الذهبى » .. جوادحرب ، بسرج عسكرى !

ويعجب نابليون ، حتى اذا سمع من الرجل أنها فرنسية ، خطر له أن الجواد ولا بد كان لزوجها ، وان هذا الزوج قد قتل فى المعركة . وفى تلك الاثناء يصل الرسول الذى كان يرتقبه

نابليون .. **فاذا هو ملازم شاب طويل القامة ، معتد بنفسه ، عديم الخوف ، عديم الاحترام ، عديم الخيال ، عديم الادراك . ويقتحم القاعة ، فما أن يرى نابليون ، حتى يؤخذ ، ثم يحييه ، ولكنه لا ينم بمسلكه عن أى توقير !** .. ويسأله نابليون عن سر تأخره مائة دقيقة عن الموعد الذى حدده له كى ينتظره فى تلك القرية ، كما يسأله عن جواده

الملازم (يخلع قفازيه فيلقى بهما مع قلنسوته على المائدة وهو واجم) : آه ، أين جوادى حقا ؟.. هذا عين ما أريد أن أعرفه !

نابليون (فى سخرية غاضبة) : حقا ؟ .. وأين الرسائل؟

الملازم : لست أدرى عنها أكثر مما تدرى أنت ياجنرال!.. أحسبنى الآن سأقدم الى محكمة عسكرية ؟.. لست أحفل ، ولكن .. **أؤكد لك ياجنرال اننى لو رأيت ذلك الشاب البرىء المظهر ، فسوف أشوه جماله .. ذلك الكذاب المشوق القوام !**

نابليون : أى شاب برىء المظهر ؟.. اعتدل ، وادل بحديثك!

ويفهم من حديث الضابط انه التقى بشاب مليح ، ساذج المظهر ، زعم له أن عينيه تشبهان عينى أخته الوحيدة ، كما بكى حين سمع الضابط يتحدث عن الحبيبة التى فارقها .. واستطرد قائلا : « **وأسلمنى سلاحه وحصانه ورسائله — وهى جد مهمة — وتركنى أرحل بها كلها ليؤكد ثقته بى طبعا .. وكنت أهلا للثقة ، فأعدتها اليه بأمانة ، ولكن .. هل تتصور أنه غدر بى حين ائتمنته على سلاحى وجوادى ورسائلى لأؤكد ثقتى فيه .. فلم يعد ! اللص ، الغشاش ، الخائن الذى لا قلب له !) »**

وينادى نابليون صاحب الفندق فى غضب ، ويصيح به وهو يغالب طباعه : « خذ هذا .. هذا الضابط ، فقدم له غذاء ، وأسلمه للفراش اذا وجدت ضرورة .. وعندما يعود اليه عقله ، اعرف منه ما حدث له ثم احضره الى هنا ! » . ويلتفت

الى الضابط فينبئه بأنه فى حكم المعتقل رهن التحقيق . فيلقى هذا يده على سيفه ، وهو ماض فى حديثه عن غريمه : « لقد قال لى انه لم يلتق قط برجل مثلى .. ووضع منديله حول رقبتى لان بعوضة لدغتنى !» . ويخرج الضابط منديلا معطرا ، فيقول جيسيبى لنابليون : « انه منديل نسوى ياصاحب السعادة » .. فيأخذ نابليون المنديل ويتأمله ، ويتشممه ، ثم يدسه فى صدر سترته !

الملازم : لقد لاحظت حين مس عنقى أن له يدى امرأة .. ذلك الكلب المخنث الوضيع !

وينبعث اذ ذاك صوت السيدة النزيلة وهى تنادى صاحب الفندق ، فيرهف الضابط سمعه ، ثم يندفع فيختطف سيفه ، ويستله من غمده ، ويمسك جيسيبى بذراعه قائلا : «ماذا تظن أيها الملازم ؟ .. انها سيدة .. ألا تسمع ؟ .. انه صوت سيدة » !

الملازم : بل هو صوته .. دعنى !

***

• **وتدخل** القاعة سيدة طويلة ، ذات بهاء غير عادى ، ووجه ناعم ينم عن ذكاء وتفكير وتساؤل .. وقسمات دقيقة ، وأنف تشى خياشيمه بحساسية مرهفة .. أما جسمها فمتين البنيان ، يفوق جسم كل من نابليون وصاحب الفندق ، ويكاد يعادل جسم الملازم .. وأما ثوبها فيكشف عن نحر غطى بقطعة من « التل » الاصفر .. **وما أن ترى الملازم ، حتى يمتقع وجهها ، بحيث ينم عن شعورها بخطر غير مرتقب .. ثم تتولاها فى اللحظة التالية موجة من الغضب .. ويصيح الملازم فى انتصار : « وهكذا عثرت عليك يافتاى .. اخلع هذا الثوب ! »**

وتستنجد السيدة بنابليون ، فيقول هذا للضابط : « لماذا تعامل السيدة بهذا الشكل ؟ »

الملازم : سيدة ؟ ! .. انه رجل .. الرجل الذى أكدت له ثقتى فيه !

وتقف السيدة خلف نابليون ممسكة بذراعه تضمه الى صدرها ، فيقول نابليون : « هراء ياسيدى .. من المؤكد انها سيدة (تفلت السيدة ذراعه وقد تضرج وجهها خجلا) . ثم انك معتقل ، فضع سيفك ! »

الملازم : أؤكد لك أنها جاسوس نمسوى .. لقد زعم لى بعد ظهر اليوم أنه من رجال الجنرال ماسينا،وهاهوذا يخدعك فيقنعك بأنه امرأة !

السيدة : لابد انه يعنى شقيقى ، فهو من رجال الجنرال ماسينا .. وهو جد شبيه بى !

ويضطر الضابط الى الخضوع لامر نابليون ، فيضع سيفه. بينما يقول نابليون للسيدة : « مع احترامى لاخيك ، فاننى لا أفقه حاجة ضابط من رجال الجنرال ماسينا الى رسائلى !»

ويخرج الملازم وهو يقول : « لقد أنذرتك ياجنرال ، خذ الحذر!» .. ثم يلتفت الى السيدة قائلا : «اعتذاراتى ياسيدتى .. ظننتك نفس الشخص الذى أنشده ، فليس يفرق بينكما سوى أنه من الجنس الآخر ! » .. وينحنى ليقبل يدها ، ولكنه يجفل مأخوذا ، ويروح يحملق فيهـا ، ثم يقول : « ان لك نفس يد شقيقك .. ونفس خاتمه ! » .. فتقول السيدة فى عطف : « اننا توأمان ! » .. ويتقبل الضابط هذا التبرير ، ويقبل اليـد الممدودة اليه ، ثم يخرج مغلقا الباب خلفه . واذ ذاك يتخلص نابليون من ارتباكه ، ويتحول الى السيدة باسطا يده ، قائلا : « الى برسائلى !.. هيا ! » . وتمد السيدة يديها الى صدرها تحميه بحركة غير ارادية !

نابليون : انك خدعت ذلك الغبي ، وتنكرت في زى رجل..

هات رسائلي !.. انها فى صدر ثوبك ، تحت يدك !

السيدة (تنحى يدها عن صدرها بسرعة) : ما أقسى حديثك لى .. (تخرج من صدر ثوبها منديلا وتمسح به عينيها وكأنها تجفف دمعة)

نابليون : أرى أنك لا تعرفينني ياسيدتى ، والا لجنبت نفسك عناء التظاهر بالبكاء

السيدة (تصطنع ابتسامة بين الدموع) : بل أعرفك .. انك الجنرال بونابرتو الشهير (تتعمد نطق اسمه بالايطالية ، فيغضب وينطقه بالفرنسية . ثم يفطن الى المنديل فينتزعه منها)

نابليون (وهو يخرج المنديل الآخر من صدر سترته) : لقد أعرت الضابط واحدا من مناديلك .. انهما متشابهان فى النوع ، وفى العطر (يلقى بهما على المائدة) انني فى انتظار رسائلى ، وسآخذها فى غير مجاملة اذا دعت الضرورة !

وتعمد السيدة الى اللطف ، والى التظاهر بضعف الانوثة ، فلما تخفق فى التأثير عليه ، تثور قائلة ان قلبها لم يعد يحتمل الرعب الذى تسببه نظراته ، وتستطرد قائلة : « أتظن كل انسان شجاعا مثلك ؟.. انني لست شجاعة ، بل انني أجفل من العنف .. ان الخطر يشقى نفسي ! »

نابليون (فى اغتباط) : فلماذا اذن زججت بنفسك فى الخطر ؟

السيدة : لانه لم تكن هناك حيلة أخرى . ولكن كل شىء قد فسد الآن ، لا لشىء الا لانك عديم الخوف ، عديم القلب ، عدم الشعور !

وتجثو أمامه ضارعة ، ولكنه يظل مصرا على أن يظفر برسائله . ويصمد أمام نظراتها وحيرتها دون أن يلين ، فتزعم السيدة أخيرا أن الرسائل فى حجرتها ، ولكنه لايؤخذ بحيلتها. وأخيرا تقول له : « **حسنا ، انما أريد أن أستبقي منها رسالة**

شخصية صغيرة !»

نابليون (فى فتور وصرامة) : أو هذا طلب معقول ؟

السيدة : وهل كل طلباتك معقولة ؟.. انك تسوق آلاف الارواح من أجل انتصاراتك ، ومطامعك ، ومصيرك !.. أما أنا ، المرأة الضعيفة ، فلست أطلب سوى شيء تافه !.. انك لا تعرف الخوف !

* * *

• **ويشعر** نابليون بأنه قد غلب ، فيجلس الى جوارهاعلى الاريكة .. وتنظر اليه فى خوف ، ولكن بريقا من الامل يومض فى عينيها ، فتتحول تطرى شجاعته أثناء القتال لعبور النهر فى (لودى) قبل يومين ، فيقول لها : « هبى أنك لم تجدى وسيلة للحصول على الخطاب الا بأن تسعى الى عبر الجسر الذى كنا نحارب للاستيلاء عليه .. هبى أن هذه كانت الوسيلة الوحيدة ، الاكيدة ، اذا استطعت أن تتفادى قنابل المدافع ، فهل كنت تشعرين بالخوف اذ ذاك ؟ »

السيدة : الى أبعد الحدود .. ولكنى كنت أمضى فى سبيل بغيتى ، لانه لا بد لى من الحصول على الخطاب !

نابليون : من أجل خطابى كنت تتحملين الخوف ؟ (ينهض فجأة ، ويتأهب للخطابة !) ليس هناك شعور يساور البشر جميعا على السواء ، سوى : الخوف !.. انه الشعور الوحيد الذى تجدينه بالتأكيد فى نفس أصغر قارع للطبل فى جيشى ، كما هو فى نفسى .. **ان الخوف هو الذى يدفع الناس الى القتال ، ولكن عدم المبالاة هى التى تدفعهم الى الفرار!.. ان الخوف هو الزر الذى يطلق الحرب من عقالها . الخوف ! اننى أعرفه أكثر مما تعرفينه أنت أو أية امرأة أخرى !..** هل منع الخوف يوما أى رجل من أن ينال ما يبغى .. أو أية امرأة ؟ مطلقا !.. تعالي معي ، وسوف أريك عشرين ألف جبان ،

يقتحمون الموت كل يوم لقـــاء أجر لا يزيد على ثمن كأس من البراندى !.. لا ، انني لا أهتم بخوفك أو شجاعتك !.. لو أنك اضطررت الى أن تسعى الى حين كنت فى (لودى) ، لما منعك الخوف ، فما أن تجدى نفسك على الجسر ، حتى يتبدد خوفك أمام الضرورة .. ضرورة الوصول الى جانبى والظفر ببغيتك . وهبى انك ظفرت بها بسلام ، وان خوفك لم يعد خوفا ، وانما صار قوة ، واقداما ، ودهاء ، وعزيمة حديدية .. فبماذا كنت تجيبين اذا سألك أحد عما اذا كنت جبانة ؟ »

السيدة : انك بطل .. بطل حقيقى !

نابليون : هراء !.. ليس هناك شىء اسمه بطل حقيقى !

السيدة : بل هناك فرق بين ماتسميه شجاعتى ، وشجاعتك .. لقد أردت أن تفوز بمعركة (لودى) لمصلحتك !

ويكاد نابليون ينزلق فى الفخ ، ولكنه يتدارك فيصيح : « لست سوى خادم الجمهورية الفرنسية الذى يقتفى فى تواضع خطى الابطال القدامى .. انما أكسب المعارك للانسانية ، ولوطنى لا لنفسى ! »

السيدة (فى استياء) : اذن فأنت لست سوى بطل نسوى .. مثلى !.. أفتظن اننى كنت أخوض معركة من أجل تلك الرسائل لو اننى كنت أريدها لنفسى ؟ .. لا ! .. ان جرأتى ليست سوى عبودية .. فأنا لا أستطيع الاقدام على خوض الاهوال الا بدافع الحب ، أو الاشفاق ، أو الرغبة فى أن أحمى أحدا سواى ! (يشيح نابليون عنها) .. فأنت ترى اننى لست شجاعة حقا . **ولكن .. بأى حق تزدرينى اذا كنت لا تكسب معاركك الا لسواك .. الا لوطنك ؟ .. هكذا هم الفرنسيون دائما !**

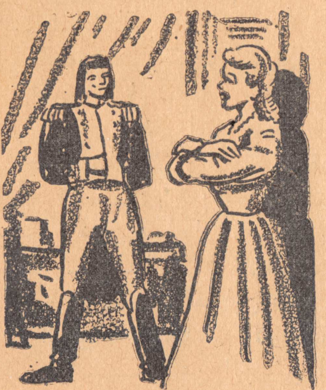
وينسى نابليون استياءه لانها كانت تنطق اسمه بالايطالية ، فينكر أنه فرنسى . وحين تراجعه المرأة يقول : « لقد ولدت فرنسى الجنسية ، ولكننى لم أولد فى فرنسا ! » . ثم يعود فيقول :

« على أننا ينبغى أن لانعيش لانفسنا ياصغيرتى ، بل يجب أن نفكر فى الغير ، وأن نعمل من أجل الغير ، وأن نقودهم ونحكمهم فى سبيل خيرهم ، فان انكار الذات هو أساس كل نبل حقيقى !»

السيدة (متنهدة) : آه ، من السهل أن أرى انك لم تحاوله قط ياجنرال !.. ألم تلاحظ أن الناس يبالغون دائما فى تضخيم قيمـة الشىء الذى لم يتأت لهم ؟.. فالفقـراء يظنون أنهم لا يحتاجون لغير الثراء حتى يصبحوا سعداء .. وكذلك يمجد كل امرىء الصدق ، والطهر ، وانكار الذات ، لانهم لم يحظوا بهذه الفضائل !.. لقد كان من سوء حظى أننى ولدت طيبة . فأنا صادقة ، غير أنانية حقا ، ولكن هذه الخلال كلها ليست الا جبنا ونقصا فى الشخصية .. (يلتفت اليها نابليون فى انتباه ، فتمضى فى حرارة مطردة) **ما سر قوتك ؟.. انه ليس سوى ايمانك بنفسك ! .. ففى وسعك أن تحارب وأن تنتصر من أجل نفسك ، وليس من أجل انسان آخر !.. انك لا تشعر بخوف أو قلق بشأن مصيرك ، فأنت تعلمنا ما يمكن أن نصير اليه اذا توفرت لنا الارادة والجرأة (تركع فجأة أمامه) ومن أجل هذا كله بدأنا نعبدك !.. لا تحرمنى من أن أقدم لك فروض الطاعة ، فلسوف تصبح امبراطور فرنسا !**

ويرتبك نابليون ، وينبهها الى أن فى قولها خيانة للوطن ، فتقول : « أجل ، امبراطور فرنسا ، ثم امبراطور أوربا .. وربما امبراطور العالم !» .. وتقبل يده ، فينهضها وقد اغرورقت عيناها انفعالا .. ويربت خدها متسائلا : « أفنصبح صديقين ؟ » ، فتبسط له يدها فى غبطة ، وهى تهتف : **« أفتدعنى أغـدو صديقتك ! أواه !.. لقد أكدت ثقتى بك ! »**

وتنبهه العبارة الاخيرة ، فيجفل ، ويتولاه الغضب ، ثم يهتف : « أكدت ثقتك بى ، لكى أؤكد بدورى ثقتى بك فأتركك تفلتين بالرسائل ! آه ، لقد جعلت من نفسى غبيا كبيرا مثـل ذلك الملازم .. هات الرسائل ، اسرعى ! » .. ولا تفلح معـه



حيلها، فيتأهب للانقضاض عليها، بينما تعقد هى ذراعيها على صدرها وتقف كالشهيدة. **ولكنه - بما طبع عليه من ولع بالاخراج المسرحى - لايمسها، بل يقف أمامها ، وقدعقديديه خلف ظهره ..ويفسدبذلك دور « الشهيدة » الذى أرادت أن تمثله !** .. ويقول أخيرا : « هبى اننى تركت نفسى تنصاع للاحترام الواجب نحو جنسك وجمالك وبطولتك وكل ما الى ذلك .. هبى اننى لا أجد سوى تلك العواطف تقف بين عضلاتى وبين تلك الاوراق التى أريدها ، ولا بد من أن أنالها .. هبى اننى قنعت بالانصراف صفر اليدين ، مع أن غايتى أصبحت فى قبضتى .. أفلا تزدريننى من أعماق أنوثتك ؟.. هل ترضى أية امرأة بأن تكون على هذه الحماقة ؟ .. ان بونابرت يستطيع أن يرتفع الى مستوى الموقف ، وأن يتصرف كما تتصرف أية امرأة عند اللزوم ! »

* * *

• **وتناوله** السيدة حزمة الرسائل أخيرا ، فيبادر الى فضها وهو يلاحظ أن خاتمها قد فض قبل ذلك ، ويشرع فى فحص محتوياتها . وتقول السيدة وهى تبدى استغراقا فى التفكير : « اننى آسفة من أجلك » . فيتطلع اليها وهو يهم بتناول أهم ورقة فى الحزمة ، ويسألها عن سبب الاسف ، فتقول : **« اننى لا أقوى على أن أراك تفقد شرفك .. وسعادتك! »**

نابليون : أفتظنينني كنت أصبح فيما أنا فيه لو أنني حفلت بالسعادة ؟

السيدة : ولكنك ستبدو مغفلا فى أعين أبناء فرنسا !

نابليون (فى عجلة) : ماذا ؟ (تكف يداه عن فض الاوراق) ماذا تعنين ؟ .. أهي حيلة جديدة ؟ أفتظنين اننى لا أعرف ماتحويه هذه الاوراق ؟ .. ان فيها — أولا — أنباءعن تقهقر القائد النمسوى « بوليو » .. وما أراك الا جاسوسة أرسلك لتحولى دون وصول الانباء الى بأى ثمن ، وكأنما هذا سينقذه منى ! .. أما الاوراق الاخرى ، فليست سوى رسائل خاصة بى من باريس ، لاتعرفين عنها شيئا !

السيدة : لنقتسم الاوراق .. خذ البيانات التى جمعها لك جواسيسك عن الجيش النمسوى ، واترك لى رسائل باريس .. ان شرفى يمنعنى من أن أطلب منك أى خطاب خاص بك ، ولكن فى الحزمة رسالة مسروقة .. **رسالة كتبتها امرأة الى رجل غير زوجها .. رسالة فيها فضيحة وعار .. رسالة غرام لن تفيدك فى شىء ، وأقسم أنك لن تخسر شيئا اذا أعطيتنى اياها .. فهى لم ترسل اليك الا لايذاء المرأة التى كتبتها !**

نابليون : اذن فلماذا لم يرسل الخطاب لزوج المرأة ؟

السيدة (مأخوذة) : آه ! .. لست .. لست أدرى !

نابليون : انما هى قصة بارعة لتحصلى على الورقة .. اننى ككل كورسيكى أحب القصص ، وأستطيع أن أميز بين الجيد منها وغير الجيد .. وعندما يسألك أحد مرة أخرى عن السبب فى أن الرسالة التى تشى بأية زوجة لاترسل الى زوجها ، قولى — بكل بساطة — ان الزوج لن يحفل بقراءتها ! .. **أتظنين أيتها الحمقاء أن أى رجل يحب أن يساق بضغط الرأى العام الى أن يحدث فضيحة ، وان يقدم على مبارزة ، وأن يهدم حياته المنزلية ، وأن يفسد حياته العملية ، بفضيحة يمكن أن يتفادى تبعاتها بأن يتجاهلها ؟**

السيدة : هب أن الخطاب يمس زوجتك ..

نابليون : انك وقحة ! (يتمالك نفسه) سأصفح عنك ، ولكن .. لاتسمحى لنفسك مطلقا فى المستقبل بأن تضعى فى قصصك شخصيات حقيقية !

وتقول السيدة ان صاحبة الرسالة كانت زميلتها فى المدرسة ، وقد كتبت اليها ترجوها أن تحول دون وقوع تلك الرسالة فى يديه . فيسألها : « ولماذا أرسلت هذه الرسالة الى انا ؟ »

السيدة : لانها تمس المدير « بارا » !

و « بارا » هو أحد المديرين الذين كانوا يحكمون فرنسا اذ ذاك ، وقد سجل التاريخ أن « جوزفين » ـ زوجة نابليون ـ توسطت لديه كى ينال زوجها مانال من منصب ! .. فلا عجب اذن فى أن يقول نابليون للسيدة : « حذار ، فقد تشتطين فى تماديك .. ما الذى ترمين اليه ؟ .. من تكون تلك المرأة ؟ »

السيدة : مخلوقة تافهة ، حمقاء ، مسرفة ، لها زوج جد قدير وطموح ، يعرفها على حقيقتها تمام المعرفة ، ويدرك انها كذبت فيما ذكرته له عن سنها ودخلها ومركزها الاجتماعى .. ويعلم انها لاتملك أن تكون مخلصة لاى مبدأ أو أى شخص .. ومع ذلك ، فهو لايملك أن ينصرف عن حبها .. وعن أن يستغلها لينال الحظوة لدى « بارا » !

نابليون (فى غضب مكبوت) : هذا انتقامك منى ! .. انك امرأة بغيضة ، وقبيحة كالشيطان ! اغربى عن وجهى (تتأمله المرأة ثم تنفجر ضاحكة) ما الذى يضحكك ؟

السيدة : أيها الجنرال .. لكم رأيت أفرادا من جنسك يتصرفون كالاطفال ، ولكننى لم أر قط عظماء يفعلون ذلك ! .. **انك رجل منكود ، فاحتفظ بخطاباتك واقرأ فيها قصة عارك .. اننى لم أعد أرى صديقتى معرضة لاى خطر ، فالواقع انها لم تكن تفهم زوجها تماما !**

واذ تراه مترددا بين الاقدام على قراءة الرسالة والاحجام ، تقول : « لاتخف ! .. لسوف تجنى منها أشياء كثيرة مسلية .. هناك مبارزة مع بارا .. شجار عائلى .. زواج منهار .. فضيحة مدوية .. حياة عملية مشلولة النمو ! »

وترقبه وهو غارق فى الحيرة . ولا يلبث نابليون أن يحزم أمره ، فيقدم لها حزمة الرسائل الشخصية ، ولكنها لاتمد يده اليها ، فيلقى بالحزمة الى الارض ويقول : « لم يكن لك من بغية سوى هذه الرسائل ، منذ عشر دقائق !» ، فتقول : « ولكنك لم تكن قد أهنتنى منذ عشر دقائق ! » . واذ يعتذر لها ، تسأله : « ألا تريد أن تقرأ الخطاب ؟ »

نابليون : ألم تقولى انه غير موجه لى ؟ .. ليس من عادتى أن أقرأ خطابات الغير !

السيدة : فى هذه الحال لا أجد مانعا من أن تحتفظ به ، فكل ماكنت أبغيه هو أن أحول بينك وبين قراءته

***

• **وتهم** بمغادرة القاعة ، فيسد نابليون عليها الطريق ، وينادى صاحب الفندق فيأمره بأن يسوق اليه الملازم . ثم يتناول حزمة الرسائل فيدسها بعناية فى صدر سترته . وما أن يفد الملازم ، حتى يقول له : « لم أستطع أن أحصل من السيدة على معلومات تذكر ، ولكن الرجل الذى خدعك هو أخوها بلاشك ، فقد اعترفت هى بذلك .. ومن ثم فعليك أن تبحث عنه . **ان شرفك ، ومصير الحملة ، ومستقبل فرنسا ، بل أوربا ، بل الانسانية ، قد تتوقف كلها على المعلومات التى تضمنتها تلك الرسائل .. فهى من الخطورة بحيث أن اخفاقك فى استردادها سيعرضك للهوان أمام فرقتك** . اننى سأكون مسئولا عن عدم تنفيذ ما جاء بتلك الرسائل ، فلابد لى من أن أبرهن للعالم اننى لم أتسلمها ، مهما تكن عاقبة ذلك بالنسبة اليك ! »

وعندما ينصرف الضابط ، تتساءل السيدة عن سر تصرف نابليون ، فيطمئنها الى أن الملازم لن يعثر على أخيها .. واذ ذاك تقول : « طبعا ، فليس لمثل هذا الاخ وجود ، ولكن الرسائل فى صدر سترتك ! »

نابليون : ستجدين أن من العسير اثبات ذلك .. لقد ضاعت الاوراق !

السيدة : ولكن هذا الشاب التعس سيكون الضحية !.. انك شديد القسوة ، فليس الرجال والنساء بالنسبة لك سوى أشياء تستعملها لغاياتك ، ولو حطمتها أثناء هذا الاستعمال !

نابليون : من منا الذى حطم هذا الشاب ؟ .. من الذى خدعه وأخذ منه الرسائل ؟

السيدة (وقد استيقظ ضميرها) : مافكرت فى هذا مطلقا .. كان هذا اثما منى .. (متوسلة) أرجو أن تنقذه من العار

نابليون : انقذيه أنت مادمت بارعة الذكاء .. اننى أكره الجندى الغر !

ويخرج نابليون الى الحديقة . وفى تلك اللحظة يفد الضابط على القاعة ، فتبدى له السيدة اشفاقها من أن يصيب أخاها أذى على يديه ، ثم تقول : « اذا أخبرتك بمكانه .. اذا تعهدت بأن أسلمك اياه أسيرا كى تقدمه للجنرال بونابرت ، فهل تقسم بشرفك — كجندى ، وكانسان مهذب — أن لاتقسو فى معاملته ؟ .. لسوف أرد اليك جوادك وسلاحك كذلك ! » .. ويطرب الضابط لهذه الصفقة ، فيحاول أن يقبلها ، ولكنها تروغ منه قائلة : ((**أنسيت أن مستقبلك فى خطر .. بل مستقبل أوربا .. ومصير الانسانية ؟))**

الملازم : دعك من مصير الانسانية ، واعطنى .. قبلة واحدة !

السيدة : لن تنلها الا اذا أبرأت شرفك كضابط !

وتعده بأن أخاها لن يلبث أن يحضر الى القاعة بعد ربع ساعة ، وأن يسلم نفسه اليه . ثم تقول : « والآن ، ألا ترى من الافضل أن تعالج أمورك مع القائد ، فتحمله على أن يعدك بأن يعتبر اعتقالك أخى كافيا لتبرئة سمعتك وشرفك .. انه لايحجم عن أن يعد بأى شىء فى مقابل ذلك ، ولكن .. لاتدعه يكتشف انك ذكى ! »

الملازم : آه ، فهمت .. انه يغار من الاذكياء !

وترسل له قبلة فى الهواء وهى تخرج . فلا يلبث أن يفد جيسيبى الى القاعة . ثم يعود نابليون وهو يحكم أزرار صدر سترته ، وقد شحب وجهه ، وبدا مهموما .. فيبادره الملازم قائلا : « هب اننى ظفرت بذلك الشاب ! »

نابليون (فى سخرية) : انك لن تظفر به ياصديقى

الملازم : لسوف ترى .. ولكن ، هل تعتبر المسألةمنتهية اذا جئتك به ؟ .. هل تعدل عن العقاب ؟

نابليون (وقد أومض وجهه بفكاهة باردة) : ماذا نفعل به يا جيسيبى ؟ .. انه يخطىء فى كل مايقول

جيسيبى : لنجعله جنرالا ياصاحب السعادة ، فيصبح كل مايقوله صوابا !

ويضحك نابليون للفكاهة ، ثم يقول لصاحب الفندق : « هلا جئت معى لاجعل منك رجلا عظيما ؟ »

جيسيبى : لا ، لا ، لا ، لا ، لا ، لا !

نابليون (يرمقه مفكرا) : أقانع أنت بحالك ؟ .. أليس بين جوانحك شيطان نهم يطالب بغذاء من العمل والنصر ليل نهار ، ويضطرك الى دفع الثمن من عرق مخك وجسدك ؟ .. شيطان هو عبدك وطاغيتك فى آن واحد .. نبوغك وهلاكك ! .. يحمل لك تاجا فى احدى يديه ، ومجذاف مركب للعبيد باليد الاخرى .. يمنيك بملك دول العالم على شريطة أن

تصبح عبدا له ! (يلتفت الى الملازم) أرجو أن لا أكون قد أثرت الطموح فى نفسك !

الملازم : مطلقا ، فلست أحلق على هذا الارتفاع الشاهق .. اننى قانع بمركزى ، لان أمثالى مرغوبون فى الجيش .. ان الضابط الصغير مضطر الى أن يكون سيدا مهذبا ، لانه كثير الاتصال بالناس . **أفتعرف من الذى كسب معركة (لودى) ؟ .. انه جوادى !** .. انك تذكر النار الحامية التى تبادلتها مع النمسويين عبر النهر ، فهل لاحظت اين كنت أقف ؟

جيسيبى : يقولون أن الجنرال قفز عن جواده ، وأخذ يطلق المدافع الكبيرة بيديه

الملازم : هذا خطأ ، فلا ينبغى للضابط أن ينزل الى مستوى رجاله (نابليون يرمقه بنظرة تنطوى على خطر) **كان من الممكن أن تظل حتى الآن تصلى النمسويين نيرانك ، لولانا معشر الفرسان .. فقد خضنا جدولا جانبيا ، وانقضضنا على مؤخرة قوات الاعداء .. وانك لتعلم أنك لم تجرؤ على اصدار الامر بالاستيلاء على الجسر الا بعد أن رأيتنا على الضفة الاخرى .. ومن ثم فالفضل لمن عثر على الجدول . وقد كنت أنا أول من اجتازه ، وكان جوادى هو الذى عثر عليه !**

نابليون : يالك من أحمق ! .. سآمر باعدامك لانك أضعت الرسائل !

***

• **وهنا** يدخل ضابط فرنسى شاب ، يحمل سيفا مغمدا فى قرابه ، فيقول بصوت لايختلف مطلقا عن صوت السيدة : « أيها الملازم .. اننى أسيرك ! » . ويحملق نابليون فى الضابط مشدوها ، ثم يمسك برسغه ويشده اليه ويروح يتفرس فيه مليا ، ثم يدفعه عنه فى اشمئزاز ــ وقد أدرك أنه السيدة بعينها : « اين رسائلى ؟ »

السيدة : لن يخطر مكانها ببالك قط ، فهى فى أبعد أماكن العالم عن ظنك .. ألم يقابل أحد منكم اختى هنا ! .. **انها ساحرة ، وقد استطاعت أن تسحر الجنرال .. افتح سترتك ياجنرال ، تجد رسائلك فى صدرها !** (تضع يدها على صدره) آه ، هاهى ذى ! (تتطلع الى وجهه فى سخرية) هل تسمح لى ؟ (وتفك أزرار السترة ، فتخرج الرسائل وتدفعها نحو جيسيبى الذى يبتعد عنها خوفا من السحر ، ثم تقربها من الملازم فيمسك بسيفه قائلا : ابتعد !) هاك رسائلك ياجنرال !

جيسيبى : لاتمسها ياجنرال . . احرقها ، واحرق الساحرة أيضا !

السيدة (لنابليون) : هل أحرقها ؟

نابليون : أجل ، احرقيها .. جيسيبى ، احضر ضوءا !

ولكن جيسيبى يخاف من الخروج وحيدا فى الظلام — اذ يكون الليل قد هبط فى هذه الاثناء — فيخرج معه الملازم . وتجلس السيدة بعد أن تلقى بالرسائل على المائدة ، وتقول : « لقد هزمتك ياجنرال .. ولكن ، ألا تحب أن تقرأ هذه الرسائل قبل أن أحرقها . لابد انك تكاد تموت من شدة الفضول ! .. لقد قرأتها أنا ، ومن ثم فاننى أعرف مافيها . . أما انت فلا تعرف ! »

نابليون : معذرة .. بل اننى قرأتها حين كنت فى الحديقة منذ عشر دقائق

السيدة (تقفز عن مجلسها) : أواه ! .. لم أغلبك بعد ! .. اننى أعجب بك فى هذه المرة اعجابا صادقا (تقبل يده) .. اننى أريد أن أقول لك شيئا ، ولكننى أخشى أن تسيء فهمه . . **اننى أعبد الرجل الذى لا يخشى أن يكون وضيعا وأنانيا .. ولست أعنى الضعة والانانية بمعناهما المألوف ، وانما أعنى نوعا من البساطة القوية يحيط بك .. فأنت لم تكن راغبا فى**

قراءة الرسائل ، ولكن الفضول ساورك ، فتسللت الى الحديقة واطلعت عليها عندما أمنت من الاعين ، ثم عدت متظاهرا بأنك لم تقرأها .. وهذا أحقر عمل عهدته من رجل ، ولكنه كان يحقق لك غرضك ، ومن ثم لم تخش أو تخجل من الاقدام عليه !

نابليون : من أين لك بهذه التعبيرات القذرة ؟ .. هل كان جدك صاحب متجر ؟

السيدة : لا ، بل كان انجليزيا !

نابليون : فى هذا التبرير الكفاية ، فان الانجليز أمة من أصحاب المتاجر !.. اسمعى ، سوف أشرح لك حقيقة الانجليز! .. ان فى الدنيا ثلاثة أنواع من الشعوب : شعوب دنيا ، وشعوب وسطى ، وشعوب عليا .. فالشعوب الدنيا والشعوب العليا تتشابه فى شىء واحد : ذلك أنها لاضمير لها ، ولا أخلاق .. لان الاولى تحت مستوى الاخلاق ، والثانية فوقه . ولست أخشى النوعين ، لان الشعوب الدنيا لاتفطن الى أنها بلا ضمير ومن ثم فهى ترفعنى الى مصاف الآلهة ، فى حين أن الشعوب العليا تفتقد الضمير لغير ماغاية أو غرض ، ومن ثم فهى تنحنى أمام ارادتى .. ولسوف ترين أننى أمضى فوق جميع الغوغاء وجميع الطبقات المالكة فى أوربا ، كما يمضى المحراث فوق أرض الحقل ! .. على أن الخطر يتمثل فى الشعوب الوسطى ، اذ أنها تمتلك المعرفة والغاية معا . غير ان لها موطن ضعف .. ذلك هو اسرافها فى التقيد بالضمير والاخلاق !

السيدة : اذن فأنت ستتغلب على الانجليز لان جميع أصحاب المتاجر من الطبقة الوسطى ؟ !

نابليون : لا ، فان الانجليز عنصر قائم بذاته . اذ ليس بينهم من ينحط الى الدرجة التى يعنى فيها بالضمير والاخلاق ، وليس بينهم من يسمو بحيث يتحرر من ربقة الضمير والاخلاق ، .. على أن كل انجليزى يولد وفى كيانه قوة خارقة تجعله يتوهم انه سيد العالم ! **فهو اذا أراد شيئا ، لم يصارح نفسه بأنه يريده ،**

وانما هو ينتظر فى صبر ، حتى يتسرب الى ذهنه ـ بطريقة لايدريها أحد ـ يقين بأن من الاخلاق ومن الواجب الدينى أن يهزم أولئك الذين يمتلكون الشىء الذى يبغيه . واذ ذاك لايعود ثمة سبيل الى مقاومته ! .. انه كأرستوقراطى يفعل مايشاء، ويستولى على مايشتهى .. وهو كتاجر يسعى وراء غايته فى دأب ومثابرة ينبعان عن ايمان دينى قوى وشعور بالمسئولية الادبية ! .. **انه لايعجز قط عن العثور على المبرر الخلقى ، فهو ـ بتظاهره بأنه النصير الاكبر للحرية وللاستقلال القومى ! ـ يتغلب على نصف الدنيا ويضمه الى مملكته ، ويسمى هذا استعمارا .. وهى كلمة مشتقة من ((التعمير)) !..** وهو اذا أراد سوقا للبضائع التى يغشها ويزيفها فى (مانشيستر) ، أرسل أحد المبشرين ليعلم أهل البلاد ـ التى يريد أن يتخذها أسواقا له ـ رسالة السلام ، فيقتل الاهالى المبشر . **واذ ذاك ينتضى أسلحته للدفاع عن المسيحية ، فيحارب باسمها ، ويغزو باسمها، ويستولى على السوق كجزاء من السماء !!..** وهو للدفاع عن سواحل جزيرته يضع قسا على سطح سفينته ، ويرفع علما عليه صليب فوق أعلى صار بالسفينة ، ثم يبحر الى أقصى أطراف الدنيا ، مغرقا وحارقا ومدمرا كل من ينازعه السيادة على البحار ! .. وهو يزهو بأن الرقيق يصبح حرا اذا مست قدمه أرضا بريطانية ، بينما هو يبيع أبناء الفقراء من أهله ـ اذا ما بلغوا السادسة من العمر ـ ليعملوا فى المصانع تحت رهبة السياط ، ست عشرة ساعة فى اليوم ! .. **وهو يقوم فى تاريخه بثورتين ، ثم يعلن الحرب على ثورتنا الوحيدة باسم القانون والنظام ! !..** ما من شىء قبيح ، وما من شىء طيب ، الا وتجدين الانجليز يفعلونه .. ولكنك لن تجدى قط انجليزيا يعرض نفسه لان يظهر بمظهر المخطىء .. فهو يبنى كل أفعاله على أسس ومبادىء ! .. **انه يحاربك بمبادىء وطنية، ويسرقك بمبادىء تجارية ، ويستعبدك بمبادىء استعمارية ، ويعيش**

على عرق المومس البغى باسم الرجولة ، ويؤيد مليكه باسم الولاء ، ثم يقطع رأس مليكه باسم المبادىء الجمهورية ! .. دينه دائما هو «الواجب»،فهو لاينسى مطلقا أن الامة التىتهمل واجبها وتنحاز الى الجانب المضاد لمصلحتها الخاصة ، أمة ضائعة !

السيدة : ولكننى واثقة من اننى لست من الانجليز فى شىء ، فان الانجليز قوم أغبياء !

نابليون : أجل ! .. بل انهم يبلغون فى الغباء أحيانا حدا لايفطنون معه الى هزيمتهم !

ويخرج الى الشرفة ، ويتطلع الى السماء ، فتخرج السيدة وراءه ، وتضع يدها على كتفه وقد استولى عليها جمال الليل، وشجعها ظلامه . وتسأله فى رفق : « ما الذى تتطلع اليه ؟ » .. فيشير نابليون الى نجم فى السماء ، ويقول : « نجمى ! » .. وتتكىء على كتفه،فيتطلعان الى النجم لحظة ، ثم تقول : « أتعرف أن الانجليز يقولون أن نجم الرجل لايكتمل الا برباط ساق امرأة ؟ »

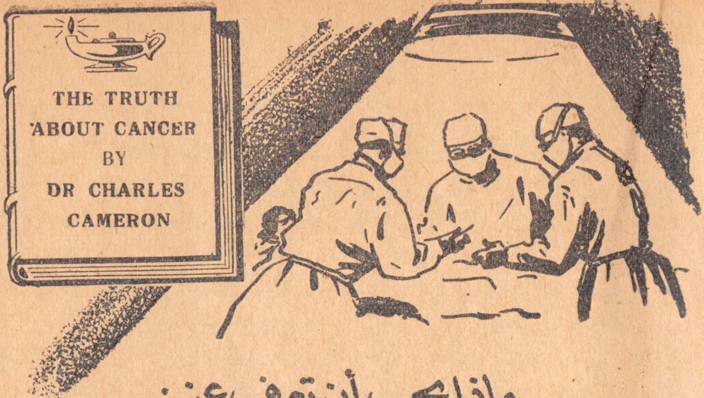


نابليون (فى استنكار واستحياء ، وهو يدفعها عنه ويعود الى القاعة) : **ياللمنافقين! .. لو أن الفرنسيين هم الذين قالوا هذا ، لرفع الانجليز أيديهم فى ذعر وتظاهروا بالورع !**

ويقبل جيسيبى حاملا شمعدانا، وهو يرتجف ذعرا ،

قائلا ان الساحرة قد اختفت دون أن يراها أحد تبرح المكان ! .. ويجمع نابليون الرسائل من فوق المائدة ، فتقول السيدة (أو السيد كما كانت تبدو لجيسيبى فى الزى العسكرى) : « انك لاتزال تحتفظ بالخطاب فى جيبك ! » ، فيبتسم نابليون ، ويخرج الخطاب فيضمه الى كومة الرسائل . وتتأمل السيدة الخطاب قائلة : « انه عن زوجة قيصر » ، فيقول نابليون : « ان زوجة قيصر فوق الشبهات .. احرقيه ! »

ويرقب نابليون الخطاب وهو يحترق ، وقد جلس معتمدا بمرفقيه على المنضدة ، مسلما خديه الى راحتيه .. فاذا أتت النار على الرسالة ، نظر كل من نابليون والسيدة الى صاحبه ، فتلتقى نظراتهما ، بينما تسدل الستار هابطة لتحجبهما عن الابصار !



ماذا يجب أن تعرف عن:

السرطان

للباحث الأمريكي الدكتور "تشارلس كاميرون"

رئيس جمعية السرطان الأمريكية



تلخيص : الدكتور ناجي يسى

لا تدفن رأسك .. فى رمال الخوف والجهل !

• هل من الحكمة فى شىء أن يغمض المرء عينيه عن الخطر ، وان يصم أذنيه عن النداءات المحـــذرة لمجرد الخوف من ان ينزعج أو يضطرب ؟ .. لقد كان الناشرون ـ الى عهد قريب ـ يحجمون عن أن يقدموا للقارىء العادى شيئا من المعلومات عن مرض « السرطان » ، اشفاقا عليه من الوهم والجزع ، غير أن التقدم فى البحث العلمى والطب العلاجى ، أثبت أن الشفاء من « السرطان » يتوقف الى حد كبير جدا على سرعة الانتباه الى ظهوره ، وسرعة المبادرة الى علاجه .. ومن هنا كان لابد لكل امرىء من ان يلم بالحقائق الضرورية عن السرطان ، حتى ينقذ نفسه فى الوقت المناسب !

وهذا هو السبب الذى حدا بالعالم الامريكى الدكتور « تشارلس كاميرون » الى وضع هذا الكتاب : « حقائق عن السرطان » ، الذى يجرى طبعه الآن فى أمريكا ، والذى سعى « كتابى » الى استحضار أجزائه تباعا قبل النشر ، ليقدمها اليك .. ولن نملك فى اظهار قيمة هــذا الكتاب اكثر من أن نذكر لك أن كبار الجراحين الامريكيين الذين أطلعوا على هذا الكتاب ـ وهو بعد فى دور الاعداد ـ وصفوه بانه « الكتاب الذى سينقذ الارواح » ! .. ولقد قرأ الممثل السينمائى « همفرى بوجارت » مقتطفات منه نشرتها احدى الصحف ـ عقب نجاح جراحة لاستئصال السرطان من حنجرته ـ فابرق الى تلك الصحيفة يقول :

« اذا شعرت بأنفه الم مستمر ، ملحاح ، فلا تكن كالنعامة ، ولا تدفن رأسك فى رمال الخوف والشك والجهل . لقد ذهبت الى طبيبى بأسرع ما استطعت ، وها أنذا الآن بخير . ولكن .. من يدرى ما كنت أصبح عليه لو اننى أهملت الالم ، واستسلمت للخوف ؟ .. اننى أقول لكل امرىء: لاتخف ، فان علم الطب يقف فى صفك ! »

لم يعد السرطان حكما بالاعدام !

• **كان** السرطان الى عهد قريب بمثابة حكم بالاعدام على

من يصاب به ! .. فقد كان من النادر ان يشفى أى مريض بالسرطان ، فيما عدا بعض الحالات القريبة من سطح الجسم ، ولا سيما الحالات التى تصيب الجلد . على أن الطب استطاع ـ خلال الجيلين الاخيرين ـ أن ينقل انواع السرطان تباعا من «الفصيلة غير القابلة للشفاء » ، الى «الفصيلةالقابلة للشفاء » . وليس معنى هذا أن كل حالات السرطان أصبحت قابلةللشفاء، فان حوالى النصف ممن يصابون به ، لايمكن شفاؤهم منه فعلا ، حتى الآن . وهكذا يتلخص الموقف فى أن واحدا من كل مريضين بالسرطان يمكن ان يشفى **اذا تسنى علاجه فى الوقت المناسب !**

وتحديد الوقت المناسب يلقى مسئولية خطيرة على كل شخص ، فى المعركة الدائرة بين الانسانية والسرطان ، فان معرفة الشخص بالمرض تساعده على كشف أعراضه المبكرة ، التى تكون مستترة فى الغالب ، لايفطن اليها سوى المريض نفسه ، ومن ثم يستطيع أن يبادر بعرض نفسه على الاطباء .

ومن أجل هذه الغاية ، وضع هذا الكتاب .. وضع لينبهك الى مسئوليتك الشخصية فى الكفاح ضد السرطان !

السرطان يتعقب أصحاب الاعمار الطويلة !

• **والسرطان** عبارة عن نشاط يصيب الخلايا فتتوالد توالدا غير طبيعى ، اذ يزداد انتاجها دون ماهدف ظاهر ، حتى يؤدى الى ظهور « ورم » .. وتختلف خلايا الورم الخبيث عن الخلايا الطبيعية فى أنها تنتشر على شكل أعمدة دقيقة خلال الخلايا الطبيعية المحيطة بها . وهذا التشعب ـ الذى لايرى بالعين المجردة ـ يفسر لنا السر فى عودة السرطان الى الظهور بعد استئصاله ، كما يبين لنا سبب اتساع نطاق الجراحات التى تجرى لازالة السرطان ، لان الجراح يحاول جهد وسعه أن يستأصل الاجزاء التى يحتمل أن تكون مصابة

ولا توجد فى العالم اليوم جماعة من البشر ، او عنصر من

العناصر البشرية ، بمنجى من السرطان . وانما تتفاوت نسب الوفاة به بين الدول بتفاوت درجات الدقة فى تسجيل حالات الاصابة ، وبتباين التقدم والاستعداد العلمى الذى يساعد بامكانياته على اكتشاف المرض . كما أن هناك سببا ثالثا ، هو متوسط الاعمار . **فكلما ارتفع متوسط الاعمار فى أمة ازدادت نسبة تفشى السرطان فيها ، لانه يصيب غالبا من يتجاوزون المرحلة الوسطى من العمر .. أى الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والخمسين . فكلما امتدت الاعمار فى بلد بعد هذه المرحلة،ازدادت نسبة انتشار السرطان فيه..** والواقع أن ارتفاع متوسط الاعمار فى ازدياد - بوجه عام - نظرا للتقدم فى العناية الطبية ، وفى شئون التغذية ، وفى تطبيق الاشتراطات الصحية ، والتوسع فى الاجراءات الوقائية ضد الامراض . وبالتالى ، كلما ازداد تقدم بلد ما فى المدنية ، ازدادت نسبة السرطان فيه . وهذا ما أوحى بأن « السرطان من أمراض المدنية » !

والواقع اننا قد نجد فى الحياة العصرية بعض نواح تؤدى الى ظهور أنواع معينة من السرطان ، ولكن السبب الرئيسى فى أن السرطان يسير جنبا الى جنب مع المدنية ، انما يرجع الى أن التقدم يؤدى الى اطالة العمر ، وبالتالى الى زيادة عدد من يعيشون الى المرحلة التى تكثر فيها الاصابة بالسرطان !

السرطان يفرق بين الرجال والنساء !

• **وهناك** فوارق ذات دلالات خاصة ، وتتجلى فى تباين مدى اصابة بعض أعضاء معينة بالسرطان ، بين بلد وآخر ، وبين جنس وجنس . وقد توصل العلم الى معرفة أسباب بعض هذا التباين ، ومن ذلك ان :

- **سرطان المثانة** أكثر انتشارا فى مصر منه فى أوربا بشكل ظاهر .
- **سرطان الكبد** نادر الحدوث فى الولايات المتحدة الامريكية ،

ولكنه مشكلة خطيرة عند قبائل البانتوس بجنوب أفريقيا .

– **سرطان الجلد** أكثر حدوثا حيث تشتد أشعة الشمس منه فى المناطق الاخرى .

– **سرطان المرىء** نادر لدى النساء فى كل بلدان العالم عدا السويد والدانمرك

– **سرطان عنق الرحم** يبلغ معدل الاصابة به ، بين غير اليهوديات ، ما بين خمسة وعشرة أمثاله بين اليهوديات .

– **سرطان الثدى** أكثر الاورام السرطانية تفشيا بين البيضاوات من نساء انجلترا وامريكا ، ولكنه نادر نسبيا فى اليابان .

– **سرطان القضيب** لايحدث مطلقا بين اليهود الذين تجرى لهم عملية الختان .

ومن المنتظر ان تؤدى كل هذه الفوارق – التى لم تبدأ دراستها دراسة دقيقة الا منذ عهد قريب – الى أبحاث معملية قد تقربنا من تفهم الاسباب الاساسية للسرطان . وليس معنى هذا أن أسباب السرطان مجهولة تماما !

الرضوض فى الثدى لاتؤدى الى اصابته بالسرطان !

• **على** ان المعلومات التى توفرت عن السرطان كثيرة ، وان كانت تعتبر ضئيلة بالنسبة الى جميع أنواع السرطان . والذى يمكن تأكيده ، على ضوء هذه المعلومات ، هو :

السرطان غير معد : فلم يثبت فى أية حالة – للآن – انتقاله من شخص الى آخر

لايمكن القاء تبعة الاصابة بالسرطان على ضرر معين : فليست هناك أدلة مقنعة كثيرة على حدوث السرطان نتيجة اصابة واحدة بضرر ما . **وقد ينشأ السرطان أحيانا عن قرحة مزمنة مستعصية الالتئام ، أو عن ندبة لاتندمل** . فالرحم

المصاب بالتهاب مزمن - نتيجة ضرر نشأ عن الولادة ولم يعالج بجراحة مناسبة - يكون أكثر تعرضا لاحتمال الاصابة بالسرطان . ويبدو ان الاعتقاد قوى بأن تعرض الثدى للضرر مرة واحدة كفيل بأن يجعله عرضة للسرطان .. وليس من العسير تفسير سبب تأصل هذا الاعتقاد ، لان ثدى المرأة معرض للرضوض بحكم حجمه وبروزه . ولما كان سرطان الثدى هو أكثر أنواع السرطان انتشارا بين النساء ، لذلك كان من الطبيعى أن تميل المصابة الى الربط بينه وبين صدمة ، أو كدمة ، أو ارتطام حدث منذ أسابيع او شهور أو سنين !.. **ولو ان الرضوض أو الكدمات تتسبب - ولو بأتفه درجة - فى سرطان الثدى أو أى مكان آخر من الجسم ، لازداد عدد حالات السرطان كثيرا عما هو عليه !**

الخمر : من المغالاة التى لامبرر لها ، القاء تبعة الاصابة بالسرطان على الخمور القوية . فليس هناك مايثبت ان مدمنى الخمر يكونون أكثر تعرضا للسرطان من سواهم !

الاسمدة الكيميائية : ليس أدل على أنها لاتسبب السرطان من أن نسبة الوفيات بالسرطان فى سويسرا والدول السكندينافية - حيث لاتستعمل هذه الاسمدة - تفوق نسبتها فى الولايات المتحدة !

العوامل الوراثية : اذا كان قد ثبت ان للوراثة أثرا كبيرا فى الاصابة بالسرطان لدى الحيوانات ، **الا انه من العسير جدا اثبات وجود مثل هذا الاثر لدى الانسان** . وغاية ماهناك هو ان العوامل الوراثية قد تكون جزءا من مجموعة العوامل التى تسبب السرطان . على ان هناك عدة استثناءات ، منها الورم المعروف باسم « الرتنوبلاستوما » ، وهو نوع نادر من أورام العين لايصيب سوى الرضع والصغار . وهذا المرض هو الذى أصاب الطفل الامريكى « مايك سيبول » ، فاضطر والداه الى التضحية بعينيه انقاذا لحياته . **ولا جدال فى ان هذا النوع من**

السرطان يرجع الى عوامل وراثية .

كذلك توجد ثلاثة أنواع من الاورام البسيطة ـ أى غير الخبيثة ، أو التى لاينشأ عنها خطر فى الظروف الطبيعية ـ تنتقل بالوراثة . وترجع أهمية هذه الأورام الثلاثة الى ان احدها يميل الى التحول الى سرطان ، فى حين أن النوعين الاخرين ينتهيان أحيانا الى سرطان

الميكروبات : عجزت مائة عام من البحث الدقيق عن الكشف عن ميكروب ما يسبب السرطان !

الاكل : لايبدو ان ثمة صلة بين المأكولات والسرطان ، فيما عدا الزرنيخ ـ الذى يوجد بكميات ضئيلة فى موارد المياه والتربة فى بعض الاصقاع ـ اذ يعتقد البعض انه سبب انتشار سرطان الجلد فى تلك الاصقاع . واليود الذى يتسبب نقصه فى تضخم الغدة الدرقية ، اذ يعتقد الاطباء ان هذا التضخم يؤدى الى السرطان . **كذلك يؤدى نقص فيتامين « ب » الى جفاف الشفتين وتشققهما ، والى ظهور حالة « الليوكوبلاكيا » القريبة من السرطان .**

السرطان لايهاجم الاجناس الملونة الا نادرا !

• **على** ان حروق الشمس قد تكون أكثر الاسباب المعروفة للسرطان . ولا يعنى هذا ان حمامات البحر العادية تنطوى على خطر ، ولكن البحث أثبت ان التعرض لاشعة الشمس القوية لفترات طويلة ـ على مر أعوام عديدة ـ قد يكون من اسباب الاصابة بسرطان الجلد .. ومن هنا نشأ اسما « سرطان المزارعين » ، و « سرطان الملاحين » . **ويبدو ان هناك تفاوتا كبيرا فى الاستعداد الفردى للاصابة بسرطان الجلد ، اذ أنه يتوقف الى حد ـ قد يكون كبيرا ـ على لون البشرة . فهو نادر الحدوث بين الاجناس الملونة ، كما انه قليل الحدوث بين البيض الذين يقومون بتنشيط خلايا توليد اللون فى بشرتهم ..**

وهو مايحدث عند اسمرار الجسم بالتعرض للشمس على شاطىء البحر . على ان من الناس من يفتقر الى خلايا اللون ، فيصاب بحروق الشمس كلما تعرض لاشعتها .

ولقد أثبتت التجارب التى أجريت على الفئران البيضاء ، أن السرطان الجلدى الناشىء عن الشمس ينمو فى الاجزاء القليلة الشعر أو المجردة منه . وقد يتسبب مصباح الاشعة الحمراء - الذى كثيرا ما يساء استخدامه - فى نمو السرطان !

ومن العوامل التى يشتبه فى انها تسبب السرطان ، تلوث الجو بالدخان وفضلات الاحتراق والرماد . ولكن مقدارخطر السرطان الكامن فى هذه المواد التى تصيب رئتى الانسان ، غير معروف على وجه الدقة . ولسوف نعالج علاقة التدخين بالسرطان فيما بعد ، ولذا نكتفى هنا بأن نقول ان هناك أدلة جديرة بالاعتبار على وجود علاقة بين التدخين وسرطان الرئة !

علامات تنذر بالخطر

• **بقيت** بعض معلومات نجملها فيما يلى ، اذ انها بمثابة العلامات التى تنذر بالخطر :

١ - **النزيف المهبلى غير المنتظم** : من الامور الكثيرة الحدوث عند النساء . وهو قليل الاهمية فى غالب الاحيان ، ولكنه فى الوقت ذاته من العلامات المبكرة لسرطان الرحم ، لاسيما حين يحدث بعد « سن اليأس » ، أى بعد توقف العادة الشهرية لبضعة أشهر أو سنين !

٢ - **السعال** : من الامراض الكثيرة الانتشار لدرجة يصعب معها الانزعاج منه ، ولكن السعال من أكثر علامات سرطان الرئة شيوعا !

٣ - أغلب الكتل المتيبسة التى تظهر فى الثدى لاتمت للسرطان بصلة ، بالرغم من ان سرطان الثدى يظهر فى بدايته على شكل كتلة متيبسة !

٤ ـ أكثر حالات عسر الهضم لاترجع الى السرطان . ولكن سرطان المعدة يكون أحيانا السبب فى عسر الهضم ، لاسيما اذا ظهر لاول مرة عند رجل ـ او امرأة ـ تخطى سن الاربعين

وهكذا ترى انه لايوجد مرض آخر يدانى فى خطورته السرطان وتبدأ علاماته بمثل هذه التفاهة . ومن هنا تظهر اهمية المامك بالحقائق الخاصة به ..

وقد يستطيع الطبيب فى بعض الاحيان ان يشتبه فى وجود سرطان بمجرد الانصات الى شكوى المريض ، أو بمجرد النظر الى ورم فى جلده أو شفته . ولكنه قد يضطر فى كثير من الاحيان الى الالتجاء الى اجراءات معقدة ، كالفحص بالاشعة السينية ـ اشعة اكس ـ ومعاينة الورم بمنظارات خاصة ، واجراء بعض الجراحات الاستطلاعيـة . والغاية من كل الاجراءات التشخيصية هو الحصول على قطعة صغيرة من الورم لفحصها ميكروسكوبيا . وعملية انتزاع هذه القطعة تسمى عند الاطباء « أخذ عينة » . وفحص العينة بالمجهر ـ بواسطة طبيب المعمل ـ يعتبر لدى الاطباء الوسيلة الوحيدة للتأكد من طبيعة الورم بدقة تامة .. واولى الخطوات هى الاحتفاظ بسجل كامل لتاريخ المرض .

نجاتك .. تتوقف على تعاونك مع الطبيب !

• **يعطى** السرطان ـ بأنواعه ـ فى العادة تنبيها كافيا يجعل من تاريخ المرض عنصرا قيما من عناصر الادلة التى تشير الى التشخيص . لهذا تقع على المريض مسئولية التعاون مع طبيبه ، بان يتجنب اخفاء شىء عنه ، وان يذكر له كل شىء ، فان ماقد يبدو له تافها قد يكون ذا فائدة قصوى للطبيب الذى يجرى وراء حل للمشكلة ..

وتتوقف سهولة تشخيص السرطان ـ الى حد كبير ـ على موضعه فى الجسم . وعلى العموم فكلما صغر الورم كان

تشخيصه عسيرا . ولما كانت الاورام الصغيرة قابلة للشفاء ـ فى العادة ـ فى حين ان الكبيرة مستعصية العلاج ، فقد شاع أن التشخيص السهل ينبىء عن نهاية غير سعيدة ، بينما يبشر التشخيص العسير بنهاية موفقة .. على ان آخر مرجع فى تشخيص السرطان ، هو الفحص المجهرى لعينة الورم .

ولشفاء السرطان لاتوجد سوى طريقتين : الاولى تتمثل فى ازالة الورم جراحيا ازالة تامة . والثانية تتمثل فى قتل خلاياه بالاشعاعات ، كالاشعة السينية أو الراديوم أو النظائر المشعة . **ولكن هناك وسائل علاجية أخرى لاطالة حياة المصابين الذين لايمكن شفاؤهم ، ولزيادة راحتهم والتخفيف عنهم .** ولقد تقدمت وسائل العلاج الجراحى فى السنين الاخيرة ، حتى أصبح فى الامكان اجراء الجراحات بأمل الشفاء فى حالات كثيرة كانت تعتبر منذ عشر سنوات ميئوسا منها تماما !

هل تنجح الطاقة الذرية فى القضاء على السرطان ؟!

• **ولكن** كيف تستطيع المعاونة فى تشخيص السرطان بنفسك ؟ .. لقد اعتاد الانسان ـ بغريزته الطبيعية ـ ان يخفى عن نفسه أى اشتباه فى انه ليس كما ينبغى . ولكن هناك أعراضا وعلامات تحذيرية لايجوز تجاهلها .. بل ان التعرف عليها قد يكون فاصلا بين الحياة والموت ! .. وهذا هو دورك ! فأنت قد تكون ضحية للسرطان ، فجدير بك أن تتيح لنفسك الفرصة للعلاج المبكر ..

والهدف الاوحد للعلاج الجراحى هو ازالة كل أثر للانسجة المصابة حتى آخر خلية من الخلايا الخبيثة المختبئة . لذلك فكلما اجرى هذا العلاج فى باكورة ظهور المرض ـ عندما يكون السرطان محصورا فى العضو الذى بدأ هجومه عليه ـ كان الامل فى ازالته والشفاء منه كبيرا .

كذلك تستخدم الاشعة السينية وأشعة الراديوم فى العلاج ،

وكلتاهما تؤثر تأثيرا مدمرا وأكثر فتكا بخلايا السرطان منه بالخلايا السليمة . وهناك دراسات معقدة التفاصيل لاتزال تجرى لبحث تأثير هذه الاشعاعات القوية على الخلايا الحية ، وعلى الخلايا السرطانية بوجه خاص . وقد امكن التوصل الى طريقة جديدة تؤدى الى امكان تسليط الاشعاع على موطن السرطان بالذات ــ مع تفادى الخلايا السليمة ــ الى درجة لم تكن ممكنة من قبل ، وذلك باستخدام النظائر المشعة .. وهى احدى النعم التى ترتبت على الافادة من الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية . وستظهر الايام ما اذا كانت هذه الطريقة أكثر جدوى فى انقاذ الارواح من الاشعة السينية العادية والراديوم ، لاسيما وان « الكوبالت » المشع رخيص الثمن ، بحيث يمكن حشد كمية كبيرة منه فى وحدة علاجية واحدة تحل محل « قنبلة » الراديوم الضخمة ــ التى تستخدم فى العلاج ــ أو جهاز الاشعة السينية الذى تبلغ قوته عدة ملايين من الفولتات !

التحكم فى سير سرطان الثدى

• **وللهرمونات** شأن فى علاج السرطان ، وان لم يتضح مدى ذلك بعد . على انه أصبح من الممكن عرقلة نمو نوعين من السرطان بفضلها ، احدهما سرطان الثدى ــ أكثر أنواع السرطان انتشارا لدى النساء ــ والثانى هو سرطان البروستاتا الذى يعتبر ثالث أنواع السرطان من حيث كثرة حدوثه لدى الذكور . على ان نتائج العلاج بالهرمونات ليست بالانتظام المطمئن !

ففى حالات سرطان الثدى الذى لايتيسر علاجه بالجراحة أو بالاشعاع ــ لدى الفتيات اللائى فى مقتبل العمر ــ يمكن التحكم فى سير السرطان لمدد متفاوتة ، عن طريق ازالة المصدرين الرئيسيين لهرمونات الجنس لدى الانثى ــ أى المبيضين ــ

وذلك باستئصالهما جراحيا ، أو بقتل الخلايا المنتجة للهرمون فيهما باستخدام الاشعة . وهنـاك طريقة أخرى ، هى كبت الهرمونات لدى الانثى باعطائهـا هرمـون الذكر المسـمى «تستوستيرون » .. **وفى ثلثى الحالات التى تعالج بهذه الطريقة يتسنى القضاء بدرجات متفاوتة على الالم والاعراض الاخرى التى تسبب المضايقات . وفى حالة من كل ثلاث يتضاءل الورم فعلا ! .. بل اننا نصادف ـ من وقت لآخر ـ حالات يختفى فيها الورم تماما .**

ولا يفيد من العلاج بالتستوستيرون النساء اللواتى تجاوزن سن اليأس ،وان أفاد عددا كبير امنهن ،استخدام هرمون الانثى أو « الايستروجين »

ومن الطرق التى تؤدى الى تحسن مدهش فى علاج سرطان البروستاتا أو السرطان الثانوى ـ الناتج من انتشار السرطان من العضو الذى بدأت فيه الاصابة الى أعضاء وأنسجة بعيدة عنه ـ ازالة الخصيتين أو استخدام « الايستروجين »

وفى العدد القادم ، نتابع معا هذا البحث الذى لا يخلو من فوائد جمة للانسانية ، فى عصور المدنية التى نعيشـها الآن !



« آكلو البطاطس » ! من أشهر لوحات الفنان الكبير « فان جوخ »



تستعيد ذكرى الماضى .. القريب طبعا !


SEXUAL BEHAVIOR
BY
A.C. KINSEY
& OTHERS
التقرير الذى هز الولايات
المتحدة من أقصاها الى اقصاها
بما كشفه من أسرار الحياة الجنسية بين أهلها!!
السلوك الجنسى!
للباحث الأمريكى الكبير "الفريد كينزى" وآخرين

الآثار الاجتماعية للنشاط الجنسى

• تناول العالم الامريكى الدكتور « ألفريد كينزى » وزملاؤه ، فى الحلقات السابقة من هذا الكتاب – الذى يعتبر أعظم بحث فى «السلوك الجنسى » فى تاريخ البشرية قاطبة – العوامل التى تؤثر فى السلوك الجنسى لدى الذكور ، سواء من ناحيـــة التركيب البدنى وتطورات العمر ، أو من ناحية الوسط والنشأة والثقافة والمهنة ، أو من ناحية العقائد الدينية والمبادىء الخلقية . وفى الحلقـــة التى يقدمها لك « كتابى » اليوم من هذا البحث الهام ، يتناول « كينزى » وزملاؤه بالتحليل كافة الآثار الاجتماعية الخطيرة التى تترتب على كل لون من ألوان النشاط الجنسى .. وهى تحليلات هامة يجدر بكافة المعنيين بالاصلاح الاجتماعى والنواحى التربوية فى المجتمع العربى ان يعنوا بدراستها !

٩٢ فى المائة من الامريكيين يمارسون العادة السرية !

• **« الاستمناء »** أو « العادة السرية » اصطلاح يطلق على كل نوع من الاثارة الذاتية التى تؤدى الى الانتصاب ، والتى تتأتى عن الملامســة . وقد ذهب العــالم النفسى « فرويد » وكثيرون من العلماء والباحثين الطبيين الى أن هذا الاصطلاح يمتد فيشمل تصرفات الاطفال والغلمان ، وأن « الاستمناء » – بهذا المعنى – ظاهرة عامة بين الذكور والاناث ، من أصغر طفـل حتى أكبر بالغ . ولكن النـــاس عامة ، ومعظم الاطبــاء الباحثين ، لايرون ذلك ، وانما يطلقون « الاستمناء » على **أية اثارة ذاتية متعمدة ، يقصد بها تحقيق الانتصاب الجنسى . ومعنى هذا ان الملامسة التى تصدر عفوا للعضو التناسلى ليست « استمناء » . ومن ناحية أخرى ، فان الاستثارة التى تدخل تحت هذا العنوان ، لاتقتصر على العضوالتناسلى ، وانما**

على كل شيء يؤدى الى التهيج الحسى ، طالما كان المقصود منها اشباع الغريزة الجنسية . فاقدام المرء على تحسس جسمه أو على حكه ، أو على لمس أعضائه التناسلية ، لايعتبر « استمناء » اذا كان المقصود به أى شيء آخر عدا التهيج والانتصاب !

وهذا هو المعنى الذى أخذنا به . و « الاستمناء » بهذا المعنى — رغم تقيده — يشاهد عند نسبة كبيرة جدا من الذكور الذين أجرينا عليهم بحثنا . وبتطبيق البيانات التى حصلنا عليها ، نستطيع أن نقول ان **حوالى ٩٢ فى المائة من الذكور فى الولايات المتحدة مارسوا « الاستمناء » الذى يؤدى الى ذروة اللذة .** وهذه النسبة تتذبذب بين أنواع السكان ، فهى ٩٦ فى المائة بين ذوى التعليم العالى ، و٩٥ فى المائة بين ذوى التعليم الثانوى والمتوسط ، و٨٩ فى المائة بين الذين لايمضون فى الدراسة الى أبعد من المرحلة الاعدادية . وهناك ذكور لايمارسون « الاستمناء » لمجرد انهم لا يجدون حافزا جنسيا كافيا يحملهم على البحث عن منفث لتفريج طاقتهم الجنسية ، اكتفاء منهم بالاحتلام كما أن هناك ذكورا — لاسيما فى أدنى الطبقات الاجتماعية — لايمارسون الاستمناء لانهم يمارسون الجماع مع الجنس الآخر فى سن جد مبكرة ، بحيث لايجدون حاجة كبيرة الى البحث عن موارد أخرى للتفريج . وهناك أفراد بليدو الحس والاستجابة ، بحيث انهم يجدون من المستحيل بلوغ اللذة القصوى بالاستمناء ، ومن ثم فانهم لايمارسونه بعد التجارب الاولى .

العوامل التى تنبه الشبان والفتيات الى الاستمناء

• ويجب ان نذكر ان الاستمناء محرم ويلقى استنكارا بالغا لدى بعض الجماعات — كما اوردنا فى حلقات سابقة — ومن ثم فان من المحتمل أن يكون بعض الذين أنكروا فى بياناتهم لنا أى تجارب لهم فى هذا المجال ، قد تكتموا الحقيقة . **ومن ناحية أخرى، فان وجود هذه النسبة العالية ممن يمارسون الاستمناء**

بين الذكور ، خليق بأن يكون نذيرا بأن من المحتمل أن تكون ثمة نسبة عالية مشابهة بين الاناث . وهذا ماسوف نبحثه فى الجزء الثانى من هذه الدراسة .

والاستمناء يزود ٦٨ر٤ فى المائة من الفتيان بأول تجربة للقذف ، أما الباقون ، فيحظى معظمهم بالتجربة الاولى عن طريق الاحتلام أو جماع الجنس الآخر . **والعوامل التى توحى بالتجربة الاولى فى الاستمناء خليقة بعناية كبيرة فى التربيـة الجنسية** . ومن الممكن القول بأن كل الفتيان – تقريبا – يسمعون عن الاستمناء قبل أن يحاولوا ممارسته ، وقد وجدنا فى بحثنا ان نسبة كبيرة ممن درسنا حالاتهم قد شاهدوا زملاء لهم يمارسون الاستمناء ، لاسيما فى طبقتى ذوى التعليم الاعدادى وذوى التعليم الثانوى والمتوسط فى المجتمع الامريكى . ولعل من المدهش أن عددا قليلا من ذوى التعليم الجامعى قد اكتشفوا الاستمناء من تلقاء أنفسهم !

أما بين الاناث ، فنجد ان عدد اللاتى يكتشفن الاستمناء من تلقـاء أنفسهن – دون أى علم سابق بأن هنـاك من يمارسنه غيرهن – يفوق بكثير عدد الذكور الذين فى هذا الوضع !

يمارسون الاستمناء فى العام الاول من أعمارهم !

• **ومهما** يكن من كثرة ملامسة الاطفال لاعضائهم التناسلية فان « الاستمناء » بالمعنى الذى اتفقنا عليـه – أى بقصـد الانتصاب الجنسى – نادر بين الصغار ، **وان كانت هناك حالات عرف فيها أطفال لم يستكملوا العـام الاول من العمر ، لذة العبث بأعضائهم الجنسية ، سواء كان ذلك العبث بأيديهم أو أيدى أشخاص يكبرونهم ! .. ومن الاطفال من يمارسون هذا العبث – بقصد اللذة – منذ العام الثانى أو الثالث من أعمارهم!** على ان معظم الاطفال الذين من هذا القبيل ، لايلبثون ان ينصرفوا الى مايشغلهم عن هذه العادة ، فيكفون عن ممارستها . **ومن**

الملاحظ أن الطفل يصل – فى نسبة كبيرة من الحالات – الى اللذة القصوى فعلا ، اذا عبث شخص كبير بعضوه التناسلى بالطريقة المألوفة لدى البالغين !

على ان البيانات التى لدينا تبين – بوجه عام – أن نسبة الذين يمارسون الاستمناء بمعناه الحقيقى ، بين الاطفال الذين لم يصلوا الى مرحلة البلوغ ، صغيرة جدا .. فهى لاتتجاوز ١٠ فى المائة بين من لم يبلغوا التاسعة من أعمارهم ، و١٣ فى المائة بين من لم يبلغوا العاشرة . وتبدو – فى هذه الحال أيضا – بعض الفوارق المترتبة على تباين الوسط الاجتماعى ، بيد انها أقل من الفوارق التى توجد عادة بين المستويات الاجتماعية فى فترة المراهقة . **ويمارس بعض الذكور غير البالغين الاستمناء الى درجة الارضاء واللذة القصوى ، وان كان الغلام فى بعض الحالات لايفقه مايجرى ، ولا يعرف له اسما أو يدرى أن سواه يمارسه**

وقد صرح بعض المراهقين ، وكثيرون من الكبار الذين فحصنا حالاتهم ، انهم يذكرون شعورهم باللذة القصوى – بكل مميزاتها المعروفة لدى الكبار – قبل ان يؤتوا المقدرة على القذف ، أى قبل البلوغ !.. وهـذا يهدم مايذهب اليـه بعض الاطباء النفسيين القدامى ، من ان المرء لايعرف اللذة القصوى قبل البلوغ ، اللهم الا اذا كان مصابا باختلال عصبى .

هل تنشأ اضرار مادية واجتماعية عن الاستمناء ؟

• **وينزعج** الكبار عادة اذا اكتشفوا أن الصغار يمارسون الاستمناء . وكثيرون من الاطباء يؤيدون الآباء فى مخاوفهم هذه ويقضون راحة الصبى . ولما كانت البيانات والدراسات تثبت ان كل الذكور تقريبا يهتدون الى الاستمناء – ان عاجلا أو آجلا – فلسنا نرى داعيا لهذا الانزعاج ، اللهم الا اذا كان منبعثا عن المبادىء الخلقية . وهذا ادعى الى ان نرى ان لاداعى لان يشترك الاطباء والعلماء فى هذا الانزعاج ، **لاسيما وانالم نجد فى آلاف الحالات**

التى درسناها ، أى دليل على أن الصبى الذى يمارس الاستمناء فى سن مبكرة ، يعانى أكثر مما يعانيه الذكر الذى يمارسه فى فترة المراهقة او مابعدها . وعلى العموم ، فقد أجمع معظم العلماء والباحثين أخيرا ، على ان الاستمناء لايؤذى الذين يمارسونه بعد المراهقة .

أما اذا كان الانزعاج ناشئا عن القيم الاجتماعية ، فنحن نقرر اننا لم نعثر على بيانات تدل على أن الاستمناء المبكر يخل بالتوافق الاجتماعى للصبى - أى بتكيفه وفقا للعوامل الاجتماعية واستعداده للحياة الاجتماعية والجنسية - اللهم الا فى بعض الحالات التى يكتشف فيها الكبار نشاط الصبى فيؤنبونه أو يعاقبونه أو يفضحونه أو يعكرون صفو باله بطريقة ما . وحتى اذا لم يؤنبوه ، فان مجرد استنكارهم أو اشمئزازهم الناشىء عن انهم لم يعتادوا رؤية السلوك الجنسى للغير قد يؤدى الى عين النتيجة .. وكذلك الحال لو انهم أبدوا دهشة أو كبحوا انفعالهم بشكل يوحى للطفل بأنهم شعروا بأى انفعال

الكبار يحذرون من الاستمناء .. ويمارسونه !

• **وفى** معظم الحالات التى يمارس الذكر فيها الاستمناء قبل البلوغ ، نجده يستمر فى ممارسته خلال المراهقة . ذلك لأن الاستمناء يتيح لمعظم الذكور - فى جميع المستويات الاجتماعية - منفشا للتفريج الجنسى فى باكورة المراهقة ، ومن ثم نجد أن معدل عدد مرات الممارسة يبلغ فى هذه المرحلة أوج ارتفاعه ، ولا يعود الى ذلك الاوج فى اية مرحلة أخرى من العمر ، لدى أولئك الذين يهتدون الى الاتصال الجنسى قبل الزواج .. على أن هناك ذكورا يظلون على هذا المعدل المرتفع طيلة المرحلة بين المراهقة والزواج .. **وهناك من يظلون يمارسون الاستمناء ثلاث أو أربع مرات فى الاسبوع بعد الزواج ، وثمة قليل من الذكور يمارسون الاستمناء حتى سن**

الخامسة والسبعين ، ولكننا لم نصادف حالات بعد هذه السن لاستمناء يحقق ذروة اللذة !

على ان ما ذكرناه عن عدم ترتب أى أذى على الاستمناء ، ينطبق حتى على أعلى معدل لممارسته . وقد بلغ هذا المعدل فى الحالات التى درسناها ٢٣ مرة فى الاسبوع فى أوائل فترة المراهقة . وهو يهبط الى ١٥ فى الأسبوع لدى من يبلغون العشرين من العمر ، والى ٦ فى الأسبوع ، لدى من يبلغون الخمسين ، والى مرة أو اثنتين اسبوعيا فى سن الستين . **وفى هذه السن ، يكون الكبار أكثر ميلا الى انذار المراهقين بأن الافراط فى الاستمناء مضر !**

قد ((تدفع)) الزوجة زوجها الى الاستمناء !

• **والاستمرار** فى الاستمناء بعد الزواج يحدث أكثر ما يحدث بين ذوى التعليم الجامعى ، اذ يقبل عليه ٦٩ فى المائة منهم ، ويكون معدله حوالى مرة فى كل أسبوعين فى أوائل الزواج ، ثم يقل بعد ذلك . على أن نسبة من يمارسونه بعد الزواج من ذوى التعليم الثانوى أو المتوسط لا تزيد على ٤٢ فى المائة . أما بين ذوى التعليم الاعدادى فلا تتجاوز النسبة ٢٩ فى المائة .. وفى معظم الحالات ، نجد ان الممارسة بعد الزواج تقتصر على الفترات التى يكون فيها الزوج بعيدا عن زوجته ! .. ومن الذكور المتزوجين من يقضى سنوات دون أن يمارس الاستمناء ، ثم يعود اليه اذا ما افترق عن زوجته لفترة من الزمن ، كما كان يفعل كثير من الرجال فى أثناء الحرب العالمية الثانية . **واحيانا يكون الاستمناء بعد الزواج راجعا الى زهد الزوجة فى الاكثار من العلاقات الجنسية ، بينما يكون الرجل راغبا فى هذا الاكثار .. أو انه قد يكون راجعا الى الحمل ، أو العادة الشهرية لدى الزوجة . وقد يتجه الزوج الى الاستمناء رغبة فى التغيير فحسب ، مهما تكن كثرة مرات جماعه لزوجته !**

والطبقات الدنيا فى المجتمع هى أقل الطبقات ممارسة للاستمناء . ويرجع ذلك الى وجود قيود وعادات تحرمه ، وقد يعزز ذلك الزعم بأن الاستمناء يؤدى الى الجنون ، أو يسبب البثور ، أو يضعف المرء ، أو يفضى الى أى نوع من الضرر الجسمانى . على أن العزوف عنه لدى هذه الطبقات ، يرجع فى الغالب الى اعتقادها بأنه عمل شاذ أو غير طبيعى ، اذ ان الفلسفة الجنسية لدى الطبقات الدنيا تقوم بأكملها على قبول ما هو طبيعى ، والاعراض عن كل ما هو غير طبيعى . **أما قبول الطبقات المثقفة الراقية للاستمناء ، فيرجع الى ان البحث العلمى اثبت انه غير ضار ، والى القيود الشديدة جدا ، التى تحرم الجماع قبل الزواج .**

((السادية)) و ((الماسوشيستية)) فى الاستمناء !

• **وكل** الذكور ـ تقريبا ـ يستغرقون فى أوهام جنسية أثناء الاستمناء . أما الاناث فأقل استغراقا فى التصورات والتخيلات . وتتمشى هذه الاوهام مع الادراك النفسى للمسألة، فهى تتجه الى الجنس الآخر لدى الافراد الذين يميلون للجنس الآخر ، وهى تتجه الى نفس جنس المرء اذا كانت له تجارب أو اذا كانت ميوله النفسية تتجه الى بنى جنسه . وهى قد تتضمن تصور الاتصال بالحيوان ، اذا كانت للفتى تجربة سابقة! .. وهناك أوهام ((سادية)) ـ أى تنطوى على الرغبة فى ايلام الطرف الآخر ـ وأخرى ((ماسوشيستية)) ، أى تنطوى على استعذاب ايلام النفس .. **على ان تصورات الذكر أثناء الاستمناء ، لا يمكن أن تتخذ كوسيلة تعبر عن تجاربه الجنسية !**

وهناك شبه علاقة بين الاستمناء والاحتلام ، فالشخص الكثير الاحتلام ، قد يكون مقلا فى الاستمناء الى درجة ما . وبعض الذكور يعزون كثرة احتلامهم الى عدم ممارستهم

للاستمناء . على أننا لا نجد أدلة كثيرة تؤكد أن معدل الاستمناء يهبط بارتفاع معدل الاحتلام

وقد يكون ثمة ارتباط بين الاستمناء وبين مغازلة الاناث ومداعبتهن قبل الزواج ، فان هذين النوعين من النشاط الجنسى كثيرا الحدوث فى الاوساط العليا فى المجتمع ، ولكن من الجائز ان يكونا معا من نتائج الفلسفة الجنسية لتلك الاوساط ، وليس كل منهما نتيجة للآخر .

هل يصلح الاستمناء سلاحا لمحو البغاء ؟ !

• **ويبدو** أحيانا شيء من التناسب العكسى بين الاستمناء والجماع قبل الزواج ، فحيثما يكون معدل الواحد منهما عاليا ، نجد أن معدل الآخر منخفض . **ونحن قد نجد فى بياناتنا من الأدلة ما ينبىء بأن الذكر لا يجد داعيا للاستمناء عندما يتاح له الجماع بالدرجة الكافية ، ولكنا لا نجد أدلة تمكننا من أن نجزم بأنه حيثما يكون معدل الاستمناء عاليا ، لا يجد المرء داعيا للجماع . وبالتالى ، ليس ثمة ما يدعم وجهة نظر الداعين الى الاستمناء كوسيلة من وسائل الحد من النشاط المنافى للاخلاق أو الآداب العامة !** .. على ان من علماء الطب النفسى من يخشون أن يؤدى الاستمناء قبل الزواج ، الى تقليل استعداد الذكر للجماع مع الجنس الآخر اذا تزوج ! .. وهذه مسألة تحتاج الى دراسة خاصة ، فى دقة وعناية ! .. كذلك تحتاج العلاقة بين الاستمناء واللواطة الى دراسة مشابهة . فان فى البيانات التى لدينا بعض ظواهر توحى بأن اهتمام الشخص بأعضائه التناسلية قد يؤدى الى توليد اهتمام لديه بأعضاء الغير من بنى جنسه !

وليس بين ألوان النشاط الجنسى ما يستهوى من الافراد قدر ما يستهوى الجماع مع الجنس الآخر ، والاستمناء . كذلك ليس بين ألوان النشاط ما يؤدى الى اللذة القصوى مثلهما .

ويشغل الجماع مع الجنس الآخر فى هذه الناحية المكانة الاولى، بينما يحتل الاستمناء المكانة الثانية . ومن هنا تنشأ مسألة جديرة بالبحث الشامل الدقيق وهى : هل يحسن تجاهل هذين اللونين من النشاط ؟ .. أو أن من الافضل تنظيمهما ، أو تقييدهما تقييدا تاما يقصيهما من حياة أى عدد كبير من الناس ؟

المصدر المزعوم لكل الامراض ..

• **وليس** من شأن العلماء البحث فى الدواعى الخلقية التى تقال للدعوة الى القضاء على الاستمناء . وانما يصبح الموضوع أهلا للبحث العلمى اذا هو قام على دواع نفسية أو اجتماعية أو طبية .

وينبئنا التاريخ بأن كلا من الدينين اليهودى والمسيحى قد استنكر الاستمناء واعتبره عملا منافيا للاخلاق ، أو غير طبيعى . ولقد دعمت الحجج الخلقية - فى عهد غير بعيد - بمزاعم عن ان ادمان هذه العادة يؤدى الى اضرار بدنية وعقلية .. **وكان يعزى اليها - حتى عهد قريب - كل مرض : من البثور، الى الجنون، الى تقوس المنكبين ، والهزال ، والاعياء، والارق ، والضعف العام ، والتهاب الأعصاب ، وفقدان قوة الرجولة ، وضعف البصر ، واختلال الهضم ، والقرح المعدية ، والارتخاء ، وضعف الذاكرة ، وسرطان الأعضاء التناسلية ! .. بل ان السلطات كانت تخصص أقساما فى مصحات الامراض العقلية تقصرها على الجنون الذى كان يعزى الى الافراط فى العادة السرية .. وما علم أصحاب هذه المزاعم ، ان أساتذة الجامعات لم يكونوا أقل من هؤلاء المجانين ممارسة للاستمناء! ..** ولقد كانت أطراف أولئك البؤساء تقيد بحجة ان لا سبيل الى شفائهم ما لم تتم الحيلولة بينهم وبين الاستمناء ! ولا تزال بعض المصحات تتبع هذه النظرية حتى اليوم ، كما لا يزال

الافراد فى كثير من المؤسسات العقـــابية ـ كالسجون والاصلاحيات ـ يتعرضون لعقوبات قاسية اذا ضبطوا وهم يمارسون الاستمناء .. وكذلك نجد موقف الآباء من أولادهم فى البيوت ، والمشرفين بالنسبة للطلبة فى المدارس الداخلية ، وبالنسبة للنزلاء فى المنشئات التى تقيم فيها جمـاعات من الذكور . ويقضى قانون الاكاديميـــة البحرية الامريكية فى (آنا بوليس) بطرد الطالب اذا اثبت الفحص الطبى انه يمارس العادة السرية !

التهويل فى الارهاب .. هو السبب الرئيسى !

• **ولقد** عاش ملايين من الصبية والفتيان فى قلق نفسى وعقلى من جراء هذه المسألة . ولا يزال ملايين آخرون يعانون نفس الشىء ، اذ يحاولون الامتناع عن الاستمناء ، فيفشلون ، وينساقون للشعور بالندم والحسرة ، ثم يحاولون من جديد .. وهكذا . وليس أقوى على الحاق اضرار دائمة بالفرد ، من مثل هذه الحال ! .. **ولقد انتهى رجال التربية ، والاطباء ، وعلماء النفس ، الى الاجماع ـ منذ حوالى ربع القرن ـ على أن الآثار البدنية والطبيعيـة للاستمناء لاتختلف فى جوهرها عن تلك التى تترتب على أى لون آخر من ألوان النشاط الجنسى .. وعلى ان الضرر العقلى الذى ينشأ عن الاستمناء ، انمـا ينشأ فى الواقع والاصل عن الصراع النفسى الذى ينجم عن استنكار هذه العادة !**

ولقد فحصنا فى هذا الصدد ٥٣٠٠ شخص ، ثبت ان ٥١٠٠ منهم مارسوا الاستمناء . ومن العسير أن نجد ان هـــذا النشاط أحدث أى ضرر يذكر لاى فرد منهم .. على اننا ـ من ناحية أخرى ـ نجد آلافا من الحالات التى تبـين أن الاولاد يعيشون فى صراع مستمر ، وفى خوف من الخزى الاجتماعى ، وكثيرا ما ينتابهم القلق من أثر مثل هذا النشاط على كفاءتهم

الجنسية ، وقد ينتهون احيانا الى محاولة الانتحار .. وكل هذه نتائج لما يلقونه من تعاليم بشـأن الاستمناء . **أما الذين لم يتعرضوا للاضطرابات النفسية ، فتدل التقارير على أن الاستمناء أتاح لهم تفريجا جنسيا منتظما ، خفف من توتراتهم العصبية** .. والبيانات الواضحة فى كثير من الحالات ، تؤكد أن هؤلاء الاولاد نعموا فى حياتهم بدرجة من التوازن والاستقرار والاستقرار تفوق تلك التى حظى بها أولئك الذين عمدوا الى الكبت !

لا تسلموا الشباب الى الحيرة والقلق !

• **على أن** أكثر المسئولين اهتماما بالتربية الجنسية ، يأبون أن يسلموا تماما بهذه النتائج العلمية . وقد أصبح من المعتاد ـ فى هذا الصدد ـ أن يعترفوا بأن التعاليم السابقة قد بالغت فى تصوير اضرار الاستمناء ،ولكنهم يردفون قائلين ان تنمية الرجولة فى نفوس النشء تتطلب انقاذهم من أن يدمنوا الاستمناء طوال العمر ، ومن ثم فهم يميلون الى امساك العصا من الوسط ، أى الى أن يوفقوا بين الحقائق العلمية والمبادىء الخلقية ، فيقولون : أن ممارسة الفتى للاستمناء بقدر محدود ، لا تؤدى الى أى ضرر ، ولكن الافراط خليق بأن يدعو الى التماس معونة الطبيب ، وبما انه لا توجد حدود معينة تبين أين يبدأ الافراط ، فان الفتى يجد نفسه حائرا ، متخبطا بين الهواجس خشية أن يكون قد تجاوز الحد وأصبح مفرطا !.. **ولا يجهل أى ملم بشىء عن علم النفس أو الطب النفسى ، مدى ايذاء هذه الحال لشخصية الفتى . فهى لاتقل أضرارا عن التعاليم القديمة .**

وبالرغم من عدم ترتب أية أضرار بدنية على الاستمناء ، وبالرغم من أنه لا يؤدى الى أضرار عقلية ـ ما لم تتأت هذه

الاضرار عن القلق والصراع النفسى ـ الا أن على المسئولين أن يعملوا على تحديد ماقد يكون هناك من علاقات بين الاستمناء واستعداد الفرد للتمشى مع الاوضاع الاجتماعية والجنسية

العامل النفسى فى الاثارة الجنسية

• **وتدل** البيانات على أن أول استجابة جنسية للصبى أو للمراهق الحديث البلوغ ، تنشأ عن تهيج عضوى . ولكن العامل العضوى لا يلبث أن يغدو عاملا ثانويا كلما تقدم الذكر فى السن ، ليحتل العامل النفسى المكانة الاولى بدلا منه . حتى ان الذكر يخفق فى بعض الاحيان والحالات فى الاستجابة لاتصالات بدنية معينة ، فى حين أنه يستجيب فورا لمهيجات أتفه من الاتصال البدنى بكثير ، وفقا للظروف .. بل اننا نجد أزواجا يصابون بالعجز عند ما يتصلون بزوجاتهم ، ولكنهم يبدون مقدرة عند الاتصال بغيرهن . وكذلك نجد بين الذكور من يتعرضون للانتصاب والتهيج الى درجة اللذة القصوى لمجرد المغازلة والمعابثة ، فى حين أنهم يصابون بالعجز اذا حاولوا الجماع !

وهذه الحقائق تبين مدى أهمية العامل النفسى فى النشاط الجنسى . ومعظم الذكور يصابون بدرجة من درجات الانتصاب ، اذا ما استثيروا بدرجة كافية ، ولو لم يسبق لهم أى اتصال بدنى من قبل . ويستثنى من ذلك الغلمان العديمو التجربة ، والذكور ذوو الطاقة الجنسية العارمة الذين أشبعوا رغباتهم من الناحية النفسية أو بلغوا درجة الملل أو درجة الاعياء ، وبعض أبناء المستوى العلمى والاجتماعى الراقى ، الذين يخضعون لتربية خلقية أو اجتماعية صارمة . ولقد صادفنا بين أكثر من ٥٠٠٠ حالة ، ثلاث حالات أو اربعا وصل أصحابها الى درجة القذف لمجرد الخيالات الجنسية دون أن يمس العضو التناسلى ، وهذه النتيجة ناشئة عن العامل النفسى المحض !

الاحلام .. والنشاط الجنسى

• **والاثارة** النفسية التى تقترن باستجابة بدنية تحدث أكثر ما تحدث أثناء النوم ، وهى أكثر تحقيقا للقذف من الاثارة النفسية فى ساعات اليقظة . ويرجع ذلك غالبا الى أن المرء فى نومه لا يكون خاضعا لما يحيط به فى حياته من مبادىء خلقية واجتماعية .. **والقـــــذف أثناء النوم مألوف لدى الذكور ومعروف ، ولكن الامر غير المعروف هو أنه مألوف أيضا لدى الاناث ، لا سيما الكبيرات فى السن ، واللاتى سبق أن خبرن العلاقات الجنسية**

وكثير من حالات الاحتلام لا تنتهى بالقذف ، كما ان كثيرا من حالات القذف أثناء النوم تنتج عن تخيـــلات لا يذكرها الشخص بعد يقظته ، بل ولا يذكر انه شهد أحلاما ما أثنـــاء نومه

ويبلغ القذف أثناء الاحتلام أقصاه ـ من حيث عدد المرات ـ بين الذكور ذوى التعليم العالى أو الجامعى ، ويقل بين ذوى التعليم الثانوى أو المتوسط ثم يزداد قلة بين الذين لا يمضون فى الدراسة الى أبعد من المرحلة الاعدادية . كما انه فى سن المراهقة يبلغ عندالفريق الاول سبعة أمثاله لدى الفريق الاخير، من حيث العدد . ويبدو ان ثمة علاقة مطردة بين عـــــدد مرات الاحتلام ، وبين مقدرة الذكر على الخيال والتصور . كما أن الحياة الجنسية للذكر ، فى أدنى المستويات الدراسية ، تعتمد أول ما تعتمد على الاتصالات البدنية ، ومن ثم فهو أقل استعانة بالاحلام فى نومه من أبناء المستويات الدراسية الاخرى

ومن الملاحظات العامة ان الاحتلام المفضى الى القذف لايبدأ عادة مع أولى علامات البلوغ ، بل انه لايحدث عادة الا بعـــد عام أو أكثر من بداية البلوغ .

النشاط الجنسى الذى لايعاقب مرتكبه !

• **ويبلغ** القذف أثناء النوم أقصاه ـ من حيث عدد مرات

حدوثه ، ومن حيث عدد الافراد الذين يتاح لهم ــ فيما بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر ، وهو فى هذه الفترة يشمل ٧٠ فى المائة من الذكور الذين فى هذه المرحلة من العمر فى أمريكا . وتظل الارقام فى انخفاض فى سنى العمر التالية ، حتى تبلغ أدناها بعد الثلاثين ، وتكاد تنعدم بعد الاربعين ، ولا تكاد ــ بعد الخمسين ــ تحدث أكثر من ٤ أو ٥ مرات فى العام ، لدى فئة قليلة تعد فى حكم الندرة . **على أن هذا لايمنع من القول بأن ثمة حالات قذف أثناء النوم وقعت لذكور تراوحت أعمارهم بين السادسةوالسبعين ، والثمانين !**

وليس بين مصادر التفريج الجنسى ما هو أقل شأناوأهمية ــ من حيث الدراسة ــ من الاحتلام . **وهو لدى كل الفلسفات الجنسية تقريبا ، المصدر الوحيد الذى لا يتحمل المرء مسئولية من جرائه ، ولا يعتبر مذنبا من اجله** ، وان كان ثمة من يقولون ان المرء يستطيع أن يتفاداه عن طريق التحكم فى أفكاره قبل أن ينام .. كما أن هناك من يقولون ان فى الوسع تجنب الاحتلام بتغيير الوضع الذى اعتاد المرء اتخاذه أثناء النوم ، أو باتخاذ ثياب للنوم تقلل من تعرضه للتهييج . **على ان الاجماع يتجه الى أن القذف أثناء النوم ، نوع من التنفيس غير الارادى للضغط والكبت وتجنب الوان النشاط الجنسى الاخرى .** وكثيرا ما قيل ان الاعزاب والمتعففين عن النشاط الجنسى قبل الزواج ، يجدون فى الاحتلام مصدرا مطردا للتفريج غير الارادى الذى يخفف من توتر أعصابهم ويساعد على تحقيق الاتزان أو الاستقرار البدنى والعقلى لديهم .

النشاط الجنسى بين جدران السجون

• **وهذا** القول يحتاج الى بحث دقيق ، وفحص لحالات كثيرة ، لاسيما وقد لوحظ فى دراساتنا هذه ، ان الذكور المتدينين ، لايتعرضون للاحتلام بنسبة تفوق أو تقل عن

المعدل لدى زملائهم الذين لا يمارسون الطقوس الدينية ، مع أن اقبال المتدينين على مصادر التفريج الجنسى الاخرى ـ قبل الزواج ـ يقل كثيرا عن اقبال غير المتدينين . ومن ناحية أخرى ، نجد ان **معدل الاحتلام لدى المسجونين ـ وهم مضطرون الى حياة العزوبة خلال فترة السجن ـ يرتفع قليلا عنه لدى سواهم ، مع أن من المعتقد أنهم يجدون تفريجا فى اللواطة ، ويمارسونها الى درجة تجعلهم يستمرون فى ممارستها بعد مغادرتهم السجون لفترة ليست بالقصيرة** . على اننا لا نغفل هنا أن نقر بأن كثيرا من المسجونين لايبدأون نشاطهم الجنسى ـ باللواطة ـ الا بعد سنوات من دخولهم السجن ، ومن ثم يكون الاحتلام هو المصدر الرئيسى للتفريج الجنسى عندهم خلال تلك السنوات .

واذا راعينا أن معظم المسجونين ينتمون الى طبقات اجتماعية تمارس الجماع ـ فى نطاق الزواج ـ بمعدل كثيرا ما يتراوح بين ٦ و٧ مرات فى الاسبوع ، فاننا نجد أن القذف أثناء النوم لا يكفل لهم تعويضا يذكر ، اذ لايتجاوز معدله لديهم مابين ٣ و٦ مرات فى العام !

ومن ثم نجد ان محاولة تحديد علاقات بين الاحتلام وغيره من أنواع التفريج الجنسى ، مما يحتاج الى دراسة خاصة شاملة .

الغزل .. هواية الطبقات العليا !

• **وننتقل** الآن الى الغزل ومداعبة الجنس الآخر ، كلون من ألوان النشاط الجنسى . فقد لوحظ خلال الاجيال الاخيرة ـ ولاسيما فى الطبقات الاجتماعية العليا ـ أن الاتصالات البدنية بين الذكور والاناث قد ازدادت بدرجة كبيرة ، دون ان يصحبها أى ازدياد فى عدد مرات الجماع الفعلى . وهذه الاتصالات قد تذهب الى ماهو أبعد من العناق والقبلات ، بل انها تذهب

أحيانا الى المداعبات التى يمارسها المتزوجون قبل الجماع . **وقد استخدمنا اصطلاح الغزل فى بحثنا هذا ، للاشارة الى كل اتصال بدنى لايشتمل على اتحاد العضوين التناسليين ولكنه ينطوى على تعمد للاثارة الجنسية .** فاللمس عفوا ليس من الغزل وان أدى الى تهيج ، والقبلة العادية لاتعتبر غزلا الا اذا كانت بقصد التهيج . وليس من الضرورى أن يرتبط مقدار الغزل بمدى الانتصاب الذى يترتب عليه ، فان هذا الانتصاب قد يتوقف على نوع الفرد ، ونوع الظروف .

ولقد كان الغزل بهذا المعنى يعتبر الى عهد جد قريب قاصرا الى درجة كبيرة على العلاقات السابقة للزواج ، وعلى العلاقات الزوجية . **على انه منذ سنوات قريبة جدا ، أخذ يتجه بدرجة كبيرة الى أن يكون من العلاقات التى يمارسها المتزوجون مع غير زوجاتهم ، لاسيما اذا كانوا ممن لايفكرون فى علاقات جنسية مع خليلات ، ويحاولون اقناع أنفسهم بأنهم أوفياء لزوجاتهم .** وهذا الاتجاه أكثر مايتفشى بين ابناء المستوى الاجتماعى الرفيع ، وفى المناسبات التى يألفونها ، كحفلات الكوكتيل ، والرقص ، والنزهات بالسيارات ، والاجتماعات التى تعقب حفلات العشاء ، وغيرها من المناسبات التى تمكن الرجل المتزوج من أن يغازل زوجات غيره ، وأن يمارس اتصالات بدنية ـ وليست جماعا ـ معهن .. كاللمس والقبلات والعناق . ولسوء الحظ ، لم يكن هذا الاتجاه شائعا عندما بدأنا الابحاث التى بنينا عليها هذه الدراسات ، ومن ثم فنحن نقصر الغزل هنا على نشاط الذكور فى المراحل السابقة على الزواج .

زيادة الاقبال على الغزل فى العصر الحالى !

• **ولا نكاد** نجد فى المرحلة السابقة للبلوغ كثيرا من الحالات التى يمكن اعتبارها غزلا بالمعنى الصحيح ، ولكن الذكر لايلبث مع بداية المراهقة أن يتبين قيمة التهيج الجنسى ، ومن ثم

يميل الى أن يحذو حذو من يكبرونه ، فيبدأ فى معابثة البنات اللاتى يتصل بهن فى المجتمع . ولا يؤدى هذا الغزل الى القذف الا فى حالة من كل ٣٠٠ حالة بين الاولاد الذين هم فى بداية البلوغ ، ولكن الرقم يرتفع عند سن الخامسة عشرة فيصبح ٢٥ حالة فى كل ٣٠٠ ، ثم يزداد فى السنوات التالية التى تسبق سن العشرين

والبيانات التى حصلنا عليها ليست موفورة بحيث تمكننا من تحديد مدى انتشار الغزل ، ومعدل عدد مراته فى مراحل العمر والمستويات الاجتماعية المختلفة ، بدقة تامة ، وان كانت تدل على أن حوالى ٨٨ فى المائة من مجموع الذكور فى الولايات المتحدة قد مارسوا ، ويمارسون ، وسيمارسون — (فى حالة الفتيان الذين هم دون الخامسة عشرة) — الغزل قبل الزواج . وهذا اللون من النشاط يولد اللذة القصوى لدى حوالى ٢٨ فى المائة من هؤلاء الذكور . ويلاحظ ان الاقبال على هـــذا الغزل أشد فى الجيل الحاضر منه فى الاجيال التى تكبره . فان اكثر من ٨٥ فى المائة من ذوى التعليم الجــامعى ، فى عصرنا الحالى ، على خبرة به قبل الزواج ! ويبلغ نشاط الذكور فى ممارسة الغزل أشده بين سن السادسة عشرة وسن العشرين ، فان حوالى ثلث أبناء هذه المرحلة ، يحظون بجزء من التفريج الجنسى عن طريق الغزل

أما من حيث مرات الممارسة ، فمن الذكور من يمارسونه فى الواقع فى كل ليلة من ليالى الاسبوع ، وخلال النهارفى بعض المناسبات . وأنشط الذكور فى هذا المجال يبلغون ذروة اللذة ٧ مرات فى الاسبوع ، خلال السنوات الخمس التى تنحصر بين سن ٢١ و٢٥ سنة . على ان هناك ذكورايقضون أسابيع ، بل وشهورا ، دون أن يمارسوا الغزل ، بل هناك ذكور قد يقضون سنة أو اثنتين بين المرة والاخرى !.. ومن ناحية أخرى ، نجد ذكورا يمارسون الغزل مع عشرات — بل مئات — الفتيات قبل

الزواج ، فى حين ان ثمة آخرين لايمارسونه الا مع فتاتين أو ثلاث ، وأحيانا مع واحدة فقط لايلبث الشاب أن يتزوجها !

القيمة الاجتماعية للغزل !

• **ولما** كانت القيمة الاجتماعية للغزل تفوق مثيلاتها للاستمناء وغيره من انواع النشاط الجنسى ، لذلك يحسن بمن يريد ان يفهم المجتمع الانسانى ان يعنى بتفصيلات دقيقة عن التباين فى هذا الصدد . فالغزل أكثر مايكون شيوعا فى أوساط ذوى التعليم الجامعى والثانوى والمتوسط ، اذ أن ٩٢ فى المائة من الذكور فى هذه الاوساط يمارسونه قبل الزواج . وهذه النسبة فى طريقها الى الازدياد فى الاجيال التالية . اما فى مستوى التعليم الاعدادى ، فنجد ان النسبة تهبط الى ٨٤ فى المائة ، ويرجع ذلك الى أن الغزل يعتبر نشاطا غير طبيعى – أى شاذا – فى هذه الاوساط . **وهم اذ يقبلون عليه ، فانما يفعلون ذلك كتمهيد للجماع الذى يعتبرون انه النشاط الطبيعى فى الجنس . ثم انهم يمارسونه لبضع دقائق ، فى حين أنه قد يمتد لدى طلبة الجامعة وابناء المستوى الرفيع الى ساعات من المداعبة المهيجة ، دون ان ينتهى عادة الى جماع .** ويحدث القذف نتيجة للغزل لدى ١٦ فى المائة من الذكور الذين يقتصرون على التعليم الاعدادى ، و٣٢ فى المائة لدى ذوى التعليم العالى الذين يبقون دون زواج حتى سن الثلاثين . ومن هنا ندرك القيمة الاجتماعية للغزل .. لاسيما اذا أضفنا الى ما تقدم أن الغزل المفضى الى اللذة القصوى يحدث بين أبناء المدن – من كافة المستويات الدراسية – بمعدل يبلغ ضعفى أو ثلاثة أمثال معدل حدوثه بين أقرانهم من ابناء الريف . وهذا يعتبر من ابرز الفوارق بين سكان الريف وسكان الحضر

لماذا تفشل العلاقات العاطفية بعد الزواج ؟!

• **ومن** الشائع فى مملكة الحيوان ـ وفى مملكة النبات الى حد ما ـ ان الكائن يستجيب للاتصال البدنى عادة بالالتصاق بمصدر الاثارة . اما عند الانسان ، فان الاهل يمدون الطفل فى السنوات الاولى من عمره بقدر كبير من الاثارة والتحريض فى هذا الصدد ، فينمون فيه الاستجابةالعاطفية . ولايستنكر العرف والتقاليد تعليم الطفل الحب والاستجابة له ، ولكن معظم الآباء ـ فى الثقافة الانجليزية الامريكية ـ يشرعون فى تقييد الاتصالات البدنية للطفل بمجرد ان يكبر ، سواء كانت هذه الاتصالات نتيجة علاقاته بهم أو بسواهم . فنرى الطفلة تلقن وجوب تفادى مثل هذه الاتصالات ، سواء اكانت قبلات أو عناقا أو غير ذلك . كما يتعلم الولد انه لا يليق به ان يلمس الفتيات . **كذلك تفرض القيود على اظهار العواطف ، فيدرب الطفل على انه يجب ان لايرتقب الحنان من أمه او العطف من سواه فى المحن والضيق !**

ويعبر بعض علماء النفس عن ذلك بان الطفل يولد وينشأ فى عالم ملىء بالعواطف والحب الذى يعبر عنه باتصالاتبدنية ، ولكنه لايكاد يكبر ، حتى يلقن وجوب مقاومة الاستجابة العضوية الطبيعية ، وأن ينأى بجانبه اذا لمسه أى شخص . ثم يتوقع المجتمع اصلاح هذه الاتجاهات السلبية بمجرد عقد حفلة زفاف للفتى أو للفتاة ، بعد ان تكون التعليمات قد تغلغلت فى نفسه طوال خمس عشرة أو عشرين سنة ! .. ومن ثم فلا عجب اذا وجدنا ان الخجل اوالحرج يجعل نسبة كبيرة من الشبان والشابات عاجزين عن توثيق العلاقات العاطفية المثمرة بعد الزواج ! .. ولما كانت الانثى أبطأ نموا ـ من الناحية الجنسية ـ من الذكر ، لذلك فهى أكثر تأثرا منه بهذه القيود ، ولهذا فليس بعجيب ان نجد ان نسبة كبيرة من الزوجات ـ

لاسيما فى الطبقات المثقفة ـ يخفقن فى الاستجابة العاطفية لازواجهن !

ولقد أخذ أبناء الاجيال الحديثة يفطنون الى هذا الامر فى السنوات الاخيرة . ومع ان الكثيرين منهم يقبلون على الغزل لمجرد الارضاء السريع لانفعالاتهم الجنسية ، الا أن نسبة تدعو الى العجب منهم ، يمارس أفرادها الغزل كوسيلة لاعداد أنفسهم للزواج ! .. وقد ساعد على ادراكهم هذا : كثرة الكتب التى نشرت خلال العشرين عاما الاخيرة عن الزواج ، وانتشار الدراسات النفسية ، وبرامج التدبير المنزلى والزواج وتربية الاطفال ، وغير ذلك من برامج العلوم الاجتماعية . وهذا يفسر ـ الى حد كبير ـ تغاضى الشباب عن انتقادات الكبار لمسلكهم بصدد الغزل .

سوء الاستعداد الجنسى .. نذير بفشل الزواج !

• **ولا** يتمالك المرء نفسه من الدهشة اذ يتبين ذلك الخليط من المنطق العلمى والخطل اللاواعى ، الذى يتدخل فى تشكيل سلوك معظم الشبان ازاء الغزل . فان من الشبان من لايزال يعانى اضطرابات نفسية وقلقا من هذه الناحية . ومن أكثر دواعى العجب ، أنهم لايحفلون بما قد يقود اليه التهيج من اتصالات اعتادوا ان ينظروا اليها على انها منكرة بدرجة تفوق الجماع ، فى حين انهم لايعانون قلقا نفسيا من ناحية الجماع نفسه ! .. **ذلك لانهم لايزالون يقدرون البكارة بنفس المقاييس التى كانت الاجيال السابقة تقدرها بها ، ومن ثم فهم يقنعون أنفسهم بانهم يحافظون على بكارتهم بالاكتفاء بالغزل ولو أدى الغزل الى شعورهم باللذة القصوى أو القذف !**

ويرى الجيل الحديث أن الغزل نوع من السلوك الطبيعى . وهذا الرأى قد يكون صحيحا اذا راعينا وجهة نظر « فرويد » من اعتبار الغزل وسيلة للتفريج عن كثير من الضغط النفسى

– (الكبت والتوتر) – الذى يؤثر فى تكوين شخصية الفرد . واذا راعينا أيضا وجهة نظر علماء النفس والاخصائيين فى الزواج ، الذين يرون فى الغزل وسيلة للاعداد الجنسى للزواج. ورأينا فى هذا الصدد ، ان نجاح الزواج أو اخفاقه يتوقف على عوامل كثيرة ، من العسير ان نحدد ايها أهم من سواه . **ويشير فحصنا لحوالى ٦٠٠٠ من حالات الزواج ، وحوالى ٣٠٠٠ من حالات الطلاق ، الى انه ليس ثمة ماهو ادعى لدوام الزواج من الرغبة والعزم على استمراره .** فان الاصرار يدفع الاشخاص الى محاولة تعديل أنفسهم والتكيف مع الاوضاع القائمة التى قد تهدد سلامة الزواج . ومع ذلك فان سوء الاستعداد الجنسى يساهم فى حوالى ثلاثة ارباع حالات الانفصال والطلاق عند الطبقة العليا فى أمريكا ، وفى نسبة أقل من هذه عند الطبقات الدنيا

والواقع أن أهم عاملين من العوامل الجنسية التى تهدد الزيجات فى الطبقة العليا من المجتمع ، هما : (١) اخفاق الزوج فى ان يبدى لباقة فى التمهيد للعلاقة الجنسية ومهارة فى ممارستها ، (٢) عجز المرأة عن المساهمة بالقدراللازم لتحقيق واشباع هذه العلاقة . وكلا العاملين ينبع من مورد واحد ، هو القيود والكبت فى السنين السابقة على الزواج ، واستحالة التخفف من هذه القيود بعد الزواج .

وفى الحلقة القادمة نقدم لك الفصل الاخير من كتاب « السلوك الجنسى عند الرجل » ، لنبدأ الجزء الثانى من بحث « كينزى » ، وهو « السلوك الجنسى عند الانثى »


MEMOIRES
DE
CASANOVA
مغامرات فى الحب والسياسة !
مذكرات
كازانوفا
الكتاب الكلاسيكى الخالد
فى أدب العشق
والمغامرة

مع الكاهن الاكبر .. للحكمة والفكر !

• صحبنا أمير العشق والغرام ، فى الحلقة الماضية من مذكراته ، الى مجلس الفيلسوف الكبير « فولتير » ، الذى كان يقيم اذ ذاك فى (جنيف) والذى لقبه كازانوفا بالكاهن الاكبر للحكمة والفكر . وقد رسم لنـا الاديب العاشق صورة طريقة لمجالس فولتير و شخصيته .. وهو فى هذه الحلقة يستأنف ذكرياته الطريفة ، ثم ينتقل بنـا الى مغامرة غرامية جديدة

« سجق » من بولونيا .. لفولتير !

• **تناولت** غدائى فى اليوم التالى على مائدة « فولتير » ، وكانت هذه المائدة مبسوطة دائما لكل ضيف . ولم يشاطرنا الكاتب الكبير الغداء ، ولكن مدام دنيس ـ ابنةأخته ـ استطاعت أن تسد الفراغ الذى تركه .. فقد كانت موفورةالذوق واللباقة والذكاء . وما لبث « فولتير » أن ظهر فى « الصالون » حوالى الساعة الخامسة مساء ، وفى يده رسالة ، وبادرنى قائلا :

ـ أتعرف المركيز ألبير جانى كاباشيللى ؟.. لقد أرسـل لى نسخة من مسرحيات جولدونى ، وقـدرا من « سجق » بولونيا ، وترجمة بالايطالية لمسرحية « تانكريد » التى وضعتها منذ عهد قريب !.. هل تعرف جولدونى ؟

فقلت : « انه موليير ايطاليا !.. على أنه لا يجيد شيئـا سوى تأليف مسرحيات فكاهية جيدة .. وفيما عدا هذا فهو .. لاشىء ! »

وقضيت بقية ذلك اليوم فى صحبة « فولتير » ، فعرفنى براهب يسوعى يدعى « آدم » . ولم ينس أن يهمس فى أذنى وقد ألحت عليه روحه الساخرة : «ولكنه ليس الرجل الاول!» .

وعلمت أن « فولتير » كان يأنس الى ذلك الراهب ، وانه كان يلعب معه « الضامة » .. وكان اذا انهزم فى اللعب ، أفرغ قطع اللعبة على رأس الرجل !

« فولتير » .. يدافع عن حرية الشعوب !

• **وكنت** أطمع فى أن أقضى وقتا طيبا مع الفيلسوف الكبير فى اليوم التالى ، ولكننى ألفيته فى أسوأ طباعه ، فكان لاذع السخرية ، شرسا !.. ومع أنه كان يعرف اننى راحل عن (جنيف) فى اليوم التالى ، الا أنه لم يشأ أن يعفينى من تهكمه وسوء طباعه فى ذلك اليوم . فقد أخذنا نتحدث عن الادب والشعر والفلسفة فى مختلف الامم والعصور ، واذا بنا نتطرق الى ذكر « هوراس » ــ بطل مسرحية كورنى المشهورة بهذا الاسم ــ فقال :

ــ لو انه انبرى لمكافحة أخطبوط الوهم والخرافة ، كما فعلت أنا ، لاصبحت آراؤه وأقواله صالحة لكل أمة وبلد فى الدنيا !

ووجدتنى أقول له : « خليق بك أن تعفى نفسك من عناء الصراع ضد شىء لن تقوى على القضاء عليه ! »

ــ بل خليق بى أن أمضى فى الصراع حتى نهاية الاجل . فاذا لم أوفق ، فسوف يأتى غيرى يتم العمل بعدى ، ويظل لى الفخر لأننى كنت الاول فى السعى !

ومضى يصور الوهم والخرافة فى صورة الوحش الذى ينهش كيان الانسانية ، وصاح : **« ان الوهم والخرافة لايمكن أن يسيرا مع الحرية جنبا الى جنب . أفترى أن الاستعباد يمكن أن يحقق السعادة للناس ؟ »**

وراق لى أن أستدرجه فى الحديث ليفضفض بآرائه ، فقلت له : « اذن فأنت تصبو الى تحقيق سيادة الشعب .. اذ أن حريته وخلاصه من الاستعباد معناهما تغلب الشعب على

خرافة سيادة سواه عليه ، فى رأيك ؟ »

ـ اننا نختلف فى معنى السيادة .. فأنا أرى أن لابد للعامة من ملك يحكمهم !

وكان « فولتير » قد تقاضى يوما معاشا من ملك فرنسا ، جعله يميل الى مداهنة الملوك فيمايبدو ، فقلت : « فى هذه الحال تغدو الخرافة ضرورية ، لانها هى التى تغرى الناس على أن يسلموا حق حكمهم الى انسان مثلهم يجعلونه ملكا ! » . وكأنما فطن الى ما كنت أرمى اليه ، فقال : « لا تتحدث عن الملوك !.. ان هذا الاسم يوحى بالاستبداد الذى أكرهه كراهيتى للاستعباد .. انما اريد « عاهلا » يحكم شعبا حرا ، ويرتبط مع هذا الشعب بمواثيق متبادلة ، تحول دون انحرافه الى الاستبداد ! »

القوانين التى يضعها الشعب .. هى التى تقيده !

• **ورأيت** أن أمضى فى استشارته فقلت : « ولكن اديسون ـ وهو كما تعلم من خير فلاسفة الحكم ـ يرى أن وجود مثل هذا العاهل أو الرئيس أمر مستحيل . **واذا كان الشعب مسوقا لان يختار بين أمرين كلاهما شر ، فأظنك تسلم بأن من الخير أن يختار أهون الشرين . ان الامة التى تتحرر من الخرافة والوهم تصبح أمة فلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون الطاعة ، فى حين أن الحكم لا يستقيم بغير الطاعة .. لهذا أرى أن لاسعادة لشعب مالم يتسن للحاكم اخضاعه وكبح جماحه ! »**

وصاح فولتير مستنكرا : « هذا فظيع !.. أو تزعم بعد هذا أنك من الشعب ؟ .. لوأنك قرأت مؤلفاتى ... » . فقاطعته قائلا :

ـ قرأتها مرارا ، لا سيما تلك الآراء التى أختلف معك بشأنها . ان العاطفة التى تستبد بك هى حبك للانسانية ، وهذا الحب يعميك !.. ان لك أن تحب الانسانية ، ولكن ..

كما هى الآن ! فالانسانية لا تشعر بالخيرات التى تريد أن تغدقها عليها ، ومن ثم فان هذه الخيرات لن تزيدها سوى شقاء وضلال ! .. ان الانسانية تحب ذلك الوحش الذى ينهشها .. وحش الخضوع للملوك والحكام . ألا تذكر كيف ثار العبيد على « دون كيشوت » حين أشفق عليهم مما كانوا يلقونه من ظلم وأراد أن يحررهم ؟ !

ـ يؤسفنى أن تسىء الظن بأبناء جنسك الى هذا الحد . هل ترى أنكم تنعمون بالحرية فى جمهورية البندقية ؟

ـ اننا ننعم منها بالقدر الذى يرتجى من حكومة ارستقراطية، فلسنا أحرارا بالمعنى المطلق ، ولكننا قانعون بما نستمتع به !

فقال فولتير يعيرنى ويذكرنى بما عانيته فى وطنى : **« وهل ظللت قانعا بعد أن زجوا بك فى سجن ديوان التفتيش ؟ »**

ـ اننى أقر بأن سجنى كان استبدادا ، ولكننى فى الوقت ذاته أعترف بأننى أسأت استغلال حريتي ..

ـ ومع ذلك فقد عمدت الى الفرار !

ـ كنت أتصرف فى نطاق حقوقى ، كما تصرفت الحكومة فى نطاق حقوقها !

ـ ان الرأى الفاصل عندى هو هذا : أتح للشعب ـ فى كل مكان ـ أن يضع قوانينه بنفسه أولا ، ثم قيده بهذه القوانين ، فلا تعتبر القيود اذ ذاك حدا من حريته !

ونهض « فولتير » منصرفا الى مخدعه ، فانصرفت بدورى وأنا آسف ، اذ شعرت بأننى قد هبطت بهذا الفيلسوف من جنون العبقرية الى واقعية العقل !

وفى اليوم التالى ، رحلت ميمما شطر الجنوب .

آراء امرأة .. تفتن كازانوفا !

• **طفت** في رحلتي بكل من : (افنيون) و (مارسيليا)

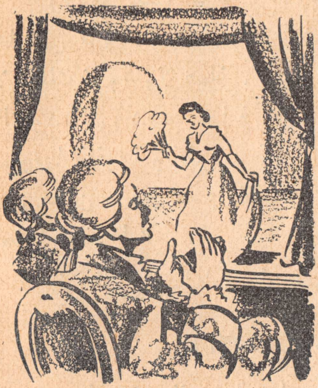
و (نيس) و (جنوا) و (بيزا) .. ومكثت فترة فى هذه الاخيرة ، فتعرفت الى انجليزى باع لى عربته ، وقدمنى الى شاعرة كانت تحظى اذ ذاك بصيت كبير . تلك هى «كوريللا»، التى ناقشتنى فى كثير من الموضوعات ، فلم يفتننى جمالها ، بقدر ما فتنتنى آراؤها !

وعندما وصلت الى (فلورنسا) استأجرت حوذيا للعربة وخادما لى ، وألبستهما الزى الازرق والاحمر الذى كان يرتديه خدم أبى الروحى « براجادان » .. اذ تسلمت مبلغا كان هذا السيد الكريم قد أرسله لى عن طريق صديق له هناك . وفى مســـاء يوم وصولى ، ذهبت الى دار « الاوبرا » . ولك أن تتصور مدى دهشتى واغتباطى ، حين تبينت أن المغنية لم تكن سوى « تيريزا » .. الفتاة التى كانت تسافر مع أمهـــا وأخويها ، وهى متنكرة فى زى غلام ، والتى التقيت بهافى سنة ١٧٤٤ فكشفت سر أنوثتها ، وكانت لى معها مغامرة سعيدة ، حتى أننى كدت أتزوجها لو لم أعتقل فى (بيسارو) .. أتذكر هذه الاحداث ياعزيزى القارىء ؟

كازانوفا لا ينسى مغامراته قط !

• **ولم** أكن قد رأيت « تيريزا » منذ سبع عشرة سنة ، ولكنها بدت لى أجمل من ذى قبل . وما أن انتهت من أغنيتها، حتى رفعت رأسها تحيى رواد المقصورات .. ورأيت بصرها يعلق بى ، فلا يتحول عنى . **حتى اذا همت بمغادرة المسرح ، أشارت لى بمروحتها ، فغادرت مكانى وقد راح قلبى يدق فى عنف ، ثم تسللت الى ماوراء ((الكواليس)) ، حيث وجدتها واقفة فى انتظارى على قمة سلم صغير..ووقف كل منا يحدق فى الآخر فى صمت ، لبضع لحظات ، ثم تناولت يدها فوضعتها عند قلبى !.. وقلت : ((هل تلمسين مدى شعورى ؟))**

فقالت : « لقد خيل الي عندما رأيتك لاول وهلة انني سأقع



فاقدة الرشد على المسرح ! .. اننى لسوء الحظ مدعوة للعشاء الليلة ، ولكننى أعرف أن النوم لن يزور جفونى ، واننى سأقضى بقية ليلى مسهدة ! .. تعال الى دارى فى الثامنة من صباح غد .. أين تقيم ؟ .. وتحت أى اسم نزلت فى المدينة ؟ .. ومنذ متى جئت ؟.. والى متى ستكمث ؟ .. وهل تزوجت ؟! .. اللعنة ، انهم ينادوننى .. فالى الغد ! »

زوج الحبيبة القديمة .. مفلس وعاطل !

• **وتذكرت** ـ بعد أن عدت الى مقعدى ـ أنها لم تذكر لى الاسم الذى اتخذته فى حياتها الجديدة ، ولا عنوان دارها ، فالتفت الى شاب كان يجلس بجوارى ، وسألته عن المغنية التى قامت بالدور الاول ، فرمقنى الشاب فى عجب ، ثم قال : **« آه ، يبدو أنك غريب عن فلورنسا ، والا لكان جهلك مشينا .. انها تحمل اسمى ياسيدى ، فهى زوجتى .. وأنا أدعى « سيريللو باليسى » .. فى خدمتك ! »**

وبهت للمفاجأة ! ولكننى أسرعت أتمالك نفسى ، وانحنيت تحية له ، ولم أشأ أن أسأله عن عنوانه ، خشية أن يرى فى الامر ما يسوؤه . على أننى وجدت نفسى نهبا لالف خاطر وشعور .. اذن فقد تزوجت تيريزا ؟ .. ولقد كان زوجها شابا مليحا .. لكم كنت غبيا اذ قنعت بالمغامرات ، وهذه الحياة التى لا تستقر يوما ، وتركت « تيريزا » تفلت من حياتى !

وفيما كنت أبرح « الاوبرا » ، علمت من أحد الخدم أن فاتنتى تزوجت منذ عشرة شهور فقط ، وأن زوجها معدم ، لا يملك ثروة ولا عملا .. وأردف الخادم حين أحس بقطعة النقود التى دسستها فى يده : « ولكنها واسعة الثراء .. ان ثروتها تكفيها وتكفيه . كما أن لها سمعة تكفل لها الاحترام فى كل مكان ، فلا تدع الظنون تراودك بعد اذ علمت أنها زوجة لعاطل فقير ! »

على أننى استطعت أن أعرف منه عنوانها .. رغم ذلك !

« الاب » .. السعيد أبدا !

• **لم** تكد الساعة تعلن الثامنة من الصباح التالى ، حتى كنت أقف أمام دار أول امرأة أحببتها حبا حقيقيا .. وفتحت لى الباب خادم عجوز ، لم أكد أذكر لها اسمى حتى دعتنى للدخول قائلة ان مولاتها ترتقب مقدمى !

وسرعان ما أقبل الزوج الشاب ، وهو بعد فى ثياب النوم ، فحيانى فى أدب ، وذكر لى ان زوجته لن تلبث ان تهبط . ثم سدد بصره الى وجهى وهو يقول : « انك بالتأكيد ذلك السيد الذى سألنى عن اسم زوجتى فى الليلة الماضية » . فأجبت : « هذا حق ياسيدى ، فأنا لم أرها منذ سنوات بعيدة ، ولم أكن أعرف أنها تزوجت .. وكان من حسن المصادفات أن أول شخص سألته عنها هو زوجها . واذا سمحت لى ، فلسوف يسعدنى أن أبسط لك نفس الود الذى أكنه لها ! »

وهنا أقبلت « تيريزا » ، ففتحت ذراعيها ، وتعانقنا طويلا

كعاشقين طال بهما الفراق . ثم جلست الى جانبى وهى تبكى لفرط المشاعر التى تملكتها .. وكنت أنا الآخر أبكى ، بينما كان زوجها يرمقنا فى عجب . والواقع أننا لم نفطن الى وجوده الا بعد أن هدأت عواطفنا ، واذ ذاك انفجرنا ضاحكين ، ثم هتفت « تيريزا » لزوجها ببراعة المرأة القديرة على السيطرة عليه :

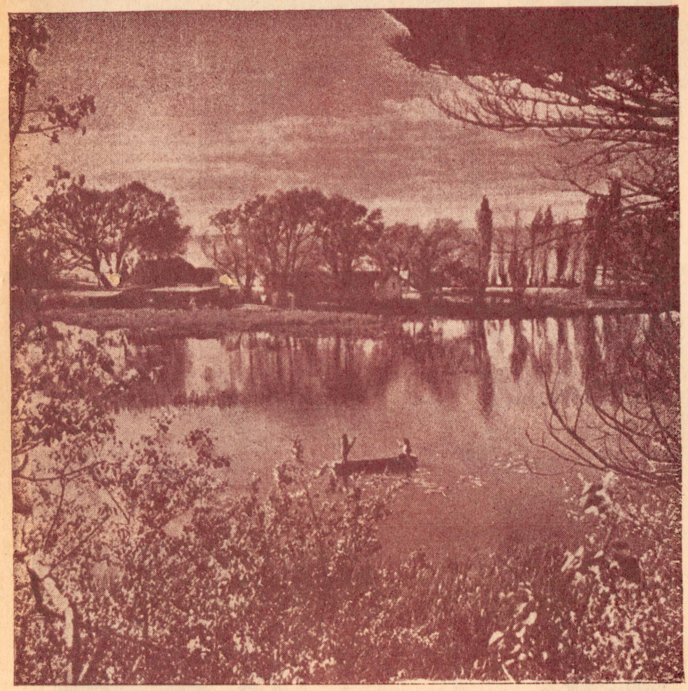
ـ انك ترى أمامك ياعزيزى رجلا كان لى بمثابة الاب ، بل أكثر من الاب ! فأنا مدينة لهذا السيد الكريم بكل ماأنا فيه .. أواه ، ياللساعة السعيدة التى جمعتنى به بعدهذه السنوات الطوال !

واتسعت مقلتا الزوج ، وعاد يتفرس فى وجهى . فقد أذهله أن تصفنى زوجته بكلمة « أب » ، فى حين أننى لم أكن أكبرها بأكثر من عامين . ورأيت أن أوضح له الموقف ، فقلت :

ـ أجل ياسيدى ، ان زوجتك تيريزا ابنتى وأختى وأعز صديقة لى .. انها ملاكى وكنزى ، وان كانت زوجتك !

والتفت الى تيريزا معتذرا لعدم ردى على آخر رسالة بعثت بها الى ، فقالت : « اننى أعرف السبب ، فقد سجنوك فى سجن القصدير على ما علمت .. ولقد سمعت فى (فيينا) عن مغامرة الفرار الرائعة .. وسمعت الناس يرددونهافى اعجاب فى فرنسا وهولندا . ولم أفقد الاثر الذى كنت أتتبع به أنباءك الا أخيرا . انك ستدهش اذا رويت لك ما صادفت خلال السنوات العشر الاخيرة . على أننى الآن فى أقصى مراتب السعادة .. وقد تزوجت من عزيزى « باليسى » منذ وقت قصير ، وهو رومانى أصيل .. وكل منا يحب الآخر حبا جما ، وآمل أن تصبحا صديقين ! »

وفى الحلقة التالية ، نصحب « كازانوفا » فى أحداث المغامرة الرائعة التى تركنا على أبوابها .



عندما تضحك الطبيعة ! صورة فوتوغرافية تمثل الطبيعة فى النمسا ، فى أزهى حللها !



جمال من القرن التاسع عشر لوحة تمثل « الكونتة دوسونفيل » من رسم الفنان « آنجر » (١٧٨٠ - ١٨٦٧)

